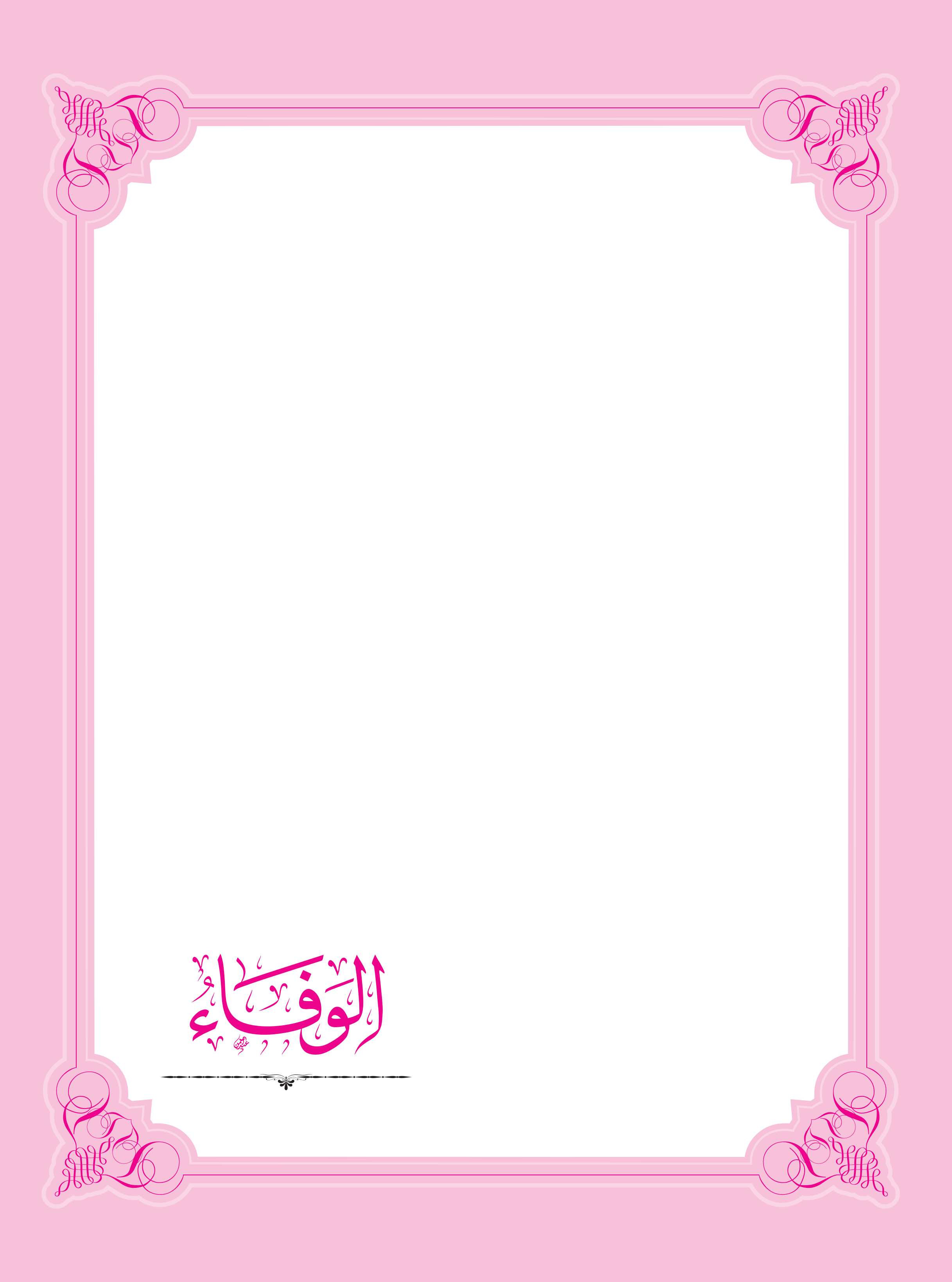
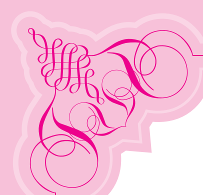

الوفاء





الطبعة الثانية

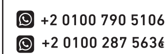
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

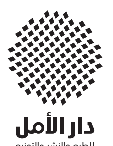
رقم الإيداع

٢٠٢٢/٢٩٥١م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-6951-37-2







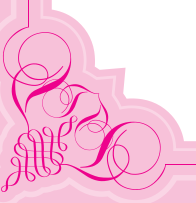
01000 28 21 66

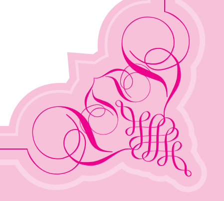
دار الأمل للطبع والنشر والتوزيع

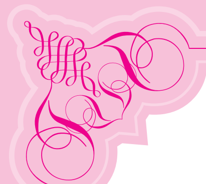
daralamalpublishing

Daralamal Dar Alamal

Daralamal2014@gmail.com







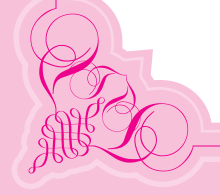

الوفاء

إعداد

محمد أحمد إسماعيل المقدم









بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الكبير المتعال، ذي العظمة والجلال، والكمال والجمال، والصلاة والسلام على من شرَّفه الله بأعظمِ الخلائق وأشرفِ الخصال، وبلغ من خلق الوفاء وسائر الأخلاق أقصى نهاية الكمال، وعلى آله وأصحابه خيرِ صحبٍ وآل.

أما بعد:

فإن الوفاء قِوام مكارم الأخلاق، وميزان المروءة، ومقياس الفضل، وهو من حميد الشِّيَم، وهو أقوى الدلائل على طيب الأصل، وشرف العنصر، وكرم الطبع.

وهو خُلق رفيع تستحسنه الفطر السويّة، وتُجِلُّه النفوس الشريفة، وبقدر ما عظَّمه العرب في جاهليتهم وتمادحوا به، بقدر ما ذَمُّوا نقيضه (الغدر)، وعَيَّروا من تلطخ به.

ثم جاءت الشريعة الحنيفية الشريفة فحضَّت عليه، ورغَّبت فيه، وأثنت على أهله خيرًا، وحذَّرت من الغدر ونكث العهود، ونقض المواثيق.

ولقد تواتر منذ أعصار بعيدة شكوى الأدباء والشعراء من أهل زمانهم وندرة الوفاء فيهم وعِزَّة أهله، وإنه لفي زماننا أعز وأندر؛ فمِن ثَمَّ مسَّت الحاجة

إلى إحياء معانيه، واجترار ماضيه، وجمع ما أمكن من الآثار فيه، فالمقصود تذكير الناس بفضيلة الوفاء وتحفيزهم على تمثله، وتنفيرهم من الغدر، والبراءةُ من التلطخ به، بعيدًا عن السوداوية المفرطة التي تهيمن على نفوس بعض الأدباء والشعراء، ممن يقيمون «سرادقات العزاء» و«حفلات التأبين» حيث يندبون القيم التي اندثرت، وينوحون على الوفاء وأهله، بما يوحي بإعدامه من الوجود.

يقول الشاعر:

بحـثـتُ عـن الـوفـاء فـلـم أجـدْه ... عـلـى شَـرَفٍ ولا في بـطـنِ وادي

ولا بـيـنَ الـسـهـولِ ولا الـروابـي ... ولا بـيـن الحـواضـرِ والـبـوادي

عـجـبـتُ وكـلـما صـادَقـتُ خِـلا ... سـألـتُ أصـاحِـبٌ ذا أم مُـعـادِي

وقال آخَرُ معلنًا خلوَّ الأرض من أهل المـروءات، وانضمامهم إلى الأموات:

مـررتُ عـلـى المـروءة وهْـيَ تبكي ... فقلـتُ: عَـلَامَ تـنـتـحِـبُ الفتاةُ؟

فـقـالـت: كـيـف لا أبـكـي وأهلي ... جمـيـعًـا دُونَ خـلـقِ اللّهِ ماتوا!

فالتقطها واحدٌ من (نعايا الفضائل) وراح يعارضها[1] وينسج على منوالها، ويُحيي (حفلة الموت والتأبين):

مـررت عـلـى الـشـجـاعـة وهـي تبكي

فـقـلـت: عـلام تـنـتـحـب الـفـتـاة؟

(١) عارض شاعرًا: باراه، وجاراه في شعره، وأتى بمثله أو أحسن منه.

فقالت: كيف والشجعان مروا
على المظلوم فابتسموا وفاتوا!
مررت على العروبة وهي تبكي
فقلت: علام تنتحب الفتاة؟
أجابتني بنظرات طوال
فإذ بالرد أبلغه السكات
مررت على الشهادة وهي تبكي
فقلت: علام تنتحب الفتاة؟
فقالت: بالمحاكم قول زور
وعند الحكم أهملني القضاة
مررت على المدارس وهي تبكي
فقلت: علام تنتحب الفتاة؟
فقالت: كيف والأخلاق وَلَّت
كذا التعليم ليس له ثبات
مررت على الضمير وكان يبكي
فقلت: علام ينتحب الضمير؟
فقال: وكيف لا أبكي وإني
بجوف الناس ممتهن حقير!
أما تدري بقوم أكرموني

ببطن الأرض ما لهموا رفاةُ
فطفت على القبور عسى ألاقي
سبيلي إذ ألمت مشكلاتُ
مكثت مع المقابر ساعتين
لعل النفس تأتيها الوفاة

وما أشبه مسلكَ (نعايا الوفاء) بمسلك ذوي النَّفَسِ الحَرورِي الخارجي الذي يقوم على مبدأ (هَلَكَ الناسُ) الذي أنكره الصادق المصدوق ﷺ حين قال: «**إذَا سَمِعْتَ الرجل يقول: هَلَكَ الناسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»[١].

وأحسن من هذا المسلك تذكيرُ الناس بغربة الإسلام، وتبشيرُ من يصبر على دينه، ويتمسك بأخلاقه، ويقبض على الجمر بمثل ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطُوبى للغرباء**»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٣).
فائدة: قال محيي السنة البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو سليمان الخطابيّ: معنى هذا: ألا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساويهم، ويقول: قد فسد الناس، وهلكوا ونحو ذلك من الكلام، وإذا فعل الرجل ذلك؛ فهو أهلكهم وأسوؤهم حالًا فيما يلحقه من الإثم في عيبهم، والإزراء بهم، وربما أدَّاه ذلك إلى العُجب بنفسه، ويرى أن له فضلًا عليهم، وأنه خيرٌ منهم؛ فيهلك.
قلتُ: وروي معنى هذا عن مالكٍ قال: إذا قال ذلك تحزُّنًا لما يرى في الناس -يعني في أمر دينهم-؛ فلا أرى به بأسًا، فإذا قال ذلك عُجبًا بنفسه، وتصاغرًا للناس؛ فهو المكروه الذي نهي عنه.
وقيل: هم الذين يؤيسون الناس من رحمة الله، يقولون: هلك الناس، أي: استوجبوا النار والخلود فيها بسوء أعمالهم، فإذا قال ذلك؛ فهو أهلكَهم -بفتح الكاف- أي: أوجب لهم ذلك» اهـ. من «شرح السنة» (١٣/ ١٤٤، ١٤٥).
(٢) رواه مسلم (١٤٥).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يومٍ ونحن عنده: «**طوبى للغرباء**»، فقيل: «من الغرباء يا رسول الله؟» فقال: «**أناس صالحون، في أناس سُوءٍ كثيرٍ، من يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم**»[(١)].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يأتي على الناس زمانٌ، الصابر فيهم على دينه، كالقابض على الجمر**»[(٢)].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**»[(٣)].

ولاشك أن (التجديد الأخلاقي) من أهم محاور تجديد التدين؛ فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارمَ** -وفي رواية: **صالحَ**- **الأخلاق**»[(٤)].

ولقد جَدَّدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمل في إصلاح أحوال الأمة وعودتها إلى مكارم الأخلاق مهما اشتدت غربتها في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ، لا يُدْرَى آخِرُهُ خَيْرٌ أَم أَوَّلُهُ**»[(٥)].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦٦٥٠)، وغيره، وقال محققو «المسند»: «حديث حسن لغيره».

(٢) رواه الترمذي (٢٢٦٠)، وصححه الألباني بشواهده في «الصحيحة» (٩٥٧).

(٣) رواه أبو داود (٤٢٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٢٢)، وقال السيوطي: «اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح».

(٤) انظر تخريجه (ص٦٧).

(٥) رواه الترمذي (٢٨٧٣)، وحَسَّنَه، والإمام أحمد (٣/ ١٣٠، ١٤٣)، ونقل المناوي عن الحافظ ابن حجر قوله: «هو حديث حسن له طرق، قد يرتقي بها إلى الصحة» اهـ. من «فيض القدير» (٥/ ٥١٧).

والخير في هذه الأمة المرحومة دائم لا ينقطع؛ فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَـزالُ طَائفةٌ مِن أُمتي ظاهرينَ على الحقِّ لا يَضرهم مَن خذلهم، حتى يأتيَ أَمرُ اللهِ وَهُم كذلك**»[(١)].

وعن أبي عنبة الخَوْلاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَزالُ اللهُ يَغرِسُ في هذا الدِّين غَرْسًا، يَستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة**»[(٢)].

وأحسن من مسلك «نعايا الفضائل»: ترغيب الحائدين عن مكارم الأخلاق في مجاهدة أنفسهم وتعديل أخلاقهم، فإن الأخلاق لو كانت صفاتٍ لازمةً تُخلق في الإنسان ويُطبع عليها، فلا يمكنه تغييرها ولا تبديلها ولا تعديلها؛ كسائر صفاته الجسدية من طُولٍ وقِصَرٍ ولون؛ لما أمر الشرع بالتخلق بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن القبيحة، فلو لم يكن ذلك ممكنًا مقدورًا للإنسان لما ورد به الشرع؛ لأنه (لا تكليف إلا بمقدور) و(لا تكليف بمستحيل)؛ قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩، ١٠]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما العلمُ بالتعلُّم، والحِلْمُ بالتحلُّم، ومن يتحرَّ الخير يُعْطَه، ومن يتوقَّ الشرَّ يُوَقَّه**»[(٣)]، لكن الناس يتفاوتون في مقدار

(١) أخرجه من حديث ثَوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مسلمٌ رقم (١٩٢٠)، وأبو داود رقم (٤٢٥٢)، والترمذي رقم (٢٢٢٩)، وابن ماجه (٢/ ٤٦٤) رقم (٤٠١٦)، وأحمد (٥/ ٢٧٨، ٢٧٩)، والحاكم (٤/ ٤٤٩، ٤٥٠).

(٢) رواه من حديث أبي عنبة الخَوْلاني الإمامُ أحمد (٤/ ٢٠٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦/ ٢٣١)، رقم (٧٥٦٩).

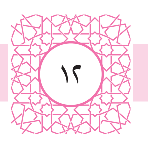
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٩/ ١٢٧)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٤٢).

أهليتهم وقدرتهم واستعدادهم لاكتساب الأخلاق أو تعديلها، فمن جُبِلَ على خُلُقٍ معينٍ يسهل عليه ترسيخ هذا الخلق في نفسه؛ لأن فطرته تُعينه عليه.

وأحسن من مسالك (نعايا الفضائل) ذوي المزاج السوداوي: بيان أن الواقع يشي بأن أهل الوفاء -وإن كانوا قلة نادرة- لكنهم لم ينقرضوا، وأكثر ما تجدهم بين الذين تآخَوْا في الله، وجمعهم الحب في الله، والتعاضد لنصرة دين الله، وصفحات الحياة حافلة بمواقفهم التي تقرُّ بها الأعين، وتشنّف بها الآذان، وتأنس بها الأرواح.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

محمد أحمد إسماعيل المقدم
ثغر الإسكندرية في
الإثنين ٩ من شعبان ١٤٤٢هـ
الموافق ٢٢ من مارس ٢٠٢١م



تعريف الوفـاء



الوفاء هو تأدية الحق كاملًا غير منقوص، يقال: وفَّى فلان: إذا كان يُعطي كل ذي حقٍّ حقَّه بالتمام والكمال، سواء في ذلك الحقوق المعنوية؛ كالاحترام والتقدير والعرفان بالجميل، أو المادية بأن يؤدي ما عليه من حقوق مادية بتمامها وكمالها دون تلكؤ أو مماطلة أو مراوغة أو إعنات[(١)].

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواو والفاء والحرف المعتل: كلمة تدُلُّ على إكمالٍ وإتمام. منه الوفاءُ: إتمامُ العهد وإكمال الشَّرط. ووفَى: أَوْفى، فهو وفيٌّ. ويقولون: أوفَيْتُك الشَّيءَ؛ إذا قضَيْته إيَّاه وافيًا. وتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ واستوفَيْتُه؛ إذا أَخَذْتَه كلَّه حتى لم تَترُكْ منه شيئًا. ومنه يقال للميت: توفَّاه[(٢)] اللهُ»[(٣)].

---

(١) «مكارم الأخلاق في الإسلام» (ص١٧٩).

(٢) وقد عُبِّرَ عن الموتِ والنوم بالتَّوَفِّي، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ [الأنعام:٦٠]، ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السجدة:١١]، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ [النحل:٧٠]، ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل:٢٨]، ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١]، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ [يونس:٤٦]، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران:١٩٣]، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦]، ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ [يوسف:١٠١]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقد قيل: تَوَفِّي رِفْعَةٍ واختصاصٍ لا توفي مَوْتٍ. قال ابن عباس: تَوَفِّي مَوْتٍ؛ لأنه أماته، ثم أحياهُ.

(٣) «مقاييس اللغة» (٦/ ١٢٩).

وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم:٣٧]، فتَوْفِيَتُهُ أنه بَذَلَ المجهود في جميع ما طُولِبَ به، مما أشار إليه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة:١١١]، مِن بذله ماله بالإنفاق في طاعته، وبذل ولده الذي هو أعزُّ من نفسه للقربان، وإلى ما نبَّه عليه بقوله: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ أشار بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]، وتَوْفِيَةُ الشيء: بَذْلُهُ وافيًا، واستيفاؤُهُ: تناوله وافِيًا. قال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران:٢٥]، وقال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [البقرة:٢٨١]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥]، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور:٣٩].

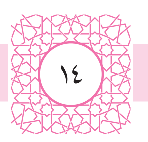
وقال الجُرْجانيُّ: «الوفاء: هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء»[١].

وقال الجاحظ: «الوفاء: هو الصبر على ما يَبذُلُه الإنسان من نفسه، ويرهنه به لسانُه[٢]، والخروج ممَّا يضمنه -بمقتضى العهد الذي قطعه على نفسه- وإن كان مجحِفًا به، فليس يُعَدُّ وفيًّا مَن لم تلحقه بوفائه أذيَّةٌ وإن قَلَّتْ، وكلَّما أَضَرَّ به الدُّخولُ تحتَ ما حَكَمَ به على نفسه كان ذلك أبلَغَ في الوفاء»[٣].

(١) «التعريفات» (ص٢٥٣).

(٢) معنى هذه العبارة: أن الإنسان يصبح رهينة بما ينطق به لسانه، ولا يكون وفيًّا إلا إذا حرر نفسه بالوفاء بما التزم به، وهذا هو مضمون العبارة التالية في قوله: «والخروج مما يضمنه»، أي: خروج الإنسان من العهد الذي قطعه على نفسه، وألزمه به لسانه مما ضمنه للغير.

(٣) «تهذيب الأخلاق» المنسوب للجاحظ (ص٢٤).



وقال الراغب: «وفى بعهده يفي وفاء، وأوفى: إذا تم العهد ولم ينقض حفظه»[(١)].

وقال أيضًا: «الوفاء: أخو الصدق والعدل، والغدر: أخو الكذب والجَور؛ وذلك أن الوفاء صدقُ اللسانِ والفعلِ معًا، والغدر كذبٌ بهما؛ لأن فيه مع الكذب نقضَ العهد».

وقيل في تعريف المروءة: «مراعاة العهود، والوفاء بالعقود».

«ومن فَقَدَ الوفاء فقد انسلخ من الإنسانية»[(٢)].

وقد قالوا في ذم الإخلاف:

إذا عهدوا فليس لهم وفاءُ ... وإن وعدوا فموعدهم هَباءُ

وضربوا بإخلاف الوعد المثَلَ في القُبْحِ، فقالوا:

أقبحُ من وعدٍ بلا وفاءِ ... ومن زوالِ النعمةِ الحسناءِ



(١) «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٧٨).

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» بتصرف (ص١٩١).

الله تعالى أهل الوفاء

الله سبحانه صاحب الوفاء الأوفى والأعلى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ [البقرة:٨٠].

عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول[١]: «**اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك وحبلِ جِوارك، فقِه فتنةَ القبر وعذابَ النار، أنت أهلُ الوفاءِ والحقِّ، فاغفر له وارحمه؛ إنك أنت الغفورُ الرحيم**»[٢].

ورُوي عن ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهدُ إليك[٣] في هذه الحياة الدنيا، أني أشهد أن لا إله إلا أنت، وحْدَك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، فإنك إن تَكِلْني إلى نفْسي[٤]، تُقَرِّبْني من الشر، وتُباعِدْني**

(١) أي في صلاة الجنازة يدعو للميت.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٦٠١٨)، وأبو داود (٣٢٠٢)، وابن ماجه (١٤٩٩)، وابن حبان (٣٠٧٤)، وقال محققو «المسند»: «إسناده حسن» (٢٥/ ٤٠٠).

(٣) قال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**إني أعهد**» في «القاموس»: العهد: توحيد الله تعالى، ومنه قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٨٧]، فيمكن أن يقال: المعنى هاهنا: إني أوحدك بالشهادتين، ملتجئًا إليك في حفظ ذلك لي وبقائه، والإيفاء بجزائه عند الحاجة إليه. فإن قلت: ما وجه التوحيد بالشهادتين مع أن الشهادة بالرسالة لا دخل لها في التوحيد؟ قلت: المراد التوحيد على الوجه المأمور به، ولا يحصل ذلك إلا بالشهادتين».

(٤) «**فإنك إن تكلني**»: تعليل للالتجاء إليه تعالى، أي: إن تكلني بقطع عونك عني، والتخلية بيني وبين نفسي.

من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا، تُوَفِّينِيهِ[(١)] يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد؛ إلا قال الله[(٢)] لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عَهِدَ إليَّ عهْدًا، فأوْفُوه إيَّاه، فيُدْخِلُه الله الجنة»[(٣)].

فائدة:

عَدَّ البيهقي، والحليمي، والقرطبي (الوفيَّ) من أسماء الله تعالى وقال القرطبي: «لم يأت في القرآ ن اسمًا، وإنما ورد فعلًا، فقال -وقوله الحق-: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [آل عمران:٥٧]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور:٢٥]، وأجمع العلماء على إطلاقه على الله تعالى»[(٤)].

أما ما حكاه من الإجماع فإن قصد به اسم (الوفي) فبعيد، لعدم ثبوته في الوحي، أما إطلاق وصف (الوفاء) باعتباره صفة من صفات الله تعالى فقد دل عليه القرآن والسنة، ومعلوم أن باب الإخبار عن صفات الله سبحانه أوسع من باب الأسماء التي هي توقيفية -على الراجح- ولا تثبت إلا بدليل من القرآن أو السنة، والله أعلم.

---

(١) «**فاجعل لي عندك عهدًا**»، أي: فاكتب لي عندك توحيدًا، واحفظه لي في خزائنك.
«**توفينيه**»، أي: جزاءه، والمقصود أن يكون توحيده مقبولًا عنده.

(٢) «**إلا قال الله**»، ليس الموضع موضع كلمة «إلا»، إلا بأن تجعل كلمة «من» في قوله: «من قال» استفهامية للإنكار، أي: ما يقول أحد، فصح الاستثناء، كما في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٩١٦)، وقال الهيثمي في «المجمع»: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

(٤) «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» (١/ ٤٢٢)، وانظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (١/ ١٩٧).

مراتب الوفـــاء



١- أن يفيَ الإنسان لمن يفي له، وهذا فرضٌ لازم.

٢- الوفاء لمن غدر.

ومن قابل الغدر بمثله لا يستأهل الملامة، بيد أن هذه الحال تفوقها جدًّا؛ إذ فيها ترك مكافأة الأذى بمثله.

وفي الحديث: «**وإن امرُؤٌ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك، فلا تُعَيِّرْهُ بما تعلم فيه؛ فإنما وبالُ ذلك عليه**»[(١)].

وهذا رعيٌ للذِّمَّة، وحرمةِ ما كان.

ومَن شيمته الوفاء يفي للصديق والعدو، ومَنْ طبيعته الغدر لا يفي لأحد.

٣- الوفاء مع اليأس الباتِّ بعد حلول المنايا، وهو أحسن من الوفاء حالَ

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٨٢)، والأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (٦/ ١٨٢).
وانظر: «مسند أحمد» (٣٤/ ٢٣٤) حديث رقم: (٢٠٦٣٢)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (٧٧٠، ١١٠٩).

الحياة ومع رجاء اللقاء[١]، وأحكام الجنائز وما بعد الموت كلُّها وفاء للميت وأهله.



(١) وهذا أقوى أمارات الوفاء في الدنيا؛ لأن من تفي له لا يطلع عليه، ولن يقابلك بمثله ولو بالشكر والثناء، والثباتُ عليه طولَ الحياة دليل صدق المحبة والإخلاص فيها، وقد عَزَّ هذا الخلق جدًّا حتى يكاد لا يُرى إلا في صفحات الكتب وتراجم السابقين، وإلا فحال أكثر العالَمَ يصدق فيه قول الشاعر:

سيُعرض عن ذكري وتُنْسَى مودتي ... ويحدث بعدي للخليلِ خليلُ

ووُجد مكتوبًا على بعض القبور:

مَلَّ الأحبة زَوْرتي فجُفيتُ ... وسكنت في دار البِلَى فنُسيتُ
الحي يَكْذِبُ لا صديق لميت ... لو كان يَصْدُقُ مات حين يموتُ
يا مؤنسًا سكن الثرى وبقيتُ ... لو كنتُ أصدُقُ إذ بليتَ بليتُ
أو كان يَعمى للبكاء مُفجَّعٌ ... من طول ما أبكي عليك عَميتُ

وقال محمد بن عبد الله:

وعما قليل لن ترى باكيًا لنا ... سيضحك من يبكي ويُعْرِض عن ذكري
ترى صاحبي يبكي قليلًا لفُرقتي ... ويضحك من طول الليالي على قبري
ويُحدِث إخوانًا وينسى مودَّتي ... وتشغله الأحبابُ عني وعن ذكري

وقال آخر:

وكما تبلَى وجوهٌ في الثرى ... فكذا يَبْلَى عليهنَّ الحَزَنْ

من أنواع الوفـــاء



الأول: الوفاء بالعهد:

وفى بعهده يفي وفاءً، وأوْفَى: إذا تمَّمَ العهْدَ ولم يَنْقُضْ حِفْظَه، واشتقاقُ ضِدِّهِ -وهو الغَدْرُ- يدلُّ على ذلك وهو التَّرْكُ، والقرآن جاء بأوْفى، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل:٩١]، ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ [آل عمران:٧٦]، ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:١٧٧]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:١٩-٢٤].

الوفاء بالعهد الذي بين العبد وربه:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠، ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الآية [المائدة:٧].

وقال في حق خليله إبراهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧] أي: عمل بما أُمِر به وبلَّغ رسالات ربه -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-.

الثاني: الوفاء بالعقد:

قال جلَّ ثناؤه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]؛ يعني بذلك ما عقدوه على أنفسهم لله من طاعات؛ كالحج والصيام والاعتكاف والنذر وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسلام، ويشمل أيضًا ما عقده المرء على نفسه؛ مثل: البيع والشراء والإجارة والمناكحة والطلاق والمزارعة والمصالحة والتمليك وغيرها مما لا يخالف الشريعة.

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولئك خيارُ عباد الله عند الله يوم القيامة: المُوفُونَ المُطَيَّبون**»[1].

الثالث: الوفاء بشروط النكاح:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أحَقُّ الشُّروطِ أن تُوفُوا به ما استَحْلَلْتُم به الفُروجَ**»[2]. يعني: شروط النكاح.

---

(١) انظر تخريجه: (ص٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٢١)، ومسلم (١٤١٨).

الرابع: الوفاء بإعطاء الأجير أجره:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطوا الأجير أجره، قبْلَ أن يجفَّ عرقه**»[١].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**انطلق ثلاثةُ رهْطٍ ممن كان قبلكم حتى أووُا المَبيتَ[٢] إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل، فسَدَّتْ عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.**

فقال رجلٌ منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أَغْبقُ[٣] قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي[٤] في طلب شيء يومًا، فلم أُرِحْ[٥] عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غَبوقهما، فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلَبِثْتُ والقدح على يدَيَّ، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا، فشَرِبَا غَبوقهما.

اللهم إنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك، ففَرِّجْ عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة.

فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٣)، وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (١٤٩٨).

(٢) أووْا المبيتَ: التجؤوا إلى موضع ليبيتوا فيه، والمبيت: موضع البيتوتة.

(٣) أَغْبِق: من الغَبُوق، وهو شرب العشيّ، ويقابله: الصَّبُوح، وهو الشرب بالغداة.

(٤) نأى بي: بَعُدَ.

(٥) أُرِحْ: أرجع.

وقال الآخرُ: اللهم كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إليَّ، فأَرَدْتُها عن نفسها، فامتنعت مِنِّي، حتى ألَمَّتْ بهَا سَنَةٌ من السنين[(١)]، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومئة دينارٍ على أن تُخلِّيَ بيني وبين نفسها، ففعلَتْ، حتى إذا قدرتُ عليها؛ قالت: لا أُحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتَمَ إلا بحقه، فتحرجتُ من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحَبُّ الناس إليَّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها.

اللهم إن كنت فعلتُ ابتغاء وجهك، فافْرُجْ عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرةُ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إني استأجرتُ أُجَراءَ، فأعطيتُهم أجرَهم غيرَ رجلٍ واحد ترك الذي له وذهب، فثَمَّرْتُ أجْرَه حتى كثُرَتْ منه الأموالُ، فجاءني بعدَ حينٍ فقال: يا عبدَ الله، أَدِّ إليَّ أجري.

فقلت له: كلُّ ما ترى من أجرِكَ؛ من الإبل والبقر والغنم والرَّقيق.

فقال: يا عبد الله، لا تَستَهْزِئْ بي!

فقلت: إني لا أستهزئُ بك.

فأخذه كُلَّهُ، فاستاقَهُ، فلَمْ يَترُكْ منه شيئًا[(٢)].

اللهم فإن كنت فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك، فافرُج عنَّا ما نحن فيه.

فانفرَجَتِ الصخرةُ، فخرجوا يَمْشُونَ»[(٣)].

(١) أي: نزلت بها سنة من سِني القحط فأحوجَتْها.
(٢) وفي رواية: فأعطيته ذلك كله، ولو شئت لم أعطه إلا الأجر الأول.
(٣) أخرجه البخاري (٢٢١٥، ٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

الخامس: الوفاء بالنذر:

وقد أثنى الله على الأبرار بأنهم ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ الآية [الإنسان:٧].

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ نَذَرَ أن يُطيعَ الله فَلْيُطِعْهُ، ومَن نَذَرَ أن يَعصيَهُ فلا يَعْصِهِ**»(١).

وعن عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خَيْرُ هذه الأُمَّةِ القَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهم** -قال عبدُ الصمد: الذين بُعِثْتُ فِيهِم- **ثُمَّ الَّذِين يَلُونَهُم، ثُمَّ يَنشَأُ قَوْمٌ يَنذُرُونَ وَلا يُوفُونَ، وَيَخونُونَ وَلا يُتَّمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلا يُستَشهَدُون، وَيَفْشُو فيهم السِّمَنُ**»(٢).

السادس: الوفاء بالمواعيد:

قال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم:٥٤]، قال العلَّامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها:

«أمر الله جَلَّ وَعَلَا نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية الكريمة -أن يذكر في الكتاب وهو هذا القرآن العظيم (جَدَّه إسماعيل)، وأثنى عليه -أعني: إسماعيل- بأنه كان صادق الوعد وكان رسولًا نبيًّا. ومما يبين من القرآن شدة صدقه في وعده: أنه وعد أباه بصبره له على ذبحه ثم وفَّى بهذا الوعد، ومَنْ وَفَّى بوعده في تسليم نفسه للذبح؛ فإن ذلك من أعظم الأدلة على عظيم صدقه في وعده؛

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠)، وغيره.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٩٨٢٣) واللفظ له، ومسلم (٢٥٣٥)، وقال محققو «المسند» (٣٣/ ٥٧): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢]، وقد بيَّن تعالى وفاءه به في قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ الآية [الصافات:١٠٣]».

وثناؤه جَلَّوَعَلَا في هذه الآية الكريمة على نبيه إسماعيل بصدق الوعد يُفهَم من دليل خطابه -أعني: مفهوم مخالفته- أن إخلاف الوعد مذموم. وهذا المفهوم قد جاء مبينًا في مواضعَ أُخَرَ من كتاب الله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة:٧٧]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢، ٣]، إلى غير ذلك من الآيات. وفي الحديث[١]: «**آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خَانَ**»»[٢].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمنْ لكم الجنة: اصدقوا إذا حَدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائْتُمِنتُم، واحفظوا فروجَكم، وغُضوا أبصارَكم، وكفوا أيديَكم**»[٣].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٨٣، ٨٤)، ومسلم (٥٩).
(٢) «أضواء البيان» (٤/ ٢٩٩).
(٣) رواه الإمام أحمد (٢٢٧٥٧)، وابن حبان (٢٧١)، والحاكم (٤/ ٣٥٨، ٣٥٩)، والبيهقي في «السنن» (٦/ ٢٨٨)، وغيرهم، وقال محققو «المسند»: «حسن لغيره» (٣٧/ ٤١٩).

وعن عبد الله بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دعتني أمي يومًا ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعالَ أُعطِيك، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما أردتِ أن تعطيه؟**»، قالت: أعطيه تمرًا، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما إنكِ لو لم تعطيه شيئًا، كُتِبَتْ عليكِ كِذْبة**»[(١)].

قال الشاعر:

إِذَا قُلْتَ فِي شَيءٍ «نَعَمْ» فَأَتِمَّهُ ... فَإِنَّ «نَعَمْ» دَيْنٌ عَلَى الحُرِّ وَاجِبُ

وَإِلَّا فَقُلْ «لَا» تَسْتَرِحْ وَتُرِحْ بِهَا ... لِئَلَّا يَقُولَ النَّاسُ إِنَّكَ كَاذِبُ

آخر:

لَا كَلَّفَ اللهُ نَفْسًا فَوقَ طَاقَتِهَا ... وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَا تَجِدُ

فَلَا تَعِدْ عِدَةً إِلَّا وَفَيْتَ بِهَا ... وَاحْذَرْ خِلَافَ مَقَالٍ لِلَّذِي تَعِدُ

آخر:

إن الوفاءَ على الكريمِ فريضةٌ ... واللؤمُ مقرونٌ بذي الإخْلافِ

وترى الكريمَ لمن يعاشِر مُنصفًا ... وترى اللئيمَ مُجانِبَ الإنصافِ

وقال زياد الأعجم:

لله دَرُّكَ من فتًى ... لو كنتَ تفعلُ ما تقولْ

لا خير في كَذِبِ الجوا ... دِ وحَبَّذَا صِدْقُ البخيلْ

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٩٩١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٧٤٨)، ورواه الإمام أحمد في «المسند» رقم (٩٨٣٦) بلفظ: «**من قال لصبي: تعالَ هاكَ، ثم لم يعطه؛ فهي كِذْبة**»، وقال المحققون: «إسناده صحيح على شرط الشيخين» (١٥/ ٥٢٠).

يا واعـدًا أخلف في وعده ... ما الخُلْفُ من سيرة أهلِ الوفا

ما كان ما أظهرتَ من وُدِّنا ... إلا سِراجًا لاح ثم انطفا

وقال صفي الدين الحِلِّي:

وَيَنْثُرُ لي حَبَّ الوَفاءِ تَمَلُّقًا ... وَيَنْصُبُ لي مِنْ تَحْتِهِ شَرَكَ الغَدْرِ

تنبيه:

من صور الغدر أن يعطي موعدًا، وفي نيته عدم الوفاء به، أما إذا أعطى موعدًا، وفي نيته الوفاء، ولم يفِ لأمرٍ خارج عن إرادته؛ فلا يُعَدُّ ذلك نقضًا، وقد رُوي عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا وعد الرجل أخاه، ومن نيته أن يفي فلم يفِ، ولم يَجِئْ للميعاد؛ فلا إثم عليه**»[(١)].

السابع: الوفاء في الكيل والميزان:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢]، أي: أَتِمُّوه ولا تَنقصوه، وهذا أمر بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء، والقسط: العدل، والوافي: الذي بلغ التمام، يقال: كيل وافٍ، وأوفيت الكيل والوزن.

الثامن: الوفاء بالدَّين وأداء الأمانة:

إن الدَّين أمانة في رقبة المدين، وهو مأمور بأدائه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩٥)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ١٩٩)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٧٢٣)، وانظر: «فيض القدير» (١/ ٤٥٣).

إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [البقرة:٢٨٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل:٩١].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أبصر -يعني أُحُدًا- قال: «**ما أحب أنه تحوَّل لي ذهبًا، يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا دينارًا أرصُدُه لِدَيْنٍ**»[(١)]. وفيه الاهتمام بأمر الدَّين، وتهيئته لأدائه[(٢)].

لقد رغَّب الإسلامُ أصحابَ الأموال في إقراض المحتاجين، لكنه من الجهة الأخرى شدَّد في الحثِّ على أداء الدَّين؛ «لأن المدين إذا تساهل وماطل في أداء الدَّين سيكون هذا سببًا لامتناع أصحاب الأموال من الإقراض، وفي هذا حرمان كبير للمجتمع الإنساني من فوائد القرض؛ فأمر الإسلام بأداء الدَّين، وحثَّ على حُسن القضاء، وحرَّم المماطلة، وبيَّن التأثير الشديد للدَّين في عاقبة المدين»[(٣)].

عن محمد بن جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرفع رأسَه إلى السماء، ثم وضع يده على جبهته، ثم قال: «**سبحان الله! ماذا نزل من**

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٣٨٨)، (٦٤٤٤).
(٢) انظر: «عمدة القاري» للعيني (١٢/ ٢٢٩).
(٣) «التدابير الواقية من الربا في الإسلام» (ص٢٣٩).

التشديد؟»، فسكتنا وفزعنا، فلما كان من الغد سألته: يا رسول الله، ما هذا التشديد الذي نزل؟ فقال: «**والذي نفسي بيده، لو أن رجلًا قُتِلَ في سبيل الله، ثم أُحْيِيَ، ثم قُتِلَ، ثم أُحيي، ثم قُتِلَ، وعليه دَينٌ؛ ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دَينُه**»(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:

«الشهيد يُغفر له كلُّ ذنبٍ إلا الدَّين، أو الأمانة، فإذا كان يوم القيامة قيل له: أَدِّ عن أمانتك، أو: أدِّ الأمانة، فيقول: يا ربِّ، ذهبت الدنيا فمِن أين أُؤَدِّيها؟ فيُنْطَلَقُ به إلى الهاوية، فإذا أمانته في قعرها، فَهَوى فيها ليأخذها، فإذا أخذها لِيُخْرِجَها زَلَّت من يده، وهوى خلفها، فلا تزال تَزِلُّ من يده، ويهوي خلفها في الهاوية»(٢).

وفي رواية عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إن القتل في سبيل الله يُكفِّر الذنوبَ كلها إلا الأمانةَ، يُجاءُ بالرجل يوم القيامة، وإن كان قُتِلَ في سبيل الله، فيُقال له: أدِّ أمانتك. فيقول: من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيُقال: انطلقوا به إلى الهاوية. فيُنطَلَقُ به، فتُمَثَّلُ له أمانته كهيئتها يوم دُفِعَتْ إليه في قعر جهنمَ؛ فيحملُها فيصعدُ بها، حتى إذا ظن أنه خارجٌ بها، فهَزَلَتْ من عاتقه، فهوتْ وهوى معها أبدَ الآبدين». قال زاذانُ: فأتيتُ البراءَ بن عازب فقلتُ: أما سمعتَ ما قال أخوك ابنُ مسعود؟ قال: «صدق؛ إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ

(١) رواه النسائي (٧/ ٣١٤، ٣١٥)، وإسناده حسن كما في «تحقيق جامع الأصول» (٤/ ٤٦٤).
(٢) «مسائل أحمد» رواية ابنه عبد الله، رقم (٩٤٣)، وقال الإمام أحمد: «إسناده إسناد جيد».

ﭐلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨]. والأمانةُ في الصلاة، والأمانةُ في الغُسْل من الجنابة، والأمانةُ في الحديث، والأمانة في الكَيْلِ والوزنِ، والأمانة في الدَّيْنِ، وأشدُّ ذلك في الودائع»[(١)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «... **من مات وعليه دَين، فليس بالدينار ولا بالدرهم، ولكنها الحسنات والسيئات**»، وفي رواية بلفظ: «**... من مات وعليه دَين، أُخِذَ لصاحبه من حسناته، لا دينارَ ثَمَّ ولا دِرْهَم**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزال نفسُ**[(٣)] **ابنِ آدمَ مُعلَّقةً بدَينهِ حتى يُقضى عنه**»[(٤)].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٧٧٦)، (١٢/ ٢٦٥)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٩١٧)، (٢/ ٧٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٥١٢)، (٣/ ٩٨٥)، والبيهقي في «السنن الكبير» (٦/ ٢٨٨)، وكذا في «السنن الصغير» (٢٣٣٨).

(٢) رواه الإمام أحمد (٥٣٨٥)، (٥٥٤٤)، والحاكم (٢/ ٢٧)، والبيهقي في «السنن» (٦/ ٨٢)، وقال محققو «المسند»: «إسناده صحيح» (٩/ ٢٨٣)، وانظر «سنن ابن ماجه» (٢٣٢٠). وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (٣/ ٣٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٢٢).

(٣) النفس هنا: الروح الذي إذا فارق البدن لم يكن بعده حياة.

(٤) اختار الإمام النووي في معناه: «أن نفسه مطالَبة بما عليه، ومحبوسة عن مقامها الكريم حتى يُقضى، لا أنه يُعذب، لا سيما إذا كان خلفه وفاء، وأوصى به» اهـ. من «المجموع» (٦/ ١٩١).
وقال في «مرقاة المفاتيح»: «المعنى أنه لا يظفر بمقصوده من دخول الجنة، أو من المرتبة العالية، أو في زمرة عباد الله الصالحين، أو لا تجد روحُه اللَّذَّة ما دام عليه الدَّين، ثم قيل: المدين الذي يُحبس عن الجنة حتى يقع القصاص هو الذي صَرَفَ ما استدانه في سَفَهٍ أو سَرَفٍ، وأما ما استدانه في حقٍّ واجبٍ كَفَاقةٍ، ولم يترك وفاءً، فإن الله تعالى لا يحبسه عن الجنة إن شاء الله تعالى؛ لأن السلطان كان عليه أن يُؤدِّيَ عنه. انظر: «المسند» للإمام أحمد برقم: (٧٨٩٩)، فإذا لم يؤدِّ عنه يَقضي الله تعالى عنه بإرضاء خصمائه، انظر: «المسند» (٨٧٣٣).

وفي لفظ: «**نفس المؤمن مُعَلَّقة ما كان عليه دَيْن**»[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ أخذ مِنْ أموال الناس**[(٢)] **يُرِيدُ أداءها؛ أدَّاها الله عنه**[(٣)]**، ومن أخذها يريد إتلافَها**[(٤)]**؛ أتلفه الله عَزَّوَجَلَّ**»[(٥)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ظاهره يحيل المسألة المشهورة فيمن ماتَ قبل الوفاء بغير تقصيرٍ منه؛ كأن يعسر مثلًا، أو يفجأه الموت، وله مال مخبوء، وكانت نيَّته وفاءَ دَينه ولم يوفَّ عنه في الدنيا»[(٦)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدَّينُ دَينان؛ فمَن مات وهو يَنْوي قضاءه، فأنا وليُّه، ومَن مات وهو لا ينوي قضاءه، فذاك الذي يؤخذُ من حسناته، ليس يومئذٍ دينارٌ ولا دِرهم**»[(٧)].

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٠٥٩٩)، والترمذي (١٠٧٨)، والبيهقي (٦/ ٧٦)، والحاكم (٢/ ٢٦، ٢٧)، وصحَّحه على شرط الشيخين، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٥٥).
قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه الحثُّ للورثة على قضاء دَين الميت، والإخبار لهم بأن نفسه معلقة بدَينه حتى يُقضى عنه، وهذا مقيَّد بمن له مال يقضي عنه دَينه، وأما من لا مالَ له وماتَ عازمًا على القضاء، فقد ورد في الأحاديث ما يدل على أن الله يقضي عنه» اهـ. من «نيل الأوطار» (٤/ ٥٣).

(٢) قال السندي: «بطريق القرض، أو بوجه آخر من وجوه المعاملة».

(٣) أي: في الدنيا، بأن يعطيه ما يكون أداءً لدَينه، أو بأن ييسر له من يتحمَّل عنه دَينه، أو في الآخرة بأن يُرضي غريمَه لحسن نيته، وقد جاءت الآثار بالأمرين: الأداء عنه في الدنيا أو في الآخرة.

(٤) **إتلافها**: إضاعتها على أصحابها.

(٥) رواه الإمام أحمد (٨٧٣٣)، والبخاري (٢٣٨٧)، وابن ماجه (٢٤١١) مختصرًا، والبيهقي (٥/ ٣٥٤). وانظر: «فتح الباري» (٦/ ١٩٣، ١٩٤).

(٦) «فتح الباري» (٥/ ٥٤).

(٧) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ٣٣٦)، (١٤١٤٦)، وصحَّحه الألباني لغيره في «أحكام الجنائز» (ص١٣)، و«صحيح الترغيب» (١٨٠٣). =

وعن صهيب الخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أيما رجل يَدَيَّنُ دَيْنًا**[(١)] **وهو مُجْمِعٌ**[(٢)] **ألَّا يوفيه إياه؛ لقي الله سارقًا**»[(٣)].

وعن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استسلف[(٤)] منه حين غزا حُنين ثلاثين أو أربعين ألفًا، فلما انصرف قضاها إياه، ثم قال: «**بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السَّلَفِ الوفاءُ والحمدُ**[(٥)]»[(٦)].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه (**ذكر رجلًا من بني إسرائيلَ سأل بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفَهُ ألفَ دينارٍ، فقال: ائتني بالشهداء أُشْهِدُهم، فقال: كفى بالله شهيدًا. قال: فأْتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا، قال: صَدَقْتَ. فدفعها إليه إلى أجلٍ مُسَمًّى، فخرج في البحر فقضى**

= **فائدة**: قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي معنى ذلك عدة أحاديثَ ثبتت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قالها بعد أن كان يمتنعُ من الصلاة على المديون، فلما فتح الله عليه البلاد، وكثرت الأموال صلى على مَن مات مديونًا وقضى عنه، وذلك مُشْعِر بأن من مات مديونًا استحقَّ أن يُقضى عنه دَينه من بيت مال المسلمين، وهو أحد المصارف الثمانية؛ فلا يسقط حقه بالموت» اهـ. من «نيل الأوطار» (٤/ ٥٤).

(١) **يَدَيَّنُ**: يستقرض.

(٢) **مُجْمِعٌ**: أي: عازم.

(٣) رواه ابن ماجه (٢٤١٠)، وقال الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٤١٧): «حسن صحيح».

(٤) **استسلف**: أخذ منه قرضًا.

(٥) **(والحمد)**: الشكر له بالدعاء له.

(٦) رواه الإمام أحمد (١٦٤١٠)، وابن ماجه (٢٤٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٧٥)، وغيرهم، وقال محققو «المسند»: «إسناده صحيح» (٢٦/ ٣٣٦).

حاجته، ثم التمسَ مَرْكَبًا يَركَبُها يَقْدَمُ عليه للأَجَل الذي كان أجَّلَه، فَلَمْ يَجِد مَرْكَبًا، فأخذ خشبة فَنَقَرَها، فأدخل فيها ألفَ دينار وصحيفةً منه[١] إلى صاحبه، ثم زَجَّجَ مَوضِعَها[٢]، ثُمَّ أتى بها إلى البحر، فقال: اللهُمَّ إنك تعلمُ أني كنتُ تَسَلَّفْتُ فُلانًا ألفَ دينار، فسألني كفيلًا فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرضيَ بك. وسألني شهيدًا فقلتُ: كفى بالله شهيدًا، فرضيَ بك، وأنِّي جَهَدْتُ أَن أَجِدَ مَركَبًا أبعثُ إليه الذي له فلم أقدِرْ، وإني أَسْتَوْدِعُكَها. فرمى بها في البحر حتى وَلَجَتْ فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركَبًا يخرج إلى بلده.

فخرج الرجل الذي كان أَسْلَفَهُ يَنظُرُ لعلَّ مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المالُ، فأخذها لأهله حَطبًا، فلمَّا نَشَرَها وجد المالَ والصحيفةَ.

ثم قَدِمَ الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مركبٍ لآتيَكَ بمالِك، فما وجدتُ مركبًا قبل الذي أتيتُ فيه!

قال: هل كنتَ بَعَثْتَ إليَّ بشيءٍ؟

قال: أُخْبِرُكَ أنِّي لم أجدْ مركبًا قبل الذي جئتُ فيه!

قال: فإن الله قد أدَّى عنك الَّذي بعثتَ به في الخشبة، فانصرِفْ بالألْفِ الدِّينار راشدًا)[٣].

---

(١) قال الحافظ في «الفتح»: «في رواية أبي سلمة: وكتب إليه صحيفة: من فلان إلى فلان، إني دفعتُ مالَكَ إلى وكيلي الذي توكَّل بي» اهـ. (٦/ ٧٤).

(٢) **زَجَّجَ موضعها:** سوَّى موضع النقر وأصلحه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٩١).

ألا مـا أحقَّ هـذا الرجل الـذي يعلمه الله وحـده بأن يفتخر بـما قال بهاء الدين زهير:

ولــي في الحــبِّ أخــلاقٌ كِــرامٌ ... فـسَلْ ما شئتَ عَـنِّي وامتحِني

وحـيـث يـكـونُ في الـدنـيـا وفـاءٌ ... هـنـالـك إن تَـسَـلْ عـني تجدْني



عِزَّةُ الوَفاءِ وَنُدرتُه

لِقِلَّةِ خلق الوفاء في النَّاسِ قال تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ [الأعراف:١٠٢]، ومن نقض العهد قيل له إنه لا عهد له، كأنه لم يعهد.

قيل: أراد أن الكفار منقسمون؛ فالأكثرون منهم من لا أمانة له ولا وفاء، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلوا.

وفي المثل: «هو أعَزُّ من الوفاء».

وكان يحيى بن خالد بن برمك إذا أكَّدَ في يمينه قال: «لا والذي جعل الوفاءَ أعزَّ ما يُرى».

وقال عليُّ بن الجهم:

وجَرَّبْنا وجَرَّب أوَّلُونا ... فلا شَيءٌ أعَزُّ مِنَ الوفاءِ

وقال أبو مسعودٍ الخُشْناميُّ[1]:

وتَأمُلُ مِن بَني الدُّنيا وفاءً ... وما شَيءٌ أعَزُّ مِنَ الوفاءِ

وقال ثالث:

عَزَّ الوفاءُ فلا وفاءَ وإنَّهُ ... لأَعَزُّ وِجْدانًا مِنَ الكِبريتِ

(١) بضم الخاء وسكون الشين المعجمتين وفتح النون، هذه النسبة إلى اسم بعض أجداده، وهو خشنام. انظر: «الأنساب» للسمعاني (٥/ ١٤٣).

والكبريت: هو الذهب الأحمر، وهو نادر، حتى قالوا: لا يوجد إلا أن يُذكَر، وفي المثل: «هذا أعَزُّ من الكبريت الأحمر».

وقال الطغرائي:

غاض الوفاء وفاض الجور وانفرجت ... مسافةُ الخُلْفِ بين القول والعملِ

وقال الشاعر ابن سناء الملك:

أتطلب من زمانك ذا وفاءَ ... وتأمُلُ ذاك جهْلًا من بنيه

لقَدْ عَدِمَ الوفاءُ به وإني لـ ... أعْجَبُ من وفاءِ النيل(١) فيه

وقال الشاعر:

ذهَبَ التَّكَرُّمُ والوفاءُ مِنَ الوَرَى ... وتَصَرَّمَا إلا مِنَ الأشعارِ

وفَشَتْ خياناتُ الثِّقاتِ وغيرِهِمْ ... حتَّى اتَّهَمْنا رُؤْيَةَ الأبصارِ

وقال آخر:

اشْدُدْ يديك بِمَنْ بَلَوْتَ وَفاءَهُ ... إنَّ الوفاءَ مِنَ الرِّجالِ عزيزُ

وقال غيره:

سقى اللهُ أطلالَ الوفاءِ ببرِّهِ ... فقد دَرَسَتْ أعلامُهُ ومَنازِلُهْ

وقال بعضهم:

إذا قيل في الدُّنيا خليلٌ فقُلْ نَعَمْ ... خليلُ اسمُ شخصٍ لا خليلُ وَفاءِ

---

(١) من أعياد قدماء المصريين «عيد وفاء النيل»، كانوا يحتفلون به أول فيضان النيل، واخترعوا له طقوسًا وثنية، قدموا معها القرابين من الماشية والطيور وغيرها، وادَّعى بعضهم كذبًا أنهم كانوا يلقون (عروس النيل) ضمن طقوسهم في النيل.

وقال صفي الدين الحِلِّي:

لَمَّا رأيتُ بَني الزَّمانِ وما بهم ... خِلٌّ وَفِيٌّ لِلشَّدائدِ أَصْطَفِي

أيقنتُ أنَّ المستحيلَ ثلاثةٌ ... الغُولُ والعَنْقاءُ والخِلُّ الوفي

وقد قيل: «لا خير في صديق بلا وفاء»؛ لأن في الوفاء مناعةً من الغدر.

قال أبو تمام:

رَأَيْتُ الحُرَّ يَجْتَنِبُ المَخَازِي ... وَيَحْمِيهِ عَنِ الْغَدْرِ الوَفَاءُ

وقال يحيى بن زياد:

وَأَرْهَنُ نَفْسِي بِالوَفَاءِ لِصَاحِبي ... فَمِنْ دُونِ غدْرِي أَنْ تُغَيَّبَ أَعْظُمِي

وقال أعرابي:

وَكُنْتُ إِذَا صَحِبْتُ خِيَارَ قَوْمٍ ... صَحِبْتُهُمْ وَشِيمَتِي الوَفَاءُ

لكن لما ندَر الوفاء وعزَّ؛ تواترت شكاوى الأدباء والشعراء من تغير أبناء الزمان، وانطلقوا يعيبون غدر الأصدقاء، ويَنْعُونَ خلقَ الوفاء الذي مات أهله أو كادوا، وهاك طائفةً من شعرهم:

قال لَبيد:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم ... وبَقيتُ في خَلْفٍ كَجلد الأجربِ

وقال أبو فراس بن حمدان:

بمن يتقي الإنسانُ فيما ينوبه ... ومن أين للحُرِّ الكريمِ صِحابُ

وقد صار هذا الناسُ إلا أقلهم ... ذئابًا على أجسادهن ثيابُ

وقال الرياشي:

إذا ذهبَ التَّكرُّمُ والوَفاءُ ... وباد رجاله وبقِي الغُثاءُ[1]

وأسلَمني الزمانُ إلى رجالٍ ... كأمثالِ الذِّئابِ لها عُواءُ

صَديقٌ كُلَّمَا استَغْنَيتُ عنهمْ ... وأعداءٌ إذا جهدَ البلاءُ

إذَا ما جئتُهُم يتدافعوني ... كَأني أَجْربٌ آذاه داءُ

أَقول ولا أُلَامُ على مَقالٍ ... عَلى الإخْوانِ كُلِّهِمُ العَفاءُ[2]

ذهب الذين إذا رأوني مُقْبِلًا ... سُرُّوا وقالوا مرحبًا بالمقبلِ

وبقى الذين إذا رأوني مُقْبِلًا ... عبسوا وقالوا ليته لم يُقبلِ

ذهب الذين هم الغياث المسبل ... وبقى الذين هم العذاب المنزل

وتقطعت أرحام أهل زماننا ... فكأنما خُلِقَتْ لئلا تُوصَل

---

(١) **الغثاء:** رغوة القدر، أو ما يجرفه السيل من أوراق أو مما على وجه الأرض.

(٢) **العفاء:** الزوال وامِّحاء الأثر.

وما الناس بالناس الذين عهدتُهم ... ولا الدار بالدار التي كنتَ تعرفُ
وما كل من تَهوى يُحبك قلبه ... ولا كل من صاحبتَه لك مُنصفُ

خرجتُ أسائل من قد لقيتُ ... من الناس هل من صديقٍ صدوقِ
فقالوا عزيزان أن يُوجدا ... صديق صدوق وبَيْضُ الأَنُوقِ(١)

وقالت الحكماء: لا شيء أَضْيَعُ من مودة مَن لا وفاء له، واصطناع مَن لا شُكر عنده. والكريم يَوَدُّ الكريم عن لُقية واحدة، واللئيمُ لا يَصِل أحدًا إلا عن رغبة أو رهبة.

وقال دعبل:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهمُ ... الله يعلم أني لم أقل فَنَدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

---

(١) **الأنوق:** من فصيلة النَّسْرِيَّات، من رُتبة الجوارح، له رأس وعنق عاريان مُلَوَّنان، يتغذى من الجِيَف، ويُسمَّى أيضًا العُقَاب. يقال: أعز من بيض الأَنُوق؛ لأنه من الصعب الظفر به؛ لوجود الأنوق في الأماكن الوَعْرة التي يستحيل الوصول إليها، وصار يُطلق هذا المثل على أي شيء صعب المنال.

آخر:

زَمــان كـل حِــبٍّ فـيـه خِـبٌّ   وطـعـم الخِــلِّ خَــلٌّ لـو يـذاقُ
لهــم ســـوقٌ بـضـاعـتـه نِـفـاق   فـنـافـق فـالـنِّـفـاق لـه نَـفـاقُ[١]

وقال علي بن فضَّال المجاشعي:

وإخـــوانٍ حـسـبـتـهـمُ دروعًـــا   فـكـانـوهـا ولـكــن لـلأعـادي
وخِـلـتُـهـمُ سـهـامًـا صـائـبـاتٍ   فـكـانـوهـا ولـكـن في فـؤادي
وقـالـوا قـد صَـفَـتْ منا قلوب   لـقـد صـدقـوا ولـكـن مـن وِدادي

وقال الشريف الرضي:

أعـددتُـكـم لـدفـاعِ كـلِّ مُـلِـمَّـةٍ   عـنـي فـكـنـتـمْ عَــوْنَ كُـلِّ مُلِمَّةِ
فـلأرحـلـنَّ رحـيـلَ لا مُـتَـلَـهِّـفٍ   لـفـراقـكـمْ أبــدًا ولا مُـتَـلَـفِّـتِ
ولأَنـفـضـنَّ يـديَّ يـأسًـا منكمُ   نَـفْـضَ الأنـامـلِ مـن تُـراب الميِّتِ

وقال أبو العتاهية:

يـا رُبَّ خِـدْنٍ كـنت آمـن غَيْبَه   أصبحَتْ تَنْطِفُ[٢] في يديه جراحي
سَـلَّـحـتُـه لــيردَّ بــأسَ عــدوِّه   فـعـدا علـيَّ فـبـزَّنـي[٣] بسلاحي

---

(١) النَّفاق -بالفتح-: الرَّواج، نفقت البضاعة: راجَت ورُغِب فيها.
(٢) نَطفَ الجُرْحَ: شَقَّه.
(٣) بَزَّني: غَلَبني.

وقال إبراهيم بن العباس:

وكنتَ أخي بإخاء الزمان فلما نبا صِرْتَ حَرْبًا عَوانا

وكنت أُعِدُّكَ للنائباتِ فها أنا أطلبُ منك الأمانا

وكتب المعتصم صاحب المَرية للوزير ابن عمار:

فلم تُرِني الأيامُ خِلًّا تُسُرُّني مباديه إلا ساء في العواقبِ

ولا كنتُ أرجوه لدفع مصيبةٍ من الدهرِ إلا كان إحدى المصائبِ

آخر:

ذهب الوفاءُ ذهابَ أمسِ الذاهبِ فالناسُ بين مُخاتِلٍ ومُواربِ

يَغْشَوْنَ بينهُم المودةَ والصَّفا وقلوبُهم مَحْشُوَّةٌ بعقاربِ

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي:

أَنا مَن بَدَّل بالكُتْبِ الصِّحابا لم أجِدْ وفيًّا إلا الكتابا

صُحْبَةٌ لم أَشْكُ منها رِيبةً ووِدادٌ لم يُكَلِّفني عِتابا



مِن علامات الوفــاء



قيل: «إذا أردْتَ أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشَوُّقِه إلى إخوانه، وكثرةِ بكائه على ما مضى من زمانه».

ولا خَـيْـرَ في وُدٍّ إذا لم يَـكُـنْ لهُ   على طولِ مَرِّ الحادثاتِ بقاءُ [١]

وقال محمد بن عبيد الله بن توبة الأديب:

لا أعلم نُقل في معنى الإِلْف أحسن من بيت المتنبي:

خُلِقْتُ أَلُوفًا لو رَحَلْتُ إلى الصِّبا   لَفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلبِ باكيا[٢]

قال الشيخ نديم الجسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُقْيًا لملاعب الصبا، و مغاني الشباب، ما أحلاها! و ما أَمَرَّها على قلوبنا إذا عُدْنا إليها بعد طول الاغتراب لنراها بعيونٍ غشَّاها المشيب بسُحُبٍ من الوهَن...!

إنها تثير في صدورنا زوبعة من الذكريات، يَعتلِجُ فيها الأُنسُ والحنين، والأسفُ والوحشة، والحزن والجزع، واليأسُ والتأسِّي، فيَلَذُّ لنا في غَمْرةِ هذه الكآبةِ الحُلوةِ أن نبكيَ... على أنفسنا، وعلى أولئك الذين فارقونا، والذين

(١) البيت لُمكنف بن نُميلة المُزَنيّ، كما في «حماسة الخالديَّيْن = الأشباه والنظائر» (ص٨٧)، وهو في «البيان والتبيُّن» للجاحظ (٢/ ٣٦٢)، و«عيون الأخبار» لابن قُتَيْبَةَ (٣/ ٩٠) غير منسوب.

(٢) «تاريخ بغداد» (٤/ ١٠٥).

أوْشك أن نفارقهم، بكاء المسافر النازح، الذي لا يُخَفِّفُ من لوعته على فِراقِ أحِبَّةٍ أعزَّاءَ، إلَّا أمَلٌ بلِقاءِ أعِزَّاءَ آخَرينَ ينتظرونه في بلدٍ بعيدٍ بعيد...

في هذه المواقف الأخيرة من العمر نجد الحياة في أعيننا أغلى وأحلى ما تكون، وأتْفَهَ وأَمَرَّ ما تكون، فترُعبنا فكرةُ الفناء، ونشعرُ أكثرَ مِن أيِّ وقتٍ مضى بحاجتنا إلى الخلود، وبفقرنا إلى الإيمان بالخالد الأزَليِّ السَّرْمَديِّ، الذي وعَدَنا بحياةٍ أخرى، لولاها لكانت حياتنا الدُّنيا عبثًا ظالمًا»[(١)].

قال ابن الرومي:

وَلِـي وَطَـنٌ آلَيـتُ أَنْ لَا أَبيعَـهُ ... وَأَلَّا أرَى غَيْـرِي لَـهُ الدَّهْـرَ مَالِـكا

وَحَبَّـبَ أَوْطَـانَ الرِّجَـالِ إِلَيهِـمُ ... مَـآرِبُ قَضَّاهَـا الشَّـبَابُ هُنَالِـكَا

إِذَا ذَكَـرُوا أَوْطَانَهُـمْ ذَكَّرَتْهُـمُ ... عُهُـودَ الصِّبا فِيهَـا فَحَنُّـوا لِذَالِكَا

ومما يعكس حبَّ الأوطان والتعلق بها قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [النساء:٦٦]، فسوَّى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم.

وقال أبو تمام:

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئتَ مِن الهوى ... ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ

كم منزلٍ في الأرضِ يألفُهُ الفتى ... وحنينُه أبدًا لأولِ مَنْزِلِ



(١) «قصة الإيمان» (ص٥).

الوفاء من أخلاق العرب



العرب أمة مصطفاة، وهم أفضل أجناس البشر من الناحية العِرقية الإثنية، قد وهبهم الله صفات خُلُقية واستعدادات فطرية أهَّلتهم لاستقبال الرسالة الخاتمة وحملها إلى العالمين.

قال العلَّامة محمود شكري الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لا يخفى على مَن عرَف أحوال الأمم، ووقف على ما كان عليه أجيال بني آدمَ، أنَّ أُمَّةَ العرب على اختلافها، وتفاوُتِ أصولها وأصنافها، كانت ممتازة على غيرها من الناس، متقدِّمةً في الفضائل والمآثر على سائر الأنواع والأجناس؛ فإن الله تعالى قد شرَّفها برسوله، وفضَّلها بتنزيله، وخصَّها بالخطاب المعجز، واللَّفظِ البليغ المُوجَز(١)، والسؤال الشافي، والجواب الكافي، فالعرب أمراء الكلام، ومعادن العلوم والأحكام، وهم لُيُوث الحرب، وغيوث الكرب، والرِّفْد(٢) في الجَدْب، وهم أهل الشِّيمة(٣) والحياء، والكرم والوفاء، والمروءة والسخاء.

---

(١) **الموجز:** القصير السريع الوصول إلى الفَهم، يقال: وجُز اللفظُ وجازة، فهو وجيز.
(٢) **الرِّفد:** العطاء والصِّلة.
(٣) **الشيمة:** الغريزة والطبيعة والجِبِلَّة، وهي التي خُلِق الإنسانُ عليها، والمراد بها هاهنا: الأخلاق الحسنة.

أحكَمَتْهُمُ التَّجارِب، وأدَّبَتْهُمُ الحكمةُ فقضوا منها المآرب، ذلت ألسنتهم بالوعد، وانبسطت أيديهم بالإنجاز[(١)]، فأحسنوا المقال، وشفعوه بحسن الفِعال، ولبِسوا من المجد ثوبًا سُنْدُسِيَّ الطِّراز[(٢)]، يغسلون من العار وجوهًا مُسْوَدَّة، ويفتحون من الرأي أبوابًا مُنسَدَّة، كأنَّ الفَهْمَ منهم ذو أذنين، والجوابَ ذو لسانين. يضربون هاماتِ الأبطال، ويَعرِفون حقوق الرجال، إلى أن تلاعبت بهم أيدي الأقدار، وتفرَّقوا في أقصى الأنحاء والأقطار»[(٣)].

لم يكن هناك شعبٌ له رصيد من الفضائل النفسية، والذاتية، والجسدية، والعقلية، والأخلاقيةِ مثل ما كان للشعب العربي؛ لهذا اختار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خاتَمَ أنبيائه ورسله من العرب برسالةٍ عامَّةٍ خالدة، واستأهل العرب أن يكونوا أحقَّ الشعوب بحمل هذه الرسالة وتبليغِها إلى الناس جميعًا.

والذي عليه أهلُ السُّنَّة والجماعة: اعتقادُ أن جنس العرب أفضل من جنس العجم[(٤)]، والدليل ما رُويَ عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال،

---

(١) يقال: نجز الوعد نجزًا: تعجَّل.

(٢) **السُّنْدُس:** رقيق الدِّيباج. **والطِّراز:** علم الثوب.

(٣) «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» (١/ ٥، ٦).

(٤) لاشك أن معيار تفاضل الناس إنما هو تقوى الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وتفضيل العرب هو تفضيل جنس وليس تفضيل أفراد، فالعجمي الصالح أفضل من العربي المقصر في حق الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «تفضيل الجملة على الجملة لا يستلزم أن يكون كل فرد أفضل من كل فرد، فإن في غير العرب خلقًا كثيرًا خيرًا من أكثر العرب، وفي غير قريش من المهاجرين والأنصار من هو خير من أكثر قريش، وفي غير بني هاشم من قريش وغير قريش من هو خير من أكثر بني هاشم» انتهى من «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٩، ٣٠)، وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: =

قلت: يا رسول الله، إن قريشًا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم، فجعلوا مَثَلَك[(١)] كمثل نخلة في كَبْوةٍ من الأرض[(٢)]، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله خَلَقَ الخَلْقَ فجعلني من خيرهم من خير فِرَقِهِم[(٣)] وخير الفريقين[(٤)]، ثم تخيَّر القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخيَّر البيوت[(٥)] فجعلني من خير بيوتهم[(٦)]، فأنا خيرهم نفْسًا[(٧)]، وخيرهم بيتًا[(٨)]**»[(٩)].

والمعنى: أن النخلة طيبة في نفسها وإن كان أصلها ليس بذلك، فأخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خير الناس نفسًا ونسبًا.

وعن عبد المطَّلِب بن أبي وداعة، قال: قام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المِنبَر، فقال: «**مَنْ أنا؟**»، قالوا: أنت رسول الله، قال: «**أنا محمد بن عبد الله بن عبد المُطَّلب. إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فِرقةً، ثم جعلهم فرقتين**

= «وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم، بمجرد كون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم -وإن كان هذا من الفضل- بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أفضل نفسًا ونسبًا، وإلا لزم الدَّوْرُ».

(١) أي: صفتك.
(٢) أي: أنهم طعنوا في نسبك.
(٣) أي: أشرفها، وهو الإنس.
(٤) أي: العرب والعجم.
(٥) أي: البطون.
(٦) أي: بطن بني هاشم.
(٧) أي: رُوحًا وذاتًا؛ إذ جعلني نبيًّا رسولًا خاتمًا للرسل.
(٨) أي: أصلًا؛ جئت من طيب إلى طيب إلى صلب عبد الله، بنكاح لا سفاح.
(٩) رواه الإمام أحمد (١٧٥١٧)، والترمذي (٣٦٠٧)، وحسَّنَه، وقال محققو «المسند»: «حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف» (٢٩/ ٥٨)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٠٧٣).

فجعلني في خيرهم فِرقةً، ثم جعلهم قبائلَ فجعلني في خيرهم قبيلةً، ثم جعلهم بيوتًا فجعلني في خيرهم بيتًا وخيرِهم نفْسًا»(١).

فأخبر ﷺ أنه ما انقسم الخلق فريقين إلا كان هو في خير الفريقين، والخلق هم الثَّقَلان، أو هم جميع ما خلق في الأرض، وبنو آدمَ خيرُهم. ثم جعل بني آدم فرقتين، والفرقتان: العرب والعجم. ثم جعل العرب قبائلَ، فكانت قريش أفضل قبائل العرب، ثم جعل قريشًا بيوتًا، فكانت بنو هاشم أفضل البيوت.

ويحتمل أنه ﷺ أراد بالخلق بني آدم، فكان في خيرهم، أي: في ولد إبراهيمَ أو في العرب، ثم جعل بني إبراهيم فرقتين: بني إسماعيل، وبني إسحاق، أو جعل العرب: عدنان وقحطان، فجعلني في بني إسماعيل، أو بني عدنان.

ثم جعل بني إسماعيلَ أو بني عدنان قبائلَ، فجعلني في خيرهم قبيلةً، وهم قريش.

وعلى كلِّ تقديرٍ فالحديث صريح بتفضيل العرب على غيرهم(٢).



---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧٨٨)، والترمذي (٣٦٠٧)، وحسَّنه، وقال محققو «المسند»: «حسن لغيره» (٣/ ٣٠٧)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٣٠٧٣).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (١٤٨-١٦٢)، و«منهاج السنة النبوية» (٤/ ٣٦٤).

اصطفاء نسب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



خصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رسولَه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنسبه الشريف العفيف الطاهر، فهو خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق؛ فأشرف القوم قومه، وأشرف الأفخاذ فَخْذُه[١]، وأشرف القبائل قبيلته؛ فهو النبي العربي، الأبطحي، الحَرَميُّ، القُرَشيُّ، الهاشمي، نُخْبَةُ بني هاشم، المختار، المنتخَب من خير بطون العرب، وأعرقها في النسب، وأشرفها في الحسب، وأنضرها عودًا، وأطولها عمودًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن واثِلةَ بنِ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنَّ اللهَ اصطفى كِنانةَ مِن ولدِ إسماعيلَ، واصطفى قُرَيْشًا مِن كِنانةَ، واصطفى مِن قُرَيشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشم**»[٢].

وهذا يقضي أن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته صفوة ولد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فيقتضي أنهم أفضل من ولد إسحاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كما أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد خصَّ العرب ولسانهم بأحكام تميَّزوا بها، ثم خص قريشًا على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة وغير ذلك، ثم خص بني هاشم على سائر قريش بتحريم الصدقة واستحقاق الفيء، فأعطى الله

(١) **فخذ العشيرة:** فرع من العَشِيرة.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٢٧٦).

سبحانه كلَّ درجة من الفضل بحسَبها، والله عليم حكيم: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج:٧٥].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وسبب هذا الفضل -والله أعلم-: ما اختصُّوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم؛ وذلك أن الفضل: **إمَّا بالعلم النافع، وإمَّا بالعمل الصالح.**

والعلم له مبدأ، وهو: قوَّة العقل الذي هو الفَهم والحفظ، وله تمام، وهو: قوة المنطق، الذي هو البيان والعبارة.

والعرب هم أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني، جمعًا وفَرقًا؛ يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل، إذا شاء المتكلم الجمع ثم يميز بين كل شيئين مشتبهين بلفظٍ آخَرَ مميز مختصر، كما تجده من لغتهم في جنس الحيوان، فهم -مثلًا- يعبرون عن القدر المشترك بين الحيوان بعبارات جامعة، ثم يميزون بين أنواعه في أسماء كل أمر من أموره: من الأصوات، والأولاد، والمساكن، والأطفال... إلى غير ذلك من خصائص اللسان العربي، التي لا يستراب فيها.

وأمَّا العمل: فإن مبناه على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النفس، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم؛ فهم أقرب للسخاء، والحِلم، والشجاعة، والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة، **لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة**

قابلة للخير، معطَّلة عن فعله، ليس عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي... فلمَّا بعث الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدى -الذي ما جعَل الله في الأرض ولا يجعل أمرًا أجَلَّ منه وأعظم قدرًا-، وتلقَّوْه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات الجاهلية، والظلمات الكفرية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها، فلما تلقَّوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم، واستنارت بهدى الله الذي أنزل على عبده ورسوله.

فأخذوا هذا الهدى العظيم، بتلك الفِطرة الجيدة؛ فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم، بمنزلة أرض جيدة في نفسها، لكن هي معطلة عن الحرث، أو قد نبت فيها شجر العضاه والعَوْسج، وصارت مأوى الخنازير والسباع، فإذا طهرت عن المؤذي من الشجر والدواب، وازدرع فيها أفضل الحبوب والثمار، جاء فيها من الحرث ما لا يُوصَفُ مِثلُه، فصار السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله بعد الأنبياء، وصار أفضل الناس بعدهم مَنِ اتَّبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم[١].

فالدليل على فضل العرب من وجهين؛ من المنقول والمعقول:

أما أدلَّة النقل فقد ذُكرت آنفًا.

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٤٧، ٤٤٨).

وأما العقل الدال على فضل العرب: فقد ثبت بالتواتر المحسوس المشاهد أن العرب أكثر الناس سخاءً، وكرمًا، وشجاعة، ومروءة، ووفاءً، وشهامة، وبلاغة، وفصاحة...

ومـن كان كذلـك فالعقل قاضٍ بفضله قطعًا عـلى مَن ليس كذلك، ولهم مـكارم أخـلاق محمـودة لا تنحـصر، غريزة في أنفسـهم، وسـجية لهـم جُبلوا عليها.

ومِن ثَمَّ فيمكن تلخيص خصائص العرب على النحو الآتي:

١- حفظهم للأنساب، فلم يُعلم أحدٌ من الأمم عُنِيَ بحفظ النسب عنايةَ العرب.

٢- طهارتهم ونزاهتهم عن الأدناس التي استباحها غيرُهم[(١)] من مخالطة ذوي الأرحام، وهي مَنْقَبة تعلو بجمالها كلَّ مَأْثُرة.

٣- أَنَفَتُهـم وجلادتهـم وصرامتهم واعتزازهـم بحريتهم؛ فلَهُـمْ قوَّةٌ في النفْس لا تقاوم.

٤- جمْعُهم لأُسِّ الأخلاق؛ كالشجاعة، والكرم وحسن الوفادة، والحِلم والأناة والتُّؤَدة، والصدق في الوفاء بعهودهم، والنصرة لمظلومهم... إلى غير

(١) وقد قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال بعض أهل العلم -منهم الشافعي-: «إن كل ما يستخبثه الطبع السليم من العرب الذين نزل القرآن عليهم في غير حال ضرورة الجوع حرام؛ لهذه الآية؛ ولأن معنى الخبث معروف عندهم، فما اتصف به فهو حرام» وانظر: «أضواء البيان» (٢/ ٢٣٨).

ذلك من الأخلاق التي وجدها الإسلام فيهم، فما كان إلا أن وجَّهها وسيَّرَها حتى كانت في مجراها الصحيح، فقادوا بأخلاقهم الكون كلَّه.

٥- أُمِّيَّتُهم بالنسبة للأمم الأخرى التي حوْلَهم، وهو شبيه بالحكمة التي من أجْلها بُعث الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيًّا فلا يرتاب الناس في نبوَّته؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:٢].

٦- طباعهم وأحوالهم وسلامة فطرتهم التي كانت أشبه ما تكون بالمادَّة الخام التي لم تُصَغْ وتُشكَّل في أي قالب، وبقيَتْ كذلك حتى جاءت الرسالة الخاتمة فشكلتها في بُوتقتها.

٧- من أبرز ما خُصُّوا به: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربط حبه بحبهم، وبُغْضَه ببغضهم؛ فقد رُوِيَ عن سلمانَ الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا سلمان، لا تبغضني فتُفارِقَ دينك**»، قلت: يا رسول الله، كيف أبغضك وبك هدانا الله؟! قال: «**تبغض العرب فتبغضني**»(١).



(١) أخرجه الترمذي (٣٩٢٧)، وقال: «حديث حسَنٌ غريب»، والبزار في «مسنده» (٢٥١٣)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ٢٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٨٦)، قال الحافظ المنذري: «حديث منكر» كما في أجوبة على أسئلة في الجرح والتعديل (ص٨٤)، وقال الألباني: «ضعيف الإسناد» كما في «الضعيفة» رقْم (٢٠٢٩)، وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص١٥٩)، وانظر أيضًا: «تحفة الأحوذي» (١٠/ ٤٢٨).

صُوَرٌ من وفاء العرب في الجاهليَّة



ممَّا أسفرت عنه وُجوهُ الأوراق، وأخبرت به الثِّقاتُ في الآفاق، وظهرت روايته بالشام والعراق، وضُرب به الأمثال في الوفاء بالاتفاق: حديث السَّمَوْءَل بن عاديا الذي صار مضرب الأمثال في الوفاء حتى قيل: «أوفى من السَّمَوْءَل».

وذلك أن امرأَ القيس الكِنْديَّ، لما أراد المُضيَّ إلى قيصرَ ملكِ الرُّوم، أودع عند السَّمَوْءَل دروعًا وسلاحًا، وأمتعةً تساوي من المَال جملةً كثيرةً، فلَمَّا مات امْرُؤُ القيسِ أرسل ملك كِنْدَة يطلبُ الدُّرُوع والأسلحةَ المُودعةَ عند السَّمَوْءَل. فقال السَّمَوْءَل: «لا أدفعها إلا لمستحقِّهَا». وأبى أنْ يدفع إليه منها شيئًا، فعاودهُ فأبى، وقال: «لا أغدرُ بذمَّتي، ولا أَخُونُ أمانتي، ولا أتركُ الوفاءَ الواجب عليَّ».

فقصَدُه ذلك الملكُ من كندة بعسكره فدخل السَّمَوْءَل في حصنه، وامتنع به.

فحاصرهُ ذلك الملك، وكان ولدُ السَّمَوْءَل خارجَ الحصنِ، فظفِر به ذلك الملكُ، فأخذهُ أسيرًا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسَّمَوْءَل. فأشرف عليه من أعلى الحصن. فلَمَّا رآهُ قال له: إن ولدك قد أسَرْتُه، وها هو معي، فإنْ سلَّمت

إِلَيَّ الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك؛ رحلتُ عنك وسلَّمْتُ إليك ولدك، وإن امتنعْتَ من ذلك ذَبحْتُ ولدك وأنت تنظر، فاختر أَيَّهُمَا شئت.

فقـال له السَّـمَوْءَلُ: «ما كنتُ لأخفـرَ ذِمامي، وأُبطِـلَ وفائي، فاصنع ما شئْتَ».

فذبحَ ولدهُ وهو ينظرُ. ثم لَمَّا عجزَ عن الحصْنِ رجع خائبًا، واحْتَسَبَ السَّمَوْءَل ذبحَ ولدِهِ وصَبَرَ، محافظةً على وفائه.

فلما جاء الموسم وحضر ورثَةُ امرئِ القيس سلَّم إليهم الدُّروع والسِّلاحَ. ورأى حفظَ ذمامِهِ ورعايةَ وفائه أَحَبَّ إليه من حياة ولدِهِ وبقائهِ.

فصارت الأمثالُ في الوفاءِ تضربُ بالسَّمَوْءَلِ، وإذا مدحُوا أهل الوفاء في الأنام ذُكِرَ السَّمَوْءَلُ في الأوَّلِ.

وكم أعلى الوفاءُ رُتْبَةَ مَن اعْتَقَلَهُ بيديه، وأغْلَى قيمةَ مَنْ جعله نُصْبَ عينيه، واستنطقَ الأفواهَ لفاعله بالثناء عليه، واستطلقَ الأيديَ المقبوضةَ عنه بالإحسان إليه.

وفي هذا يقول السَّمَوْءَل:

وفـيـتُ بــأَدْرِعِ الـكِـنْـديِّ إنِّـي	إذا مـا خــانَ أقــوامٌ وَفَـيْـتُ
وقـالـوا: إنـه كَـنْـزٌ رَغِـيـبٌ	ولا -واللهِ- أغْــدِرُ ما مشيتُ
بَـنـى لـي عـاديَـا حِـصْـنًـا	وبـئـرًا كُـلَّـما شِـئْـتُ استَقَيْتُ
طِـمِـرًّا تـزلـقُ الـعِـقْـبَـانُ عنه	إذا مـا نـابَـني ظُـلْـمٌ أبَـيْـتُ

وقال الأعشى في ذلك:

شريحُ لا تتركُنِّي بَعْدَ ما عَلِقَتْ ... حِبالُكَ اليومَ بَعْدَ القِدِّ[(١)] أظفَارِي

كُنْ كَالسَّمَوْءَلِ إذْ طَافَ الهُمَامُ بِهِ ... في جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ

بالأبلَقِ الفَرْدِ مِنْ تَيْماءَ مَنْزِلُهُ ... حِصْنٌ حَصِينٌ وَجَارٌ غيرُ غَدَّارِ

إذْ سَامَهُ خُطَّتَيْ خَسْفٍ[(٢)] فقالَ لَهُ ... مَهْمَا تَقُلْهُ فَإِنِّي سَامِعٌ حَارِ[(٣)]

فَقَالَ: غَدْرٌ وَثَكْلٌ أنْتَ بَيْنَهُمَا ... فَاخْتَرْ، وما فيهما حظٌّ لمختارِ

فَشَكَّ غَيْرَ طَويلٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: ... اذبحْ أَسِيرَكَ إنِّي مَانِعٌ جَارِي

هذَا لَهُ خَلَفٌ إنْ كُنتَ قَاتِلَهُ ... وإنْ قَتَلْتَ كَرِيمًا غَيْرَ خَوَّارِ

فَقَالَ تَقْدِمَةً إذْ قَامَ يَقْتُلُهُ ... أشْرِفْ سَمَوْءَلُ فَانْظرْ للدَّمِ الجاري

أأقْتُلُ ابنَكَ صبرًا أو تَجِيءَ بِهِ ... طَوعًا؟ فأنْكَرَ هَذا أيَّ إنْكارِ

فَشَكَّ أَوْدَاجَهُ والصَّدْرُ في مَضَضٍ ... عليهِ مُنْطَوِيًا كَاللَّذْعِ بالنَّارِ

واخْتَارَ أَدْرَاعَهُ ألَّا يُسَبَّ بها ... ولمْ يَكُنْ عَهْدُهُ في غيرِ مختارِ

وقالَ: لا أَشْتَرِي عَارًا بِمَكْرُمَةٍ ... فَاخْتَارَ مَكْرُمَةَ الدُّنْيَا على العارِ

والصَّبْرُ مِنْهُ قَدِيمًا شِيمةٌ خُلُقٌ ... وَزَنْدُهُ في الوفاءِ الثَّاقِبُ الوَارِي[(٤)]

---

(١) القِدّ -بكسر القاف: سير يقد من جلد غير مدبوغ.

(٢) الخسف: الإذلال وتحميل الإنسان ما يكره.

(٣) حار: ترخيم حارث.

(٤) انظر: «المحاسن والأضداد» (ص٨٣، ٨٤)، و«الشعر والشعراء» لابن قُتَيْبَة (١/ ٢٥٤)، و«ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» (ص١٣٢، ١٣٣)، و«محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» (١/ ٣٥٢)، و«مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٣٧٤، ٣٧٥)، و«المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي (ص٢١٢).

الطَّائيُّ وشَرِيكٌ

الوفاءُ بالعهدِ ورعايةُ الذِّمَم نُقِل فيه من عجائب الوقائع، وغرائب البدائع، ما يُطربُ السَّامع، ويُشَنِّفُ المسامع؛ كقضيَّة الطائي وشَرِيكٍ نَدِيمِ النُّعمان بن المُنذِر.

وتلخيص معناها أن النُّعمان كان قد جعل له يومين: يومَ بُؤسٍ، مَن صادَفَه فيه قتله وأرداه، ويومَ نعيمٍ، مَن لَقِيَهُ فيه أحسن إليه وأَغْناه، وكان هذا الطائيُّ قد رماهُ حادثُ دهْرِه، بسهامِ فاقَتِه وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره؛ ليرتادَ شيئًا لصِبْيته وصغاره، فبينما هو كذلك إذ صادفه النُّعمانُ في يوم بُؤسه، فلمَّا رآهُ الطائيُّ عَلِم أنه مقتولٌ، وأن دمه مطلولٌ[1]. فقال: «حيَّا الله الملك، إن لي صبيةً صِغارًا، وأهلًا جياعًا، وقد أرقْتُ ماءَ وجهي في حصول شيءٍ من البُلْغة لهم، وقد أقدمني سوءُ الحظِّ على الملكِ في هذا اليوم العبوس، وقد قرُبْتُ من مقرِّ الصبية والأهل وهم على شفا تَلَفٍ مِن الطَّوَى[2]، ولن يتفاوتَ الحالُ في قتلي بين أول النهار وآخرِه، فإنْ رأى الملكُ أن يأذن لي في أن أُوصِّلَ إليهم هذا القُوتَ وأُوصِيَ بهم أهلَ المُروءةِ من الحيِّ؛ لئلَّا يهْلِكُوا ضَياعًا ثم أعودَ إلى الملك، وأُسلِّمَ نفسي لنفاذِ أمرِه».

---

(١) يقال: طلَّ دمُ القتيل أي: هَدَر، وبطل، ولم يُثأر له، ولم تؤخذ دِيَتُه.

(٢) **الطُّوَى**: الجوع، **وبات على الطَّوَى**: بات جائعًا.

فلمَّا سمِع النُّعمان صورة مقاله، وفَهِمَ حقيقة حاله، ورأى تلهُّفَهُ على ضياع أطفاله؛ رَقَّ له ورَثَى لحاله، غير أنَّه قال له:

لا آذَنُ لك حتى يضمنكَ رجلٌ معنا، فإن لم ترجع قتلناهُ!

وكان شَريك بن عديٍّ بن شُرَحْبِيلَ نديمُ النُّعمانِ معه، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يَـا شَـرِيـكَ بـنَ عَـدِيّ	مَـا مِـنَ المَـوتِ انْـهِـزَامْ
مَـنْ لأَطْـفَـالٍ ضِـعَـافٍ	عَـدِمُـوا طَـعْـمَ الـطَّـعَـامْ
بَـيـنْ جُـوعٍ وانْـتِـظَـارٍ	وافْـتِـقَـارٍ وسِـقَـامْ
يَـا أَخَـا كُـلِّ كَـرِيـمٍ	أَنْـتَ مِـنْ قَـوْمٍ كِـرَامْ
يَـا أَخَـا الـنُّـعْـمَـانِ جُـدْ لِـي	بِـضَـمَـانٍ والْـتِـزَامْ
وَلَـكَ اللهُ بِـأَنِّـي	راجِـعٌ قَـبْـلَ الـظَّـلامْ

فقال شريك بن عديٍّ: أصلح الله الملك، عليَّ ضمانهُ.

فمرَّ الطائي مسرعًا، وصار النعمانُ يقول لشريك: إنَّ صدْرَ النهار قد ولَّى، ولم يرجع، وشَريكٌ يقول: ليس للملك عليَّ سبيلٌ حتى يأتيَ المساءُ، فلمَّا قرُب المساءُ، قال النعمان لشريكٍ: قد جاء وقتك، قم فتأهَّبْ للقتل!

فقال شريكٌ: هذا شخصٌ قد لاح مقبلًا، وأرجو أن يكون الطائي، فإنْ لم يكن فأمرُ الملك ممتثَلٌ.

فبينما هم كذلك وإذ بالطائي قد اشتدَّ في عَدْوِه وسَيرِه مُسرعًا حتى وصل، فقال: «خشيتُ أن ينقضيَ النهارُ قبل وصولي»، ثم وقف قائمًا، وقال: «أيُّها الملكُ، مُرْ بأمركَ».

فأطرق النُّعمانُ، ثم رفع رأسَه، وقال: والله ما رأيتُ أعجَبَ منكما؛ أمَّا أنت يا طائيُّ فما تركتَ لأحدٍ في الوفاءِ مقامًا يقوم فيه، ولا ذكرًا يَفتخِرُ به، وأمَّا أنت يا شريكُ فما تركتَ لكريمٍ سماحةً يُذْكَرُ بها في الكرماء، فلا أكونُ أنا أَلْأَمَ الثلاثة، ألَا وإني قد رفعتُ يوم بُؤسي عن الناس، ونقضتُ عادتي؛ كرامةً لوفاء الطائي، وكرم شَريك.

فقال الطائيُّ:

وَلَقَدْ دَعَتْنِي لِلْخِلَافِ عَشِيْرَتِي ... فَعَدَدْتُ قَوْلَهُمُ مِنَ الإِضْلَالِ

إِنِّي امْرؤٌ مِنِّي الوَفَاءُ سَجِيَّةٌ ... وَفَعَالُ كُلِّ مُهَذَّبٍ مِفْضَالِ

فقال له النُّعمان: ما حمَلَكَ على الوفاءِ وفيه إتلافُ نفْسِك؟

فقال: «دِيْني؛ فمَنْ لا وفاء فيه، لا دِينَ له».

فأحسَنَ إليه النُّعمان، ووصلهُ بما أغناه، وأعاده مُكرَّمًا إلى أهله، وأناله ما تمنَّاه[1].

ومن مواقف الوفاء التي أثرت في مجرى التاريخ: وفاء سراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو مشرك- لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) انظر: «المحاسن والأضداد» (ص٨٥)، و«المستطرف» (ص٢١٠، ٢١١).

فقد روى البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الرَّحْلِ قولَ أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«فارتحلنا بعد ما مالَتِ الشمسُ واتَّبَعَنا سُراقَةُ بن مالك، فقلت: أُتِينا يا رسول الله، فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، فدعا عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فارتطمَتْ به فرسُه إلى بطنها -أُرَى في جَلَدٍ من الأرض- فقال: إني أُراكُما قد دعوتما عَلَيَّ، فادعُوَا لي، فاللهُ لكما أن أَرُدَّ عنكما الطَّلَبَ، فدعا له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنجا، فجعل لا يلقى أحدًا إلا قال: كُفيتم ما هنا، فلا يلقى أحدًا إلا رَدَّهُ، قال: ووَفَى لنا»(١).



(١) رواه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩).

الوفاءُ لِمَنْ أحسَنَ إليك

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]

قال ابن عطاء الله السكندري: «**مَنَعَك مِن أن تَدَّعيَ ما ليس لك ممَّا للمخلوقينَ، أفَيُبيحُ لك أن تَدَّعيَ وصْفَه وهو ربُّ العالَمِينَ؟!**»[(١)].

قال شارحها الدكتور البوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في هذه الحكمة أن الله عَزَّوَجَلَّ يمنعك من أن تنكر لصاحب الفضل من الناس فضْلَه، أو أن تنسب فضله إليك وتُخَيِّلَ للناس بأنك أنت صاحبه ومصدره، كأنْ يحسن إليك صديق أو جارٌ لك بمالٍ يَرفِدُك[(٢)] به عند ضائقة، فإذا ارتفعَتْ عنك تلك الضائقةُ بإحسانه إليك، نَسِيتَ صديقك أو جارك المحسن، أو تناسيته، وتظاهرت أمام الناس بأنك أنت صاحب الفضل في حق نفسك، سعيت فوصلت، وجالدت فنجحت!

أو كأن يصادفك عدو يريد أن يتربص بك ويَكِيدَ لك، وأنت من الضعف بحيث لا تملك دفاعًا عن نفسك، فتستنجد بمن يملك من القوة ما يَرُدُّ به عنك غائلة العدوان، فإذا استجاب وأنجدك، وانجابت عنك غاشية القلق والخوف، وعُدْتَ إلى دائرة أمنك وطمأنينتك؛ تناسيت فضل هذا الذي هَبَّ لنجدتك، وقام بنصرتك والدفاع عنك، ورُحْتَ تتبجح في الأوساط ببطولة وهمية تزعمها لنفسك، موهمًا أنك كنت النصير لذاتك، والقاهر لعدوك!

(١) «حكم ابن عطاء الله» الحكمة الثالثة والعشرون بعد المئة.

(٢) رفَدَه: أعطاه وأعانه.

إن من المعلوم أن الله ينهى عن هذا اللؤم، ويأمر عباده بأن يَعرِفَ كلٌّ منهم لصاحب الفضل فضْلَه، وأن يشكره ويكافئه على معروفه وفضله، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه**»[(١)]، وقال: «**لم يشكر الله من لم يشكر الناس**»[(٢)].

هذا في عَلاقة الناس بعضِهم مع بعض، فكيف بعَلاقة العبد بربه؟

والحق أن كثيرًا من الناس يعانون من هذه الآفة، بل إن انتحالهم لأوصاف رب العالمين أكثر من انتحال بعضهم لأوصاف بعض!

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥٣٦٥، ٥٧٤٣، ٦١٠٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦)، وأبو داود (١٦٧٢، ٥١٠٩)، والنسائي (٢٥٦٧)، وصححه ابن حبان (٣٤٠٨) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**».

قال الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٢٣٦٩): «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «إرواء الغليل» (١٦١٧): (وهو كما قالا). وصححه على شرط الشيخين أيضًا: محقق «مسند أحمد» (٩/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وصحَّحه، وصححه أيضًا ابن حبان (٣٤٠٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وصحَّح إسنادَه على شرط مسلم: الألبانيُّ في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» تحت الحديث رقْم (٤١٦)، ومحققو «مسند أحمد» (١٣/ ٣٢٢).

قال الإمام الخَطَّابي رَحِمَهُ اللهُ في «معالم السنن» (٤/ ١١٣): «هذا الكلام يُتأوَّل على وجهين:

أحدهمـا: أنَّ مَـن كان طبعـه وعادتُه كفرانَ نعمة الناس وترْكَ الشـكر لمعروفهـم؛ كان من عادته كفرانُ نعمة الله وتركُ الشكر له سبحانه.

والوجه الآخر: أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخَر».

ذلك لأن أحدنا يبصر أمامه الشخص المتفضل عليه، ويرى عمله وجُهده، وهو يسعى في رعايته وخدمته، أو تقديم المعونة الممكنة له، ومِن ثَمَّ فإن من العسير أن يتجاهله وهو أمامَه، أو أن يدعيَ لنفسه الجهد الذي امتنَّ عليه صاحبُه به وفي الناس رُبَّما جمهرة شهِدوا عملَه، ورأوا مظاهر اهتمامه به، ورعايته له.

أمَّا الوصف أو العون الذي يتلقَّاه أحدنا من ربه عَزَّوَجَلَّ؛ فإنما تصل إليه آثاره ضمن أقنية خفية غير مرئية، هذا بالإضافة إلى أن مصدر التفضل والإحسان -وهو الله عَزَّوَجَلَّ- غير مرئي في هذه الدنيا بالأبصار، فإذا رأى أحدنا في مظهره سيما الصحة والعافية، زُهِيَ بهذا الذي يراه، دون أن يرى لله عليه في ذلك مِنَّةً وفضلًا.

وإذا أدرك ما يصفه الناس به من عبقرية في الفَهم، وسَعةٍ في المعارف والعلم؛ أُعجب بنفسه، وتباهى بهذا الذي يمدحه الناس به، دون أن يعلم أن ليس له من الخصوصية أو الفضل في ذلك شيءٌ، وإنما الفضل في ذلك لله الذي متعه بشيء من وصفه عَزَّوَجَلَّ؛ إذ العلمُ علمه، والدراية العقلية من أَعْطياته، وصَدَق الله القائل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وإذا رأى بَسْطةَ الدنيا وكثرة المال بين يديه؛ ركِبَه الفخر، واهتاج به الكِبْر، مستيقنًا أنه إنما نال كلَّ ذلك بكَدِّ يمينه، وبعرق جبينه، وبما يتمتع به من معرفة السُّبُل إلى جمع المال وتنميته واستثماره، مرددًا قول قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]!

ناسـيًا أن المال مالُ الله يؤتيه من يشـاء، وأنَّه سبحانه هو المتفضِّل به عليه، وأنْ لا مالك بالمعنى الحقيقي للمُلك إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وإذا رأى هالة المجد والعز والشـهرة أو الرئاسـة تحيط به؛ طافت برأسـه النشـوة، ولم يَشُـكَّ أن الذي سما به إلى سُدَّة ذلك كلِّه إنما هو استحقاقُه، ووفرةُ المزايـا التي يتمتع بها، والتي لا بد أن تُثمر في حياته هذه المكانةَ، وأن تُبَوِّئَه هذا المجد والسُّمُوَّ!

ناسيًا أنه لو عاد فاستظهر هُويَّته الحقيقية، لن يجد نفسه إلا كتلة من الذل والهوان، ولكن الله يُضفي على مَن يشاء مِن عباده عزًّا من عزته؛ فيرتفع بين الناس شأنُه، ويشتهر بينهم أمرُه، وصدق الله القائل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران:٢٦].

ولو كان في الناس مَن يحق له أن يرى أهليته الذاتية لرفعة المكانة، وسُمُوِّ الذِّكر بين الناس؛ لَكان ذلك أفضلَ الخلائقِ محمَّدًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك فقد أكرمه الله بهذه المزية فضلًا منه وإحسانًا، وامتَنَّ عليه بذلك قائلًا: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ [الشرح:٤]، بعد أن قال له: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾ [الشرح:١-٣].

فإذا تبيَّن لك هذا؛ فاعلَمْ أن **الوفاء مع الله الذي خلقك فسَوَّاكَ فعَدَلَك، أهَمُّ من الوفاء مع عباد الله.**

ولا ريب أن العكس أيضًا صحيح، وهو أن نكران الفضل لصاحب الفضل -وهو الله- أشَدُّ لؤمًا من إنكاره للناس الذين هم من أمثالك.

إن المطلوب من العبد أن يتعلق بأوصاف الربوبية ليستكمل بها نقصه، لا أن يَدَّعيَها لنفسه متجاهلًا بها نقصه.

وإذا تأمَّلْتَ عَلِمتَ أن الآفة الكبرى في حياة أكثر المسلمينَ هي التورُّطُ في نقيض هذا المطلوب، وذلك على نحوِ ما أوضحت لك في الأمثلة التي ذكرتها لك.

ولكي تتبيَّنَ عِظَمَ اللؤم في هذه الآفة التي يتورط فيها كثير من المسلمين، تأمل في مدى بشاعة حال مَن يمارس هذا التصرف مع أمثاله من الناس، إذ يتلقى أحدُهم الفضلَ من صاحبه فينجو بذلك من بلاء كان سيَحِيق به، ثم يمضي متجاهلًا فضله، ناسبًا ذلك إلى نفسه، موهمًا أنه المستقل بتخليص نفسه من ذلك البلاء! وانظر إلى شدة تحذير الشارع جَلَّجَلَالُهُ من الانحدار إلى هذا السوء.

فكم تكون بشاعة هذا التصرف، وكم يكون تحذير الله منه، وتحريمه له، عندما يكون المتفضل المانح هو الله، والمتجاهل للفضل المترفع على الشكر عبدًا من عباد الله؟!

ضَعْ يا بن آدم توحيدك الذي تردده بلسانك، موضعَ التنفيذ من تصرفاتك وسلوكك أمام هذه الحقيقة التي يُذَكِّرُك بها كتاب الله إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، ويشرحها لك هنا ابن عطاء الله.

إنك في كل تقلباتك وحركاتك وسكناتك عبد مملوك لله، وإنما تُتَرْجَمُ عبوديَّتُك له بما تَتَّصِفُ به حقًّا؛ من منتهى الذل، ومنتهى الضَّعف والعجز، ومنتهى الفقر.

وأنت عندَما تنشد التخلص من ذلك؛ فإنما تنشد ذلك بالالتجاء إلى عزة الله.

وعندما تنشد التحرر من ضعفك وعجزك؛ فإنما السبيل الوحيد أمامك الالتجاء إلى قوته وقدرته.

وعندما تنشد التخلص من فقرك؛ فإنما سبيلك إلى ذلك الالتجاء إلى غِناه.

إذن، فـلا تَنْسَ -وأنت تتمتع بالعـزة- أنك إنما تتمتع بالعزة التي منحك الله إياهـا، ولا تَنْسَ -وأنت تتمتـع بالقوة والقدرة- أنك إنـما تتمتع من ذلك بقـوة الله وقدرته، ولا تنس -وأنت تتمتع بالغِنى- أنك فقير منحك الله شـيئًا من رِفْدِه وغناه.

إنك إن فعلت ذلك غنيت دائمًا بالله، وتقلبت من حياتك في عزة ربانية لا تفارقك، وتحصنت من حماية الله بقوة لا تُقْهَر.

والشأن فيك -والحالةُ هذه- ألا يُفارِقَك اليقينُ بفقرك، حتى وإن كنت في أَوْج الغنى، وألا يفارقك اليقين بذُلِّك ومهانتك بين يدي ربك، حتى وإن كنت تتبوَّأُ أعلى درجات العز، وألا يفارقك اليقين بعجزك وضَعفك، حتى وأنت تتمتع بكامل عافيتك وقوَّتك.

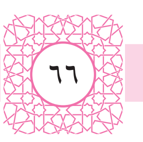
فإذا تمتعت باليقظة التامة إلى هذه الحقيقة؛ فإنك ستنال من جرَّاء ذلك نعمتين جليلتين، بهما تنال أسمى درجات القرب من الله:

أُولى النعمتين: أنَّ شكر الله لا يفارق خاطرك، ولا ينقطع سبيله عن لسانك؛ فإن معرفتك الدائمة لفقرك وعجزك وذُلِّك، هي التي تدعوك دائمًا إلى شكر الله وحمده كلَّما رأيت فقرك مستورًا بالغِنى الذي متَّعك الله به، وكلما رأيت عجزك مستورًا بالقوَّة التي منحك الله إيَّاها، وكلما رأيت ذُلَّكَ مستورًا بالعزة التي أسبغها عليك.

الثانية منهما: أنك تصبح رَبَّانيَّ التصرف والسلوك؛ فلا تقوم ولا تقعد، ولا تعطي ولا تأخذ، ولا تنطق ولا تسمع إلا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنك على يقين تامٍّ أنك كتلة عجز وذُلٍّ وفقر، لا يتأتَّى منك شيءٌ، ولكنك بالمدد الإلهيِّ تقوى فتتحرك وتعمل، وبالمدد الإلهي تنقلب في أعمال السوق وتجاراتها وصناعاتها، وبالمدد الإلهي تعقل وتنطق وتسمع، ومِن ثَمَّ فأنت مع الله في كل الأحوال[١].

---

(١) وفي هذا إبطال لما يذهب إليه بعض أرباب «التنمية البشرية» وما يُسمَّى بـ«الطاقة الكونية» من الغلو في قدرات ما يسمونه بالعقل الباطن، و«حتمية النجاح» إذا عرف الإنسان وصفة النجاح، ودعاوى «أنا أجذب قدري»، ونحو هذه الأفكار التي تدعو إلى «التوكل على النفس» بدل «التوكل على الله تعالى»، وحتمية التغيير إذا أراده الإنسان ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾، بل القدرة على الشفاء من الأمراض كأنَّ أحدهم يقول: «وإذا مرضتُ فأنا أشفي نفسي» بدل أن يقول كما قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، وهذا كله يناقض توحيد الله تعالى، وقد راجت هذه الأفكار المستمد بعضها من الفلسفات والعقائد الشرقية بين عوام الشباب، وإذا كانت قد شاعت في الغرب نتيجة الخواء الروحي والبُعد عن الوحي الإلهي فلماذا يُسَوِّغُ انتشارها بين بعض المسلمين الذين يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟، وقد أشرتُ إلى أدلة إبطال هذه الأفكار في «علو الهمة» (ص٢٥-٢٨) ط. دار الخلفاء الراشدين سنة (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م).



ولعل هذا من بعض معنى كلام الله تعالى في الحديث القدسي[(١)]: «**وما يَزالُ عبدي يَتقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وبصَرَه الَّذي يُبصِرُ به، ويدَه الَّتي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يمشي بها، وإنْ سألني لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ استعاذَني لَأُعِيذَنَّهُ...**»[(٢)] اهـ.

وقد قال الله تعالى مخاطبًا الكفار الذين قابلوا إحسانَه إليهم ونِعَمَهُ عليهم بالتكذيب والكفران: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢].

فلا ينبغي أن يرى العبدُ ما رزقه الله من خيرٍ من قِبَل الوسائط التي جرت العادة أن تكون أسبابًا، بل ينبغي أن يراه مِن قِبَلِ الله تعالى إحسانًا وتفضلًا، وأن يقابل إحسانَه إليه بشكره عليه.

غمَرْتني المكارِمُ الغُرُّ منكم ... إذْ توالَتْ علَيَّ منها الفُنونُ

شرطُ إحسانِكم تحقَّقَ عندي ... ليت شِعْرِي الجزاءُ كيفَ يكونُ[(٣)]



(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «الحِكم العطائية: شرح وتحليل» (٣/ ٩٠-٩٦).

(٣) والمعنى: أن إحسانكم إليَّ تحقق عندي، وهو شرط، ولابد للشرط من جزاء، فليت شعري: يعني أود لو كنت أعلم، أي: يا ليتني كنت أعلم كيف أقابل إحسانكم إليَّ.

وفاءُ سَيِّدِ الأوفياءِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ



قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

وقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالحَ الأخلاقِ**»(١).

وفي حديث هرقل أنه سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «فِبِمَ يأمركم؟»، فقال ضمن جوابه: «يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة»(٢).

وفي حديثه أيضًا أنه سأله: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: لم تمكني كلمة أُدخِلُ فيها شيئًا غير هذه الكلمة.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤٢٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه». وحسَّن إسنادَه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤٥).

وقال محققو «مسند أحمد» (١٤/ ٥١٣): «صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد ابن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث».

وهو في «موطأ مالك» (٢/ ٩٠٤/ ٨) أنه قد بلغه أن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حَسَنَ الأخلاقِ**».

قال الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» (٢٤/ ٣٣٣): «هذا الحديث يتصل من طرق صِحاح عن أبي هريرة وغيره عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٢) رواه البخاري (٢٩٤١)، والإمام أحمد (١/ ٢٦٢).

إلى أن قال هرقل: وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر[١].

وفي رواية ابن إسحاق عن الزهري قال أبو سفيان: «فوالله ما التفت إليها مني».

وفي حديث الهجرة قال ابن إسحاق:

ولم يعلم -فيما بلغني- بخروج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدٌ حين خرج إلا عليُّ ابن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآلُ أبي بكر؛ أما عليٌّ فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أن يتخلَّف حتى يؤدِّي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس بمكة أحدٌ عنده شيءٌ يخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صِدْقِه وأمانته[٢].

وقال حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند اللهِ في ذاك الجزاءُ

هَجَوْتَ مُبَاركًا بَرًّا حنيفًا ... أمينَ اللهِ شيمتُه الوفاءُ

قال الماوَرْديُّ رَحِمَهُ اللهُ في بيان شرف أخلاق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكمال فضائله[٣]: «الخصلة السادسة: حفظه للعهد، ووفاؤه بالوعد؛ فإنه ما نقض لمحافظٍ عهدًا، ولا أخلف لمراقب وعدًا، يرى الغدر من كبائر الذنوب، والإخلافَ من مساوي الشِّيَم، فيلتزم فيهما الأغلظ، ويرتكب فيهما الأصعب؛ حفظًا لعهده،

(١) رواه البخاري (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٥)، «الروض الأنف» (٢/ ٢٢٤)، «البداية والنهاية» (٣/ ٤٤١).

(٣) في كتابه «أعلام النبوة» (ص٢٢٢).

ووفاءً بوعده، حتى يبتدئ معاهدوه بنقضه، فيجعل الله تعالى له مخرجًا؛ كفعل اليهود من بني قُريظةَ وبني النضير، وكفعل قريش بصلح الحُدَيْبِيَة، فجعل الله تعالى له في نَكْثِهِمُ الخِيَرة».

ولله در أمير الشعراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال في مدحه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وإذا أخـذتَ العهدَ أو أعطيتَه فـجـميعُ عـهـدِكَ ذِمَّـةٌ ووفَـاءُ

وكان مِن هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أعداءه إذا عاهدوا واحدًا من أصحابه على عهد لا يَضُرُّ بالمسلمين أمضاه لهم:

فعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حُسَيْلٌ، فأخَذَنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا! فقلنا: ما نُريدُه، ما نُريد إلا المدينة.

فأخذوا منَّا عهدَ الله وميثاقه لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المدينة، ولا نقاتل معه.

فأتَيْنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرناه الخبرَ، فقال: «**انصَرِفَا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعين اللهَ عليهم**»[1].

وقال أنس بن زُنيم الدِّيلِيُّ:

فَمَا حَمَلَتْ نَاقَةٌ فَوقَ كُورِها أبَـرَّ وأوفـى ذِمَّـةً مـن محمدِ[2]

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٧).

(٢) «زهر الآداب» (٢/ ١٠٩٣).

ومن مواقف وفائه ﷺ:

أن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان غلامًا لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فوَهَبَتْهُ وقَدِمَ أبوه وعمُّه في فِدائه، فسألا عن النبي ﷺ فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يا بنَ عبدِ المطلب، يا بنَ هاشم، يا بنَ سيِّدِ قومه، أنتُم أهلُ حَرَم الله وجيرانه، تفكُّون العاني وتُطْعِمُون الأسير، جئناكَ في ابننا عِندك، فامنُن علينا، وأَحْسِنْ إلينا في فِدائه.

قال: «**ومن هو؟**».

قالوا: زيدُ بنُ حارثة.

فقال رسول الله ﷺ: «**فهلَّا غَيْرَ ذَلِك**».

قالوا: ما هو؟

قال: «**أدعوه فأُخيِّرُه، فَإِنِ اخْتَارَكُم فَهُوَ لَكُم، وَإِن اخْتَارَنِي، فوالله مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَى مَن اخْتَارَنِي أَحَدًا**».

قالا: قد رددتنا على النَّصَفِ، وأحسنتَ.

فدعاه فقال: «**فأنا مَن قد علمتَ ورأيتَ، وعرفتَ صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما**» قال: ما أنا بالذي أختارُ عليك أحدًا أبدًا؛ أنتَ مني مكان الأب والعم.

فقالا: ويحكَ يا زيد، أتختارُ العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وعلى أهل بيتك؟!

قال: نعم؛ قد رأيتُ من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختارُ عليه أحدًا أبدًا.

فلما رأى رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، أخرجه إلى الحِجْر، فقال: «**أُشْهِدُكم أنَّ زَيدًا ابني، يَرِثُني وأرِثُه**».

فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه، طابت نفوسُهما، فانصرفا، ودُعِي زيدَ بنَ محمد، حتى جاء الله بالإسلام، فنزلت: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ [الأحزاب:٥]، فدُعِيَ من يومئذٍ: زيد بن حارثة. قال مَعْمَر في «جامعه» عن الزهري: ما علمنا أحدًا أسلم قبل زيد بن حارثة، وهو الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه أنعم عليه، وأنعم عليه رسوله، وسمَّاه باسمه(١).

وكان من شروط صلح الحديبية أن من أتى رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصحابه بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ومن أتى قريشًا ممن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يردوه عليه... وبينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكتب الكتاب إذ جاءه أبو جندلِ بنُ سُهَيلِ بنِ عمرٍو في الحَدِيدِ قدِ انْفَلَتَ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قالَ: وقد كان أصحابُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرجُوا وهم لا يَشُكُّونَ في الفتحِ لرُؤيَا رآها رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلما رَأَوْا مِن الصُّلحِ والرُّجُوعِ وما تحمَّلَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نَفْسه دَخَلَ الناسَ من ذلك أمرٌ عظيمٌ حتى كادوا أن يَهْلِكُوا. فلما رأى سُهيلٌ (ابنَه) أبا جَنْدَلٍ قام إليه فضَرَبَ وجهَهُ، ثم قال: يا محمد، قَدْ لَجَّتِ(٢) القضيةُ بيني وبينك قبل أن يأتيكَ هذا. قال:

---

(١) «جامع معمر بن راشد» برقم (٢٠٣٩٣/ ملحق بمصنف عبد الرزَّاق).
(٢) أي: وجبت.

«صَدَقْتَ». فقام إليه فأخذ بتَلْبِيبِهِ[١] قال: وَصَرَخَ أبو جندلٍ بأعلى صوته: يا معاشرَ المسلمين، أتَرُدُّونَنِي إلى أهل الشرك فيَفْتِنُونِي في دِيني؟ قال: فزادَ الناسَ شرًّا إلى ما بِهِمْ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا أبا جَندلِ، اصْبِرْ واحْتَسِبْ؛ فإن الله** عَزَّوَجَلَّ **جاعلٌ لك ولِمَن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا. إنا قَدْ عَقَدْنَا بيننا وبين القوم صُلحًا فأَعْطَيْنَاهُم على ذلك وأَعْطَونَا عليه عهدًا، وإنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ**»[٢].

ولم يأتِ رسولَ الله ﷺ أحدٌ من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة وإن كان مسلمًا[٣].

وكان ﷺ يُجِيرُ مَن أجاره أحدٌ من المسلمين، ولو كانت امرأة، ولا يخيس بأي عهد:

فعن أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره بثوب، قالت: فسلمت، فقال: «**من هذه؟**»، قلت: أم هانئ بنت أبي طالب، قال: «**مرحبًا بأم هانئ**»، فلما فرغ من غُسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفًا في ثوب واحد، فلما

(١) **التلبيب:** ما في موضع اللَّبَب من الثياب، ويُعرف بالطوق، واللَّبَب: موضع القلادة من الصدر، وأخذ بتلابيبه: أمسكه من أعلى ثوبه، كأنه يريد ضربه.
(٢) رواه البخاري (٤١٨٠) (٢٧٣١)، ومسلم (١٨٠٧).
(٣) رواه البخاري (٤١٨١).

انـصرف قلت: يا رسـول الله، زعم ابن أمي علي بن أبي طالـب أنه قاتلٌ رجلًا أَجَرْتُـه(١)؛ فُلانُ ابنُ هُبَيْرَةَ، فقال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قد أَجَرْنا مَن أَجَرْتِ يا أُمَّ هانئٍ»**(٢).

وعن أبي رافع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بعثَتْني قريشٌ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأيتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُلْقِيَ في قلبي الإسلامُ، فقلتُ: يا رسول الله، إني والله لا أرجعُ إليهم أبدًا.

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إني لا أَخِيسُ بالعهْدِ، ولا أحبِسُ البُرُدَ، ولكنِ ارجِعْ، فإن كان في نفسِك الذي في نفسك الآنَ، فارجِعْ»**.

قال: فذهبتُ، ثم أتيتُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلمتُ(٣).

قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في رثاء سيد الأوفياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

تـاللهِ ما حَمَلَتْ أنثى ولا وَضَعَتْ ... مِـثلَ الـرسـولِ نـبيِّ الأُمـةِ الهادِي

ولا بَـرا اللهُ خَـلْـقًا مِـن بَـرِيَّـتِـهِ ... أوفــى بـذِمـةِ جــارٍ أو بميعادِ

---

(١) **أجرت الرجل:** أدخلته في جواري ومنعته ممن يريده بسوء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٨٥٧)، وأبو داود (٢٧٥٨)، والحاكم (٦٥٣٨)، وصحَّحه ابن حبان (٤٨٧٧).

وقال الألباني في «الصحيحة» (٧٠٢): «سكت عليه الحاكم والذهبي، وهو إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير الحسن بن علي بن أبي رافع، وهو ثقة».

وقال محققو «مسند أحمد» (٣٩/ ٢٨٣): «حديث صحيح».

وإنما فعل الصادق المصدوق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك من أجل منع أي شائبة قد يستمسك بها أعداؤه ليوجهوا التهمة بمحاولة المسلمين إهانة الرسل (الدبلوماسيين) أو حبسهم أو استمالتهم.

ومن وفائه ﷺ للمشركين:

أنه ﷺ قال لصفوان بن أمية: «**يا صفوانُ، هل عندك من سلاح؟**» قال: عاريَّة أم غَصْبًا؟ قال: «**لا، بل عارية**» فأعاره ما بين الثلاثين إلى الأربعين دِرْعًا، وغزا رسول الله ﷺ حُنَينًا، فلما هُزِمَ المشركون جُمِعَتْ دُروعُ صفوان، ففقد منها أدراعًا، فقال رسول الله لصفوان: «**إنا فقدنا من أدراعك أدراعًا؛ فهل نَغْرَمُ لك؟**» قال: لا يا رسول الله، لأن في قلبي اليوم ما لم يكن يومئذ. وفي رواية المسند: فقال: «أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب»[(١)].

وعن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس، فأقبل رسول الله يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظتُ له، ونِلْتُ منه، فحَلُمَ عني، ثم قال: «**يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت**». فقلت: لقد هَلَكَتْ قريشٌ يومئذ وذَلَّتْ. فقال: «**بل عَمَرَتْ وعَزَّتْ يومئذ**». ودخل الكعبة، فوقعتْ كلمتُه مني موقعًا ظننتُ يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال[(٢)].

فلما كان فتح مكة طلب عم النبي العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من النبي ﷺ أن يُضِيفَ إلى بني هاشم شرف الحِجابة إلى جانب السِّقاية، بأن يعطيه مِفتاح

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٦٢)، والنسائي (٥٧٧٩)، والإمام أحمد (١٥٣٠٢)، وقال محققو «المسند»: «حديث حسن».

(٢) «طبقات ابن سعد» (٢/ ١٣٦، ١٣٧).

الكعبة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨]. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أين عثمان بن طلحة؟**» فدعي به فقال: «**هاك مفتاحك يا عثمانُ اليوم يومُ برٍّ ووفاء**»[١]، وقال أيضًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذُوها** -حجابة الكعبة- **يا بني طلحة خالِدةً تالِدةً، لا يَنْزِعُها منكم إلا ظالم**»[٢].

وما أصدق ما قال شوقي رَحِمَهُ اللهُ في «الهمزية النبوية»:

وإذا صَحِبْتَ رأى الوفاءَ مُجَسَّمًا ... في بُرْدِكَ الأصحابُ والخُلَطَاءُ

وإذا أخذتَ العَهدَ أو أعطيتَهُ ... فجميعُ عهدِكَ ذِمَّةٌ ووفاءُ[٣]



(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٤٨)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٣٠١).

(٢) انظر: «مجمع الزوائد» رقم (٥٥١٢)، «زاد المعاد» (٣/ ٤٠٩)، ولا يزال مفتاح الكعبة المشرفة بأيديهم إلى اليوم.

(٣) «الشوقيات» (١/ ٣٦).

وفاؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمِّه

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: زار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبر أمه، فبكى وأبكى مَن حَوْلَه، فقال: «**استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور؛ فإنها تذكر الموت**»(١).



(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).

وفاء النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ



عن عائذ الله أبي إدريسَ الخَوْلانيِّ، عن أبي الدَّرْداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال:
كنتُ جالسًا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرَف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمَّا صاحبُكم فقد غامَرَ**»[(١)]، فسَلَّمَ، وقال: يا رسول الله، إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيءٌ، فأسرعتُ إليه، ثم ندِمتُ، فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ، فأقبلتُ إليك.
فقال: «**يغفر الله لك يا أبا بكر**» -ثلاثًا-.

ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَلَّم عليه، فجعل وجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمعَّرُ[(٢)]، حتى أشفق أبو بكر[(٣)]، فجثا[(٤)] على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظْلَمَ -مرتين-.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبتَ، وقال**

---

(١) أي: خاصم، والمعنى: دخل في غمرة الخصومة.
(٢) أي: تذهب نضارته من الغضب، وفي حديث أبي أمامة عند أبي يعلى: فجلس عمر فأعرض عنه -أي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثم تحوَّل فجلس إلى الجانب الآخر فأعرض عنه، ثم قام فجلس بين يديه فأعرض عنه، فقال: يا رسول الله، ما أرى إعراضك إلا لشيءٍ بلغك عني، فما خير حياتي وأنت مُعرِضٌ عني؟! فقال: «**أنت الذي اعتذر إليك أبو بكر فلم تقبل منه؟!**».
(٣) وفي رواية بزيادة: «أن يكون من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمرَ ما يكره».
(٤) **جثا**: برك.

أبو بكر: صدق، وواساني[١] **بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟!»** -مرتين-، فما أُوذيَ[٢] بعدها[٣].

وعن أبي سعيد الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**إنَّ اللهَ خيَّرَ عبدًا بين الدنيا وبين ما عندَه، فاختار ما عند الله**»، فبكى أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقلتُ في نفسي: ما يُبكي هذا الشيخَ؟! إنْ يَكُنِ اللهُ خيَّرَ عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله!

فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو العبد، وكان أبو بكر أعلَمَنا.

قال: «**يا أبا بكرٍ، لا تَبْكِ. إنَّ أَمَنَّ الناس علَيَّ في صُحبتِه ومالِه أبو بكر، ولو كنتُ مُتَّخِذًا خليلًا مِن أُمَّتي لاتَّخذتُ أبا بكرٍ، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلامِ ومَوَدَّتُه، لا يَبْقَيَنَّ في المسجدِ بابٌ إلَّا سُدَّ، إلَّا بابَ أبي بكرٍ**»[٤].



(١) من المواساة وهي مفاعلة من الجانبين، والمراد به أن صاحب المال يجعل يده ويد صاحبه في ماله سواء.

(٢) أي لما أظهره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم من تعظيمه، وفي الحديث فضل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جميع الصحابة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٦١، ٤٦٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

وفاؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا



هذا سيد الخلق أجمعين نبينا محمد -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- كان حافظًا وُدَّ زوجته أم المؤمنينَ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

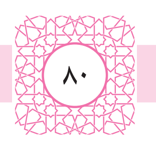
فبعد أن ماتت، وتزوج بعائشةَ وغيرِها من ذوات الجمال والشرف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ؛ لم يَنْسَ خديجة، وما لها من سابقة في الإسلام، ونفقة في سبيل الله؛ فلقد كان كثيرًا ما يلهج بذكرها، والثناء عليها.

بل لقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتعاهد صديقاتها بعد موتها، وربما ذبح الشاة، فقطعها، ثم يبعثها إليهن، وكان يُذكِّرهن بالهدية والصدقة برَّ خديجة، وإحسانها الذي ألفوه منها، وعرَفوه عنها؛ فيترحمون عليها، وينقلون الحديث عن كرمها وجُودها.

حتى لقد بلغ من كثرة ذكره لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن غارت منها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مع أن خديجة ماتت قبل أن يتزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة بثلاث سنين.

جاء في «الصحيحين» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت:

«ما غِرتُ على امرأة ما غِرتُ على خديجة؛ من كثرة ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيَّاها».



قالت: «وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمر ربُّه عَزَّوَجَلَّ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب».

وجاء فيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: ما غِرتُ على أحد من نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما غِرتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر ذكرها، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «**إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد**».

وفي رواية: فأغضبتُه يومًا، فقلت: خديجة؟!

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني قد رُزِقْتُ حبَّها**».

وجاء فيهما أيضًا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت:

استأذنتْ هالة بنت خويلد -أختُ خديجة- على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعرَف استئذان خديجة، فارتاح لذلك، فقال: «**اللهم هالة بنت خويلد**».

قالت: فغِرْتُ، فقلتُ: وما تذكر من عجوزٍ من عجائز قُريش، حمراء الشِّدْقَين، هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيرًا منها!

قال: «**ما أبدلني الله خيرًا منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء**».

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: جاءت عجوز إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عندي، فقال لها: «**من أنت؟**».

قالت: أنا جَثَّامَةُ(١) المُزَنِيَّة.

قال: «**بل أنت حسَّانة المُزنية**». وفي رواية: «**بل أنتِ حضانة**». وفي أخرى: «**حنانة، كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟**».

قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فلما خرجَتْ، قلتُ: يا رسول الله، تُقْبِل على هذه العجوز كل هذا الإقبال!

قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، إن حسن العهد من الإيمان**».

وفي رواية: استأذنت الحولاء على رسول الله ﷺ، فأذن لها، وأقبل عليها، وقال: «**كيف أنتِ؟**».

فقلتُ: يا رسول الله، أتُقْبِل على هذه هذا الإقبال!

قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، إن حسن العهد من الإيمان**».

وفي رواية: استأذنت الحولاء على رسول الله ﷺ، فأذِن لها، وأقبل عليها، وقال: «**كيف أنتِ؟**»، فقلت: يا رسول الله، أتُقبِلُ على هذه هذا الإقبال!

فقال: «**إنها كانت تأتينا في زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»(٢).

---

(١) **الجَثَّامة**: البليد الذي لا ينهض للمكارم، والكسلان الذي لا يميل إلى الحركة.

(٢) رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (٧٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، وليس له علة». وانظر: «الصحيحة» للألباني (٢١٦).

ولقد أُسِرَ أبو العاص بن الربيع -صهر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووالد أُمامةَ التي كان يحملها في صلاته- في غزوة بدر، فبعثتْ زينب قلادتها لِتَفُكَّه، وكانت هذه القلادة لأم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أعطتها لزينب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فرَقَّ لها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن رأيتم أن تُطْلِقُوا لهذه أسيرَها**»، فبادر الصحابة إلى ذلك[١].

وفي حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذكر في خطبته صِهْرًا له من بني عبد شمس (وهو أبو العاص بن الربيع)، فأثنى عليه في مصاهرته إياه فأحسن، قال: «**حدثني فصدقني، ووعدني فوفَّى**[٢] **لي**» الحديث[٣].

(١) أخرجه ابن إسحاق -كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٥٣)-، ومن طريقه أحمد في «المسند» (٤٣/ ٣٨١) برقم: (٢٦٣٦٢)، وأبو داود (٢٦٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤٣٠٦، ٥٠٣٨، ٥٤٠٩، ٦٨٤٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٥٤)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (١٢١٦). وقال ابن الملقن في «البدر المنير» (٩/ ١١٧): «رواه أبو داود بإسناد حسن لا جَرَمَ، رواه الحاكم ثم قال: صحيح على شرط مسلم».

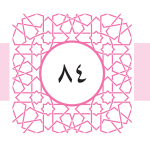
(٢) وكان أبو العاص بن الربيع قد وعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرجع إلى مكة بعد وقعة بدر، فيبعث إليه بزينب ابنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوفى بوعده، وفارقها مع شدة حبه لها.
وقد أسلم قبل الحديبية بخمسة أشهر، ولما هاجر رد عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجته زينب بعد ستة أعوام على النكاح الأول -انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٣٠).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٨٩١٣)، والبخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩)، وغيرهم.

وعن أبي الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم لحمًا بالجِعْرانة، وأنا يومَئذٍ غلام أحمل عضو البعير، فأَتَتْه امرأة فبسط لها رداءه، قلت: من هذه؟ قيل: هذه أُمُّه التي أرضعَتْه»(١).



(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٩٥)، وأبو داود (٥١٤٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩٠٠)، وعنه ابن حبان (٤٢٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٦٥٩٥). وضعَّفه الألباني في «ضعيف الأدب» (٢٠٩)، وقال الأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (٧/ ٤٥٧): «حسن بشواهده».



إكرام رسول الله ﷺ قبيلةً ظالمة مغلوبة وفاءً لمرضعته حليمة السعدية



بعد وقعة حُنين، وفيها كادت هوازن[(١)] تقضي على الإسلام لولا ثباتُه ﷺ، جاءه وفد منها -وهي الباغية المستكبرة- تطلب العفو عن أسراها، فماذا وجدت لتحرك به رحمته، وتستثير شفقته؟ لا شيء، فليس أشد سوادًا من ماضيها معه، ولكنها وجدت في وفائه ملجأها ومنتهاها، فقال رجل منهم: يا محمد، إن في الحظائر مرضعاتِك وحواضنَك، ولو أنَّا ملحنا[(٢)] للنعمَان بن المنذر أو الحارث بن أبي شِمر الغَسَّاني، ثم نزل منا مثل الذي نزلت؛ رجونا عطفه وعائدته علينا.

فقال ﷺ: «**أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**».

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

وبذلك ردَّ على هوازن آلاف الأسرى[(٣)].

---

(١) غزا رسول الله ﷺ هوازن بوادي حُنين بعد فتح مكة، ومنازل هوازن في نجد مما يلي اليمن.

(٢) أي: أرضعنا.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٦٧٢٩، ٧٠٣٧)، والنسائي (٣٦٨٨). وحسَّن إسنادَه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٩٧٣)، ومحققو «المسند» (١١/ ٣٤١، ٦١٣).

تلك هي النفس الوفية، التي تكرم أُمَّةً ظالمة مغلوبة وفاءً لِلَّبَنِ الذي رَضَعَتْه فيها، فهل للناس -وقد عفا فيهم أثر المعروف- أن يتذكروا؟!

عن حجاج الأسلمي قال: قلت: يا رسول الله، ما يُذهب عني مَذِمَّةَ الرَّضاع؟ قال: «**غُرَّة: عبدٌ أو أَمَة**»[(١)].

قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرثي رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وما فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ محمدٍ ... ولا مِثْلُه حتى القيامةِ يُفْقَدُ

أعفَّ وأوفى ذِمةً بعدَ ذمةٍ ... وأقربَ منه نائلا[(٢)] لا يُنَكَّدُ[(٣)]



(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٧٣٣)، وقال محققوه: «إسناده محتمل للتحسين»، وأخرجه من طرق أخرى أبو داود (٢٠٦٤)، وترجم له: «الرَّضْخُ -أي: إعطاء المال- عند الفصال»، والترمذي (١١٥٣)، وابن حبان (٤٢٣٠)، وغيرهم.
والمَذَمة: ذِمام الرضاع وحقه، أو حرمته التي يُذَم مُضَيِّعُها، يعني أنها قد خدمتكَ وأنت طفل، وحَضَنَتْكَ وأنت صغير، فكافئها بخادم يكفيها المهنة، قضاءً لِذِمامها، ووفاء لحقها، ليكون الجزاء من جنس العمل.

(٢) **النائل:** ما يُنال ويُدْرَك، والجود، والعطية، والمعروف.

(٣) لا يُنَكَّد: لا يُكَدَّر، ولا يُتْعِس، ولا يُضايق.

وفاؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأخته من الرَّضاعة الشيماء[١] السعدية



وهي بنت مرضعته حليمة السعدية، كانت تُرقِّصُه في طفولته، وتغنيه برَجَزٍ من شعرها. ولما ظهر الإسلام أغارت خيل من المسلمين على «هوازن» فأخذوها فيمن أخذوا من السبي، فقالت: أنا أخت صاحبكم! فقدموا بها عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعرَّفته بنفسها، فرحَّب بها، وبسط لها رداءه، فأجلسها عليه، ودمعت عيناه، وقال لها: «**إن أحببتِ فأقيمي مكرّمة محببة، وإن أحببتِ أن ترجعي إلى قومكِ أوصلتكِ**». فقالت: بل أرجع إلى قومي. فأعطاها نَعَمًا وشاءًا، وأسلمت وعادت[٢].



(١) ويقال: الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى بن رفاعة، من بني سعد بن بكر، من هوازن، وقيل: اسمها حذافة وغلب عليها اسم الشيماء.

(٢) «حسن الصحابة» (٢٩٠)، و«جمهرة الأنساب» (٢٥٣)، وذكرها أبو نعيم في الصحابة، و«الإصابة» كتاب النساء، الترجمة (٦٣٠)، كما في «الأعلام» للزركلي (٣/ ١٨٤).

وفاء النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَسُبُّوا أصحابي، لا تَسُبُّوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا**[١]**، ما أدرك مُدَّ**[٢] **أحدِهم ولا نَصيفَه**[٣]»[٤].

وفي هذا الحديث بيان أفضلية الصحابة عمن بعدهم؛ لأن معناه: لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أُحُدٍ ذهبًا من الفضل والأجر ما يناله أحدهم بإنفاق مُدِّ طعام أو نصيفِه، وسببُ التفاوت: عِظَمُ موقع النفقة لشدة الاحتياج إليها وقلة المعتني بها وبخاصة قبل فتح مكة، وكذلك سبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص وصدق النية[٥].



---

(١) زاد البرقاني من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش: «**كل يوم**» قال: «وهي زيادة حسنة»، كما في «الفتح» (٨/ ٣٦١).

(٢) **المُدّ:** مكيال قديم وهو ملء كفي الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومدَّ يده بهما، وهو ربع صاع.

(٣) **النَّصيف:** هو النصف، وقيل: مكيال دون المد.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٤٠).
وأخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: «فتح الباري» (٨/ ٣٦٢).

وفاؤه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصار



عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: مَرَّ أبو بكر والعباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بمجلسٍ من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يُبكيكم؟

قالوا: ذكرنا مجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منا[1]، فدخل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد عصب على رأسه حاشية برد، قال: فصَعِدَ المنبر -ولم يصعده بعد ذلك اليوم-، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أُوصيكُم بالأنصار؛ فإنهم كَرِشي وعَيْبَتي**[2]، **وقد قَضَوُا الذي عليهم، وبقيَ الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»[3].

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٢١): قوله: «ذكرنا مجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أي: الذي كانوا يجلسونه معه، وكان ذلك في مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخشوا أن يموت من مرضه فيفقدوا مجلسه؛ فبكوا حُزْنًا على فوات ذلك».

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٢١) في قوله: «**كرشي وعيبتي**»: «أي: بطانتي وخاصَّتي، قال القزاز: ضرب المثل بالكرش؛ لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون فيه نماؤه، ويقال: لفلان كرش منثورة، أي: عيال كثيرة.

والعَيْبة -بفتح المهملة، وسكون المثناة، بعدها موحدة-: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده، ويريد أنهم موضع سرِّه وأمانته.

قال ابن دُرَيْد: هذا من كلامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُوجز الذي لم يُسبَق إليه.

وقال غيره: الكرش بمنزلة المعدة للإنسان، والعَيبة مستودع الثياب، والأول أمرٌ باطن، والثاني أمرٌ ظاهر؛ فكأنه ضرب المثل بهما في إرادة اختصاصهم بأموره الباطنة والظاهرة. والأولُ أَولى، وكلٌّ من الأمرين مستودع لما يخفى فيه».

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٩٩).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأنصار كَرِشي وعَيْبَتي، والناس سيَكْثُرون، ويَقِلُّون، فاقبلوا من مُحْسِنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»[١].

أي: يَقِلُّ الأنصار، بينما يكثر غيرهم.

وعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول على المنبر للأنصار: «**ألَا إن الناس دِثاري**[٢]**، والأنصارَ شعاري**[٣]**، لو سلك الناس واديًا، وسَلَكَتِ الأنصار شعبة؛ لَاتَّبَعْتُ شعبة الأنصار، ولولا الهجرة لكنت رَجُلًا من الأنصار، فمَنْ وَلِيَ من الأنصار فليُحسِن إلى محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ومَن أفزعهم فقد أفزع هذا الذي بيْنَ هاتَيْنِ**» وأشار إلى نفْسِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:

لَمَّا أفاء الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حُنين قَسَمَ في الناس في المؤلَّفةِ قلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصار شيئًا، فكأنهم وجَدوا إذ لم يُصِبْهُم ما أصاب الناسَ، فخطبهم، فقال: «**يا معشر الأنصار، ألم أَجِدْكم ضُلالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي، وعالةً**[٥] **فأغناكم الله بي؟**».

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠١)، ومسلم (٢٥١٠).

(٢) **الدِّثار:** ثوب يلبس فوق آخر.

(٣) **الشِّعار:** الثوب المتصل بالبدن، والدِّثار فوقه. والمراد أن الأنصار هم الخاصة، والناس العامة.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٦١٥)، وقال محققوه: (٣٧/ ٣٠٣): «صحيح لغيره».

(٥) **عالة:** جمع عائل، وهو الفقير المحتاج الذي لا مال له.

كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ.

قال: «**ما يمنعكم أن تُجِيبوا رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟**».

قال: كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ.

قال: «**لو شئتُم قُلْتُم: جِئْتَنا كذا وكذا، ألَا تَرْضَوْنَ أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رِحالكم؟**

لولا الهجرةُ[(١)] **لكنتُ امْرأً من الأنصار**[(٢)]**، ولو سلك الناسُ واديًا وشِعْبًا لَسَلَكْتُ واديَ الأنصارِ وشِعْبَها، الأنصار شِعارٌ، والناس دِثارٌ، إنكم ستَلْقَوْنَ بعدي أثَرَةً، فاصبِروا حتَّى تَلْقَوْني على الحَوض**»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لما أَعْطى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعطى من تلك العطايا[(٤)] في قريشٍ وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنْفُسِهِم، حتى كَثُرَتْ فيهم القالة حتى قال قائلهم: لقي رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومَه[(٥)]، فدَخَلَ عليه سَعْدُ بنُ عُبَادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحيَّ قد قد وَجَدُوا عَليك في أَنْفُسِهم لما صَنَعْتَ في هذا الفيء الذي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل

---

(١) قوله: «**لولا الهجرة**» أي: لولا شرفها وجلالة قدرها عند الله.

(٢) قوله: «**لكنت امْرَأً من الأنصار**»، أي: لعددت نفسي واحدًا منهم؛ لكمال فضلهم وشرفهم بعد فضل الهجرة وشرفها، والمقصود الإخبار بما لهم من المزية بعد مزية الهجرة، وأنها مزية يرضى بها مثله، وإلا فالانتقال لا يتصور، سيما الانتساب بالنسب، فإنه حرام دينًا، والله تعالى أعلم، قاله السندي.

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٤) أي مما حصلت من غنائم حنين.

(٥) أي: فمال إليهم، وأعرض عنَّا.

العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِن ذَلِكَ**[١] **يا سَعْدُ؟**» قال: يا رسول الله ما أنا إلا امرؤٌ من قومي[٢]، وما أنا؟[٣] قال: «**فاجْمَعْ لي قَوْمَكَ في هَذِهِ الحَظيرةِ**»[٤]، قال: فخَرَجَ سَعْدٌ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة قال: فجاء رجالٌ من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فَرَدَّهُمْ، فلما اجتمعوا أتاه سَعْدٌ فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار قال: فأتاهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحَمِدَ الله، وأثنى عليه بالذي هو له أَهْل، ثم قال: «**يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، ما قالةٌ بَلَغَتْني عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُموهَا في أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ**[٥] **ضُلَّالًا**[٦] **فَهَداكُمُ الله؟ وعَالةً فأَغْناكُمُ الله؟ وأَعْدَاءً فَأَلَّفَ الله بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟**» قالوا: بَلِ اللهُ ورسولُه أَمَنُّ وأَفضل. قال: «**أَلا تُجِيبُونَني**[٧] **يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟**» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المنُّ والفَضْل. قال:

---

(١) «**فأين أنت من ذلك؟**» أي: مما عليه قومك.

(٢) «**امرؤ من قومي**»، أي: أوافقهم في ذلك.

(٣) «**وما أنا**» أي: منفردًا عنهم، ويحتمل أن المراد: فأين أنت من ذلك، أي: من أن ترد عليهم ذلك الرأي، وتبين لهم طريق الصواب، فأجاب بأني واحد منهم، فلا أقدر عليه.

(٤) «**في هذه الحظيرة**»: هي في الأصل موضع يحاط عليه لتأوي إليه الغنم والإبل، تقيها البرد والريح، ولعل المراد هاهنا الخيمة.

(٥) «**ألم آتكم**»، أي: جئتكم.

(٦) «**ضُلَّالًا**»: حال، و«**عالةً**»: فقراء.

(٧) «**ألا تجيبونني**»: يريد أن يُعَيِّن أنه ما نسي إحسانهم، وأن ما فعل من إيثار غيرهم بالأموال ليس مبنيًّا على النسيان.

«أَمَا واللهِ لَوْ شِئْتُمْ لقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ[(١)] وَصُدِّقْتُم[(٢)]، أَتَيْتَنا مُكَذَّبًا[(٣)] فَصَدَّقْنَاك، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا[(٤)] فآوَيناك، وَعَائلًا فآسَيْنَاكَ[(٥)]، أَوَجَدْتُمْ في أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ في لُعَاعَةٍ[(٦)] مِنَ الدُّنيَا، تَأَلَّفْتُ بها قَوْمًا لِيُسْلمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إلى إسْلَامِكُمْ؟ أَفَلا تَرْضَوْن يا مَعْشَرَ الأَنْصارِ أنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعِيرِ، وتَرْجِعونَ برسولِ الله ﷺ في رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه لَوْلا الهِجْرَةُ لكنتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ» قال: فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُم[(٧)]. وقالوا: رَضِينَا برسول الله قِسْمًا وَحَظًّا. ثُمَّ انصرف رسولُ الله ﷺ وتفرقوا[(٨)].



(١) «**فلصدقتم**»: على بناء الفاعل، من الصدق.

(٢) «**وصُدِّقْتُم**»: على بناء المفعول، من التصديق.

(٣) «**مكذبًا**»: اسم مفعول، وهو حال.

(٤) «**طريدًا**»: أي: مخرجًا من بلادك.

(٥) «**فآسيناك**»، أي: راعيناك بالمال.

(٦) «**في لعاعة**» بضم لام، وبمهملتين: الجرعة من الشراب، والمراد: الشيء اليسير، والقدر القليل. وقيل: اللُّعاعة: نبتٌ ناعم في أول ما ينبت، يعني أن الدنيا كالنبات الأخضر قليل البقاء.

(٧) «**أخضلوا**»: بَلُّوا.

(٨) رواه الإمام أحمد (١١٧٣٠)، وغيره، وقال محققو «المسند»: «إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرَّح بالتحديث هنا؛ فانتفت شبهة تدليسه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح» (١٨/ ٢٥٥).

وفاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصار يوم فتح مكة



عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أقبل رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدَخَلَ مكَّةَ، قال: فبَعَثَ الزُّبَير على إحْدَى المُجنِّبَتَينِ(١)، وبعثَ خالدًا على المُجَنِّبَةِ الأُخرى، وبعثَ أبَا عُبيدة على الحُسَّر(٢)، فأخَذُوا بطنَ الوادي(٣)، ورسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كَتيبَتِه. قال: وَقَد وَبَّشَتْ قُريشٌ أوبَاشَها(٤)، قال: فقالوا: نُقَدِّمُ هؤلاءِ، فإن كان لهم شيءٌ كنا مَعَهم، وإن أُصيبوا أُعطينا الذي سُئِلنا.

قال: فقال أبو هريرة: فنَظَرَ فرآني، فقال: «**يا أبا هُريرَةَ**» فقلتُ: لبيكَ رسولَ الله. قال: فقال: «**اهتِفْ لي بالأنصارِ، ولا يَأتِيني إلا أَنْصَارِي(٥)**» فهَتَفْتُ بهم، فجاءوا فأطافُوا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَرَوْنَ إلى أَوْبَاشِ قُرَيشٍ وأَتْبَاعِهم** -ثُم قال: بيديه إحداهُما على الأخرى- **احْصُدُوهم حَصْدًا، حتى تُوافُوني بالصَّفَا**».

---

(١) **المجَنِّبتان:** هما الميمنة والميسرة، ويكون القلب بينهما.

(٢) **الحُسَّر:** الذين لا دُروع عليهم.

(٣) أي: جعلوا طريقهم في بطن الوادي.

(٤) أي: جمعت جموعًا من قبائل شتى.

(٥) إنما خصَّهم لثقته بهم، ورفعًا لمراتبهم، وإظهارًا لجلالتهم وخصوصيتهم.

قال: فقال أبو هريرة: فانطلقنا، فما يشاء أحدٌ منا أن يَقْتُلَ منهم ما شاءَ، وما أَحَدٌ يُوجِّه إلينا منهم شيئًا. قال: فقال أبو سُفيانَ: يا رسولَ الله، أُبِيحَتْ خَضْراءُ قُرَيشٍ[(١)]، لا قُرَيشَ بعدَ اليوم. قال: فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أَغْلَقَ بابَه فهُو آمِنٌ، ومَن دَخَلَ دارَ أبي سُفيَانَ فهو آمِنٌ**» قال: فغلق الناسُ أبوابَهم.

قال: فأقبلَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحَجَر فاسْتَلَمه، ثم طافَ بالبيتِ، قال: وفي يده قَوسٌ، آخِذٌ بِسِيَةِ القَوسِ[(٢)]، قال: فأتى في طوافِهِ على صَنَم إلى جَنْبِ البيت يَعْبُدونَه، قال: فجعلَ يَطْعُنُ بها في عَيْنِه، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء:٨١].

قال: ثُمَّ أتى الصفا، فعَلَاهُ حيث يَنظُر إلى البيتِ، فرَفَعَ يَدَيْه، فجعل يَذْكُرُ الله بما شاءَ أن يذكرَه ويدعُوه، قال: والأنصارُ تحتَه، قال: يقول بَعْضُهم لبَعْضٍ: أما الرجلُ فأدرَكَتْه رغبةٌ في قَريتِه، ورَأفةٌ بعَشيرته[(٣)].

قال أبو هريرة: وجاءَ الوحيُ، وكان إذا جاءَ لم يَخْفَ علينا، فليسَ أحدٌ من الناس يَرْفَعُ طَرْفَه إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يَقْضِي، قال هاشم: فلما قضي الوَحْيُ رَفَعَ رَأسَه، ثم قال: «**يا مَعْشَر الأَنصار، أقُلتُم: أمَّا الرجلُ**

---

(١) أي: استؤصلت قريش بالقتل وأُفنيت، وخضراؤهم: جماعتهم، ويعبر عن الجماعة المجتمعة بالسواد والخضرة، ومنه: السواد الأعظم.

(٢) **السِّيَة**: المنعطف من طرفي القوس.

(٣) معناه: أنهم رأوا رأفة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهل مكة، وكف القتل عنهم، فظنوا أنه يرجع إلى سُكنى مكة، والمقام فيها دائمًا، ويرحل عنهم، ويهجر المدينة، فشق ذلك عليهم.

فأدْركتْه رغبةٌ في قَريتِه، ورأفةٌ بعَشِيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسولَ الله. قال: «**فما اسْمِي إذًا؟ كلَّا إني عبدُ الله ورسُولُه، هاجَرْتُ إلى الله وإليكم، فالمَحْيَا مَحْيَاكُم، والمماتُ مماتُكم**»[(١)] قال: فأَقْبَلُوا إليه يبكونَ ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضِّنَّ[(٢)] بالله ورسوله. قال: فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإنَّ اللّهَ ورسولَه يُصَدِّقانِكُم ويَعْذِرانِكُم**»[(٣)].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن امرأةً سوداءَ كانت تَقُمُّ -أي: تُنَظِّف- المسجدَ، أو شابًّا، ففقدها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأل عنها، أو عنه، فقالوا: مات، قال: «**أفلا كنتم آذنتموني؟**» قال: فكأنهم صَغَّروا أَمْرَها، أو أمرَه، فقال: «**دُلُّوني على قبره**»، فدَلُّوه، فصلَّى عليها، ثم قال: «**إنَّ هذه القبورَ مملوءةٌ ظُلْمةً على أهلِها، وإن الله عز وجل يُنَوِّرُها لهم بصلاتي عليهم**»[(٤)].



(١) معناه: أني هاجرت إلى الله، وإلى دياركم لاستيطانها، فلا أتركها، ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى، بل أنا ملازم لكم، «**المحيا محياكم**» فلا أحيا إلا عندكم، «**والمات مماتكم**» فلا أموت إلا عندكم.

(٢) **الضِّنَّ**: أي: شُحًّا بك أن تفارقنا، ويختصّ بك غيرُنا، وكان بكاؤهم فرحًا بما قال لهم.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٠٩٤٨)، ومسلم في «صحيحه» (١٧٨٠)، وغيرهما.

(٤) رواه البخاري (٤٦٠)، ومسلم (٩٥٦)، واللفظ له.

مواقف أخرى من وفاء سيد الأوفياء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاقُ بن يسار، عن أشياخ من بني سلمة: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم أُحُدٍ حين أمر بدفن القتلى: «**انظروا إلى عَمرِو بن الجَموح، وعبد الله بن عَمرِو بن حَرام؛ فإنهما كانا مُتَصافِيَيْنِ في الدُّنيا، فاجعَلوهما في قبرٍ واحد**»[١].

وبركت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راحلتُه، فقال الناس: «**حَلْ حَلْ**»[٢]، فألَحَّتْ[٣]، فقالوا: خَلَأَتِ القَصْواءُ[٤]، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما خَلَأَتِ القَصْواءُ، وما ذاك لها بخُلُقْ، ولكنْ حبَسَها حابسُ**[٥] **الفيلِ**»[٦].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٩٨).

(٢) **حَلْ حَلْ**: كلمة تقال للناقة إذا تركت السير، يقال: «حَلْحَلْتُ فلانًا»: إذا أزحْتَه عن موضعه.

(٣) **ألَحَّتْ**: تمادت على عدم القيام، وهو من الإلحاح.

(٤) الخلاء للإبل، والحِران للخيل. وخلأتِ الناقةُ: حرنت وبركت من غير علة، ولم تبرح مكانها. **والقَصْواء**: اسم ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٥) أي: حبسها الله عَزَّ وَجَلَّ عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها.

(٦) أخرجه البخاري (٢٧٣١) مطوَّلًا. ويُنظر: «فقه الإحسان إلى الحيوان» للمصنف (ص١٣٦، ١٣٧).

وعن عِمْرانَ بنِ الحُصَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:

سُبِيَتِ امرأةٌ من الأنصار، وكانت الناقةُ[١] قد أُصيبَتْ قَبْلَها، فكانت تكون فيهم، وكانوا يَجِيئون بالنَّعَمِ إليهم، فانفلتتْ ذاتَ ليلةٍ من الوَثاقِ، فأتَتِ الإبلَ، فجعلت كلَّما أتتْ بَعيرًا منها فمَسَّتْهُ رَغا، فتَتْرُكُه، حتى أتت تلك الناقةَ، فمَسَّتْها فلم تَرْغُ، وهي ناقةٌ هَدِرةٌ[٢]، فقعَدَتْ في عَجُزِها، ثم صاحت بها، فانطلقَتْ. فطُلِبَتْ من ليلتها، فلم يُقْدَرْ عليها، فجَعَلَتْ لله عليها إنِ اللهُ أَنْجاها عليها لَتَنْحَرَنَّها، فلمَّا قَدِمَتِ المدينةَ عَرَفوا الناقةَ، وقالوا: ناقةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: إنَّها قد جَعَلَتْ لله عليها لَتَنْحَرَنَّها، فقالوا: واللهِ لا تَنحَريها حتى نُؤْذِنَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَتَوْهُ فأخبروه أنَّ فُلانةَ قد جاءت على ناقتِكَ، وأنَّها قد جَعَلَتْ لله عليها إنْ أَنْجاها اللهُ عليها لَتَنْحَرَنَّها.

فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبحانَ اللهِ! بِئسَ ما جَزَتْها إنْ أَنْجاها اللهُ عليها لَتَنْحَرَنَّها! لا وَفاءَ لِنَذْرٍ في معصيةِ اللهِ، ولا وَفاءَ لِنَذْرٍ فيما لا يَملِكُ العبدُ**، -أو قال:- **ابنُ آدَمَ**»[٣].

---

(١) العضباء، وكانت تسمى (سابقة الحاجِّ)؛ فإنها كانت لا تُسبق، أو لا تكاد تُسبق، وكانت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) يقال: هَدَرَ البعيرُ: إذا صاحَ، ويُروى: كانت ناقةً مُنَوَّقةً، أي: مُذَلَّلةً مُرَوَّضةً، ويُروى: كانت مُجَرَّسةً، أي: مُجَرَّبةً في الركوب والسير.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٤١)، والشافعي في «المسند» (٢/ ١١٩-١٢١)، ومن طريقه البغوي في «شرح السنة» (١١/ ٨٣-٨٥/ رقم٢٧١٤) واللفظ له.

وعن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: ابتاع رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من رجلٍ من الأعراب جَزُورًا[١] -أو جَزائرَ- بوَسْقٍ من تمر الذُّخْرةِ، وتمرُ الذُّخرةِ: العجوةُ، فرجع به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى بيته والتَمَسَ له التمرَ فلم يجده، فخرج إليه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**يا عبدَ الله، إنَّا قد ابتَعْنا منك جُزورًا -أو جزائرَ- بوَسْقٍ من تمر الذُّخْرةِ، فالْتَمَسْناهُ فلمْ نَجِدْه**»، قال: فقال الأعرابي: وا غْدَراه!

قالت: فنهمَهُ[٢] الناسُ، وقالوا: قاتلَكَ الله، أيَغْدِرُ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟!

قالتْ: فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**دَعُوهُ؛ فإنَّ لِصاحِبِ الحقِّ مقالًا**».

ثم عاد له رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**يا عبدَ الله، إنَّا ابتَعْنا منك جَزائرَكَ ونحنُ نَظُنُّ أنَّ عندَنا ما سَمَّيْنا لك، فالْتَمَسْناهُ فلمْ نَجِدْه**».

فقال الأعرابيُّ: وا غَدْراه!

فنهمَه الناسُ، وقالوا: قاتلك الله، أيَغدِرُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟!

فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**دَعُوهُ؛ فإنَّ لِصاحِبِ الحقِّ مقالًا**».

فردَّد ذلك رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مرتين أو ثلاثًا، فلما رآه لا يَفْقَهُ عنه قال لرجُلٍ من أصحابه: «**اذهَبْ إلى خُوَيْلةَ بنتِ حكيمِ بنِ أُمَيَّةَ، فقُلْ لها: رسولُ الله**

---

(١) الجزور -بفتح الجيم- البعير ذكرًا كان أو أنثى، إلا أن اللفظة مؤنثة، والجمع جُزُر -بضمتين- وجزائر.

(٢) فنهمه الناس، أي: زجروه.

ﷺ **يقول لك: إن كان عندك وَسْقٌ من تمرٍ فأَسْلِفِيناهُ حتى نُؤَدِّيَهُ إليك إن شاء الله».**

فذهب إليها الرجلُ، ثم رجع الرجل فقال: قالت: نعم، هو عندي يا رسول الله، فابْعَثْ مَن يَقْبِضُه.

فقال رسول الله ﷺ للرَّجُل: «**اذهَبْ به، فأَوْفِهِ الَّذي له**».

فذهب به فأوفاهُ الَّذي له، فمَرَّ الأعرابيُّ برسول الله ﷺ وهو جالسٌ في أصحابه، فقال: جزاكَ اللهُ خيرًا؛ فقد أَوْفَيْتَ وأَطْيَبْتَ.

قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**أولئكَ خِيارُ عِبادِ اللهِ عِندَ اللهِ يومَ القيامةِ، المُوفُونَ المُطَيِّبُونَ**»[1].

وكان مُطْعِمُ بن عَدِيٍّ من أشراف الناس، وكان رسول الله ﷺ حين رجع من الطائف، ولقيَ من ثَقيفٍ مُنكرَ القولِ والفِعلِ، طلب جوار بعض رؤساء مكة، فأبَوْا، فأجاره مطعم بن عدي.

فلما كانت وقعة بدر بعد ذلك، ودارت الدائرة على قريش، وقُتِل نفرٌ من صناديدها، كان بين القتلى مُطعم بن عدي، وفيه يقول حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٦٣١٢)، وحسَّن إسنادَه محقِّقو «مسند أحمدَ» (٤٣/ ٣٣٩). وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (٢٦٧٧، ٢٨٤٨).

أيا عينُ فابكي سيدَ القومِ واسفَحي بدمعٍ وإن أنزفتِه فاسكبي الدَّما
وبَكّي عظيم المشعرين كليهما على الناس معروف له ما تكلَّما
فلو كان مجدٌ يُخْلِد الدَّهَر واحدًا من الناس أبقى مجدُهُ اليومَ مطعِما
أجرتَ رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لبّى مُلَبٍّ وأحرما
فلو سُئلتْ عنه مَعَد بأسرها وقحطانُ أو باقي بقية جُرهُما
لقالوا هو الموفي بجيرةِ جارِه وذمّته يومًا إذا ما تذمَّما
فما تطلع الشمسُ المنيرة فوقهم على مثله فيهم أعزَّ وأكرما
إباءً إذا يأبى وأكرم شيمة وأنومُ عن جارٍ إذا الليلُ أظلَمَا

ذلكم رثاء حسان لرجل من المشركين، مات يحارب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه، يستمع إليه صاحب الدعوة، ويسرُّه أن يرى المسلمين يرددونه وفاءً لإجارته رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا من الدهر.

وعن محمد بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في أسارى بدر: «**لو كان المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لَتَرَكْتُهم له**»[١]، وما ذاك إلا وفاءً لإحسانه، وعرفانًا بجميله.

وعن سُلَيمِ بن عامر -رجُل مِن حِمْيَرَ-، قال: كان بين معاوية وبين الروم عهدٌ، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجلٌ

(١) أخرجه البخاري (٣١٣٩، ٤٠٢٤).

على فَرَسٍ أو بِرْذَوْنٍ وهو يقول: «الله أكبرُ، الله أكبرُ، وفاءٌ لا غدرٌ»، فنظروا فإذا عمرو بن عَبَسَةَ، فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«من كان بينه وبين قومٍ عهدٌ فلا يَشُدَّ عُقْدَةً ولا يَحُلَّها حتَّى ينقضيَ أمَدُها أو يَنبِذَ إليهم على سَواءٍ»**(١)، فرجع معاوية(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، قال: **«مَن قَتَلَ مُعاهَدًا لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإن ريحها تُوجَدُ من مسيرة أربعين عامًا»**(٣).

وعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«لا حِلْف في الإسلام، وأيما حِلْف كان في الجاهلية لم يزده الإسلامُ إلا شدةً»**(٤).

(١) قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: «ومعنى قوله (**ينبذ إليهم على سواء**) أي: يعلمهم أنه يريد أن يغزوهم، وأن الصلح الذي كان بينهم قد ارتفع، فيكون الفريقان في ذلك على السواء» اهـ. من «معالم السنن» (٢/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٠١٥، ١٧٠٢٥، ١٩٤٣٦)، وأبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن الجارود في «المنتقى» (١٠٦٩)، وصحَّحه ابن حبان (٤٨٧١).

وقال الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٣٥٧)، وفي «صحيح أبي داود» رقم (٢٤٦٤): «إسناده صحيح، رجاله ثقات». وقال محققو «مسند أحمد» (٢٨/ ٢٣٠): «صحيح بشاهده».

(٣) يأتي تخريجه (ص٣٠٠).

(٤) رواه مسلم (٢٥٣٠)، وأبو داود (٢٩٢٥)، والإمام أحمد (١٦٧٦١).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أوفوا بحِلْف الجاهلية؛ فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا تُحْدِثوا حِلْفًا في الإسلام**» الحديث[(١)].

وعن عاصم قال: قلت لأنس بن مالك: أبلغك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا حِلْف في الإسلام؟**» فقال: قد حالف النبي[(٢)] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين قريش والأنصار في داري[(٣)].

ومعنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حِلْف في الإسلام**» النهي عن حلف الجاهلية الذي كان يشمل التوارث والنصرة مطلقًا سواء بحق أو بغير حق، أما التوارث فقد نسخه قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٥]، وكذا بآية المواريث.

وأما نصرة الحليف ولو كان ظالمًا، وأخذ الثأر من القبيلة بسبب قتل واحد منها؛ فقد أبطله الإسلام، وهذا هو الحِلْف المنفي في الحديث.

وقال بعض العلماء: إن معنى: «**لا حِلْف في الإسلام**» نفي وقوع الأحلاف بين المسلمين أنفسهم؛ حيث إن الإسلام أغناهم عنها، وألف بين قلوبهم،

(١) رواه الترمذي (١٥٨٥)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والإمام أحمد (٦٩٣٣)، وقال محققو «المسند»: «إسناده حسن».

(٢) أي آخى بينهم في أول الهجرة، وكانوا يتوارثون به، ثم نُسخ من ذلك الميراث، وبقي ما لم يبطله القرآن، وهو التعاون على الحق والنصر والأخذ على يد الظالم، وانظر: «فتح الباري» (٦/ ٧٨، ٧٩).

(٣) رواه البخاري (٦٠٨٣)، ومسلم (٢٥٢٩).

وجعلهم إخوة متعاضدين متناصرين بمنزلة الجسد الواحد، «**وهم يَدٌ على مَن سواهم**»، ومنع من كل ما ينافي التضامن العام داخل الأمة الواحدة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما المؤاخاةُ في الإسلام، والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين، والتعاوُن على البرِّ والتقوى وإقامة الحق؛ فهذا باقٍ لم يُنسَخ، وهذا معنى قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذه الأحاديث: «**وأيما حِلف كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شِدَّة**»، وأما قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا حِلفَ في الإسلام**»؛ فالمراد به: حِلْف التوارث، والحِلف على ما منع الشرع منه. والله أعلم» اهـ[(١)].

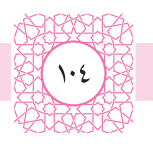
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وبالجملة فجميع ما يقع بين الناس من الشروط والعقود والمحالفات في الأُخوة وغيرها تُرَدُّ إلى كتاب الله وسُنة رسوله، فكلُّ شرط يُوافق الكتاب والسنة يُوَفَّى به، و(**من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فهو باطلٌ؛ وإن كان مائة شَرْطٍ**)[(٢)]»[(٣)].

وأخيرًا: فإن شيمة الوفاء بالدرجة التي اختُصَّ بها رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وسائرَ أخلاقه العَلِيَّة؛ هي -عند من يعقل- عَلَم من أعلام نبوته، وآية من

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، للنووي (١٦/ ٨٢).

(٢) وهذا الحديث عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ما بَالُ أقوام يشترطونَ شُرُوطًا ليستْ في كتاب الله، ما كان من شرطٍ ليس في كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ **فهو باطلٌ، وإنْ كان مائة شرط، كتابُ الله أحقُّ وشرطُ الله أوثقُ**» رواه البخاري (٢٧٣٥)، ومسلم (١٥٠٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٦٠)، وانظر: «فتح الباري» (١٠/ ٥٠٢).



آيات رسالَته تَصْدَع في العالمين بأن صاحب هذا الخُلُقِ العظيم لا يمكن إلا أن يكون -حقًّا وصِدقًا- نبيًّا مرسلًا من عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك قال هرقل لأبي سفيان: «وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر»[١].



(١) راجع (ص٦٧، ٦٨).

الموفـون بعهـد الله



تأسف أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثيرًا لأنه لم يكن شهد بدرًا الكبرى، ففاته بفواتها خير كثير، وأجر عظيم.

وما كان تخلفه عن خَوَرٍ أو نفاق، وإنما كان الظن أن لا قتال، وأن الخروج إنما هو لنيل العير، ولم يُلزِم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميع أصحابه بالمسير.

لقد عاهد أنس ربه قائلًا: «لئن أشهدني الله مشهدًا مع أعدائه ليرين الله ما أصنع».

وفي معركة أحد ولى المشركون الأدبارَ بعد أن صدق المسلمون، فصدقهم اللهُ وعدَه، فلما خالف المسلمون أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفرَّقوا وعادت المعركة حامية، ورجع أنس ليجد الموقف قد تغيَّر وتبدَّل، فنظر إلى صاحبه قائلًا: «يا سعد! إني أجد ريح الجنة دُون أُحد»، ثم نظر إلى المسلمين المنهزمين قائلًا: «اللهم إني أعتذر إليك مما فعل هؤلاء»، وانطلق تجاه العدو انطلاق النسر الجارح في هجمة الأسد الهصور تدفعه قوة الإيمان، وتتمثل أمام ناظريه حياة كريمة يريدها بعد مفارقة هذه الحياة، إنه يريد أن يفيَ لربه بعهده، ولقد رأى ربه، فقد وجده المسلمون بعد المعركة وكأن جسده قد غدا مزرعة للسيوف وللرماح والنبال، حتى أن الصحابة لم يستطيعوا التعرف عليه، فقد تغيَّرت ملامحه ولم تعرفه إلا أخته بعلامة كانت ببنانه (أصبعه)، وقال سعد وهو يروي

للرسول ﷺ ما كان من أنس: «فوالله يا رسول الله ما استطعت أن أصنع ما صنع أنس»[(١)].

وهذا الموقف من أنس رضي الله عنه يُذكِّرنا بموقف ذلك الأعرابي الذي آمن بالرسول وتبِعه، فلما أُعطِيَ نصيبَه من الغنيمة بعد إحدى المعارك، قال للرسول ﷺ: «ما هذا؟»، قال: «**نصيبك من الغنيمة**»، قال: ما تَبِعْتُكَ على هذا، وإنما تبعتُكَ على أن أُقاتل في سبيل الله فيُصيبني سهمٌ هاهنا (وأشار إلى حلقه) فأموت فأدخل الجنة. فقال الرسول ﷺ: «**إن تصدق الله يصدقك**».

وفي المعركة التالية جيء به وقد أُصيب بسهم في المكان الذي أشار إليه، فقال الرسول ﷺ: «**أهو هو؟**» قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه الله**»[(٢)].

وذلك الفتى الذي ترك الصلاة خلف معاذ عندما أطالها معاذ فاتَّهمه معاذ بالنفاق، فاشتكى الفتى للرسول، فقال الرسول لمعاذ: «**أفتَّان أنت يا معاذ؟**»، وقال للفتى: «**كيف تصنع يا بنَ أخي إذا صليت؟**»، قال: أقرأ بفاتحة الكتاب، وأسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، وإني لا أدري ما دندنتك ودندنة معاذ! فقال الرسول ﷺ: «**إني ومعاذ حول هاتين، أو نحو هذا**»، ثم قال الفتى: «ولكن سيعلم معاذ إذا قدم القوم» -يعني بهم الأعداء-، وكان المسلمون قد أخبروا بقرب قدومهم، فقدموا فاستشهد الفتى، فقال رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

(٢) أخرجه النسائي، وغيره، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» (١٩٥٢).

لمعاذ: «**ما فعل خصمي وخصمك؟**»، قال: يا رسول الله، صدق الله وكذبتُ (يعني نفسه) اسْتُشْهِدَ[(١)].

لقد كان الرعيلُ الأوَّلُ صادقينَ في إيمانهم وفي أقوالهم يصدرون عن عقيدة قوية، وعزيمة ماضية، ولو ذهبنا نتتبع هذا الصنف من الذين يقولون ويفعلون لرأينا المئات بل الآلاف من النماذج الرائعة، ولقد حققوا قول الله فيهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣][(٢)].



(١) أخرجه البخاري (٧٠١) مختصرًا، ومسلم (٤٦٥)، وأبو داود (٧٩٠)، والنسائي (٨٣٥)، وابن ماجه (٩٨٦)، وأحمد (١٤٣٠٧).

(٢) «مواقف ذات عِبر» للدكتور عمر الأشقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٩٣-٩٥).

وفـــاء الصحابـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

كل جهاد الصحابة وبَذْلِهم -رضوان الله عليهم- إنما هو وفاء لله ورسوله.

قال ربنا جل ثناؤه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

وقال جل وعز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠].

يقول الشاعر في وصف المحب لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

مَنْ يدَّعي حبَّ الرسولِ ولم يُفِدْ ... من هديه فسفاهةٌ وهُراءُ

الحبُّ أولُ شرطِهِ وفروضِهِ ... إن كان صِدقًا طاعةٌ ووفاءُ

من وفاء الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

لَمَّا وقعت الردة بعد انتقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرفيق الأعلى أشار كثير من الناس على أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ألا يُنفِذَ جيش أسامة الذي قرره رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسير إلى تخوم البلقاء من الشام، فامتنع الصِّدِّيقُ من ذلك، وأبى

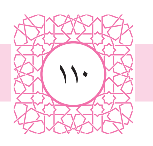
أشدَّ الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: «والله لا أَحُلُّ عقدةً عَقَدَها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو أن الطير تخطفتنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأُجَهِّزَنَّ جيش أسامة».

وطلبتِ الأنصارُ رجلًا أقدمَ سِنًّا من أسامة يتولى أمر الجيش، وأرسلوا عمر بن الخطاب لِيُحدِّثَ الصديقَ في ذلك، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فإن الأنصار تطلب رجلًا أقدم سنًّا من أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوثب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان جالسًا، وأخذ بلحية عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وعَدِمَتك يا بن الخطاب! استعمله رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتأمرني أن أنزعه»، فخرج عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الناس فقالوا: ما صنعتَ؟ فقال: «امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وعن أبي جُحيفَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبيض قد شاب، وكان الحسن بن عليٍّ يُشبِهه، وأمر لنا بثلاثةَ عَشَرَ قَلُوصًا، فذهبنا نقْبِضُها فأتانا موته فلم يُعطونا شيئًا، فلما قام أبو بكر قال: من كانت له عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِدَةٌ فليجئ، فقُمْتُ إليه فأخبرته، فأمر لنا بها».

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لي: **«لو قدْ جاءنا مالُ البحْرين قدْ أعطيتُكَ هكذا وهكذا وهكذا»**.

فلمَّا قُبض رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاءَ مالُ البحرين قال أبو بكرٍ: مَنْ كانت له عندَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِدَةٌ فليأتني، فأتيتُهُ فقلت: إن رسولَ الله



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كان قال لي: لو قد جاءنا مالُ البحرين لأعطيتُكَ هكذا وهكذا وهكذا. فقال لي: احْثُهُ، فحَثَوْتُ حَثْيَةً، فقال لي: عدَّها، فعددتُها، فإذا هي خمسُ مئةٍ، فأعطاني ألْفًا وخمسَ مئة[١].



(١) رواه بنحوه البخاري (٢٦٩٦)، (٣١٣٧)، ومسلم (٢٣١٤).

من وفاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ



وأوصى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند وفاته: «أُوصي الخليفةَ من بعدي بالمهاجرين الأولين خيرًا؛ أن يعرفَ لهم حقَّهُم، وأن يحفظ لهم حرْمَتَهُم.

وأُوصيه بالأنصار خيرًا، الذين تبوؤوا الدار والإيمان: أن يقبل من محسنهم، ويُعْفَى عن مُسيئهم.

وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يُوفَّى لهم بعهدهم، وأن يُقاتَل مِن ورائهم، وألا يُكَلَّفُوا فوق طاقتهم».

ورُوي أن عمر عمد إلى ميزابٍ للعباس على ممر الناس، فقلعه، فقال له العباس: أشهد أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي وضعه في مكانه.

فأقسم عمر: لَتَصعَدَنَّ على ظهري، ولتضعنه موضعه!



ويُروى عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه فرض لأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمس مئة، وفرض لعبد الله بن عمر في ثلاثة آلاف.

فقال عبد الله بن عمر لأبيه: لِمَ فضَّلْتَ أسامة عليَّ؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد.

قال: «لأن زيدًا كان أَحَبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وكان أسامة أَحَبَّ إلى رسول الله منك، فآثرتُ حب رسول الله ﷺ على حبِّي»[١].

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: (خرجتُ مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى السوق، فلَحِقَتْ عُمَرَ امرأةٌ شابةٌ فقالت: يا أمير المؤمنين[٢] هَلَكَ زوجي وتركَ صبية صِغارًا والله ما ينضجون كُراعًا[٣] ولا لهم زرعٌ ولا ضرعٌ[٤]، وخشيتُ أن تأكُلَهم الضَّبُعُ[٥]، وأنا بنتُ خُفَافِ بنِ إيماءَ الغِفَارِيِّ، وقد شهد أبي الحديبيةَ مع النبي ﷺ. فوقف معها عمر ولم يمضِ ثم قال: مرحبًا بنَسَبٍ قريبٍ[٦] ثم انصرفَ إلى بعير ظهيرٍ[٧] كان مربوطًا في الدار فحمل عليه غِرَارَتَيْنِ مَلأَهُمَا طعامًا، وحمَلَ بينهما نفقةً وثيابًا، ثم ناولها بخِطَامِهِ ثم قال: اقتاديه فلَنْ يَفْنَى حتى يأتيكُم الله بخيرٍ. فقال رجلٌ: يا أمير المؤمنين أكثرتَ

(١) رواه الترمذي (٣٨١٣) وحسَّنه، وابن حبان (٧٠٤٣)، وفي روايته أن ابن عمر قال: «إنما هجرتي وهجرة أسامة واحدة»، والحاكم في «المستدرك» (٦٣٦٧)، وعنده: «والله ما شهد أسامة مشهدًا غبتُ عنه، ولا شهد أبوه مشهدًا غاب عنه أبي».

(٢) زاد الدارقطني: «فقال من معه: دَعي أمير المؤمنين».

(٣) **الكُراع:** ما دون الكعب من الشاة، تعني أنه لا كراع لهم فينضجونه، أو أنهم لا يكفون أنفسهم معالجة ما يأكلونه.

(٤) **ليس لهم ضَرْع:** ليس لهم ما يحلبونه.

(٥) أي السَّنة المُجدِبة، وتأكلهم يعني تهلكهم.

(٦) لأن نسب غفار قريب من قريش؛ لأن كنانة تجمعهم، أو أراد أنها انتسبت إلى شخص واحد معروف.

(٧) أي قوي الظهر مُعَدٌّ للحاجة.

لها، قال عمر: ثكلَتْكَ أُمُّكَ[١]، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حَاصَرَا[٢] حِصنًا زمانًا فافْتَتَحَاهُ ثم أصبحنا نَستَفِيءُ[٣] سُهْمَانَنَا[٤] فِيه)[٥].

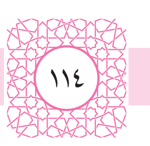
وعن أيوب بن عائذ الطائي، عن طارق بن شـهاب، قال: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة لـه، فنزل عنها وخلـع خفيه فوضعهما عـلى عاتقه، وأخذ بزمـام ناقته فخاض بهـا المخاضـة، فقال أبو عبيدة: يـا أمير المؤمنين، أنت تفعل هـذا؛ تخلع خفيك وتضعهـما على عاتقك، وتاخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك.

فقال عمر: «أَوَّهْ، لو يَقُلْ ذا غيرُك أبا عبيدة جعلته نكالًا لأمة محمد ﷺ!

إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[٦].

---

(١) كلمة تقولها العرب للإنكار، ولا تريد بها حقيقتها.
(٢) يحتمل أن يكون هذا في خيبر.
(٣) أي: نسترجع.
(٤) **سُهماننا:** أنصباؤنا من الغنيمة.
(٥) رواه البخاري (٤١٦٠).
(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٢٠٧).
وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٨٤٧، ٣٤٤٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٨) عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، قال: =



والشـاهد في قولـه: «لـو يقل ذا غيرك أبـا عبيدة»؛ إذ فيـه الوفاء لبذل أبي عبيدة ومكانته في الإسلام.

ولَمَّا أذِنت قريش لعثمان في الطواف بالبيت حين وجَّهه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم في القضية أبى، وقال:

«ما كنت لأفعلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».



= لما قدم عمر الشام أتته الجنود، وعليه إزار وخفان وعمامة، وأخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذا الحال!

فقال عمر: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نلتمس العز بغيره».

نزول أبي أيوب الأنصاري على ابن عباس وخدمته له



عن حبيب بن أبي ثابت أن أبا أيوب قَدِم على ابن عباس البصرة، ففرَّغ له بيته، وقال: لأصنعنَّ بك كما صنعتَ برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كم عليك؟ قال: عشرون ألفًا، فأعطاه أربعين ألفًا، وعشرين مملوكًا، ومتاع البيت».

وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يشير إلى ما فعله أبو أيوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، حيث نزل على أبي أيوب، فنزل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السفل، ونزل أبو أيوب العلو، فلما أمسى وبات، جعل أبو أيوب يذكر أنه على ظهر بيتٍ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسفل منه، وهو بينه وبين الوحي، فجعل أبو أيوب لا ينام؛ يحاذر أن يتناثر عليه الغبار، ويتحرك فيؤذيه، فلما أصبح غدا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، ما جعلت الليلة فيها غَمْضًا أنا ولا أم أيوب.

فقال: «**ومِمَّ ذاك يا أبا أيوب؟**».

قال: ذكرتُ أني على ظهر بيتٍ أنت أسفل مني، فأتحرك، فيتناثر عليك الغبار، ويؤذيك تحركي، وأنا بينك وبين الوحي... الحديثَ.

وعن أبي أيوبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لما نزل عليَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت: بأبي وأمي، إني أكره أن أكون فوقك، وتكون أسفل مني.

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أرفق بنا أن نكون في السُّفل؛ لما يغشانا من الناس**».

قال أبو أيوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فلقد رأيت جرَّة لنا انكسرت، فأهريق ماؤها، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا -ما لنا لحاف غيرها- ننشف بها الماء؛ فَرَقًا من أن يصل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منا شيءٌ يؤذيه... الحديثَ.

أدَبٌ كمِثلِ الماءِ لو أفرغتَهُ يومًا لسالَ كما يَسِيلُ الماءُ

وأخرج الرُّوياني، وابنُ عساكر عن حبيب بن أبي ثابت أن أبا أيوب أتى معاوية فشكا إليه أن عليه دَينًا، فلم يرَ منه ما يحبُّ ورأى ما يكرهه. فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنكم سترون بعدي أَثَرة**». قال: فأيُّ شيء قال لكم؟ قال: «**اصبروا**». قال: فاصبروا، فقال: والله لا أسألك شيئًا أبدًا. فقدم البصرة فنزل على ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ففرّغ له بيته وقال: لأصنعن بك كما صنعتَ برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر أهله فخرجوا، وقال: لك ما في البيت كلُّه وأعطاه أربعين ألفًا، وعشرين مملوكًا.

وأخرجه الطبراني أيضًا، كما في «المجمع» (٩/ ٣٢٣)، وفي حديثه: فأتى عبدَ الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بالبصرة، وقد أمَّره عليها عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: يا أبا أيوب، إني أريد أن أخرج لك عن مسكني كما خرجتَ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فأمر أهله فخرجوا، وأعطاه كل شيء أغلق عليه الدار. فلما كان انطلاقه قال: حاجتَك. قال: حاجتي عطائي وثمانية أعبد يعملون في أرضي، وكان عطاؤه أربعة آلاف فأضعفها له خمس مرات فأعطاه عشرين ألفًا، وأربعين عبدًا.

وفاء جرير لأنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا



عـن أنـس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجت مـع جرير بن عبـد الله البَجَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سـفر، فكان يخدمني، فقلت له: لا تفعل، فقال: «إني قد رأيت الأنصار تصنع برسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شـيئًا؛ آليتُ[١] أن لا أصحبَ أحدًا منهم إلا خدمتُه»، وكان جريرٌ أكبرَ من أنس[٢].

ومن وفاء أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

ما رواه هشام بن عروة عن أبيه قال: ذهبت أسُبُّ حسَّان[٣] عند عائشة، فقالت: «لا تَسُبَّهُ، فإنه كان يُنافِحُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٤].

وقال عروة: كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تكره أن يُسَبَّ عندها حسانُ، وتقول: إنه الذي قال:

فـإن أبـي ووالـــده وعِـرضـي لـعِـرْضِ محـمـدٍ منكم وِقـاءُ[٥]

---

(١) آليتُ: أقسمت.

(٢) رواه البخاري (٢٨٨٨) بلفظ: «**إلا أكرمْتُه**»، ومسلم (٢٥١٣)، واللفظ له.

(٣) وكان حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن تكلم بالإفك في حق عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأقيم عليه الحد، وتاب، وقد امتدحها في شعره بما هي أهل له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) رواه البخاري (٤١٤٥).

(٥) رواه البخاري (٤١٤١).

ودخل حسان على عائشة بعد ما عمي، فوضعت له وسادة، فدخل أخوها عبد الرحمن. فقال: أجلستيه على وسادة وقد قال ما قال؟! -يريد: مقالته نوبة الإفك-، فقالت: إنه -تعني: أنه كان يُجيب عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويشفي صدره من أعدائه- وقد عمي، وإني لأرجو ألا يُعَذَّبَ في الآخرة»[١].

وقال عبد الرحمن بن كعب بن مالك:

كنتُ قائد أبِي حين ذهَبَ بصرُه، فكنتُ إذا خرجت به إلى الجمعة فسمِع الأذان استغفر لأبي أُمامَةَ أَسْعَدَ بنِ زُرارةَ، ودعا له.

فمكثتُ حينًا أسمعُ ذلك منه، ثم قلتُ في نفسي: واللهِ إنَّ ذا لَعَجْزٌ؛ إنِّي أسمعُه كلما سمِع أذان الجمعة يستغفر لأبي أُمامةَ، ويُصلِّي عليه، ولا أسأله عن ذلك لِمَ هو؟!

فخرجت به كما كنت أخرج به إلى الجمعة، فلمَّا سمع الأذان استغفر كما كان يفعل، فقلتُ له:

يا أَبَتَاهُ، أرَأَيْتَكَ صلاتَكَ على أسعَدَ بنِ زُرارةَ كُلَّما سمِعتَ النداء بالجمعة، لِمَ هو؟

قال: أيْ بُنَيَّ، كان أوَّلَ مَن صلَّى بنا صلاةَ الجمعة قبْلَ مَقْدَمِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكَّةَ، في نَقِيعِ الخَضَماتِ[٢]، في هَزْمٍ[٣] مِن حَرَّةِ بَني بَياضةَ[٤].

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٤١٤٦، ٤٧٥٥، ٤٧٥٦).

(٢) موضع بنواحي المدينة. والنقيع: بطن من الأرض يُستنقع فيه الماء مدة، فإذا نضب أنبت الكَلأ.

(٣) **الهَزْم**: المطمئن من الأرض.

(٤) قرية على ميل من المدينة.

قلتُ: كمْ كنتُم يومَئذٍ؟

قال: أربعين رجُلًا»[(١)].

وعن كُرَيبٍ مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأى خاتَمًا من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه، وقال:

«**يَعْمِدُ أحدُكم إلى جمرةٍ من نارٍ، فيَجْعَلُها في يَدِه!**».

فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: خُذْ خاتمك انتفِعْ به.

قال: لا واللهِ، لا آخُذُه أبدًا وقد طرَحَه رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[(٢)].



(١) أخرجه ابن ماجه (١٠٨٢)، وأبو داود (١٠٦٩) مختصرًا، وابن خزيمة (١٧٢٤)، وابن حبان (٧٠١٣)، وحسَّنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٩٠).

فائدة: قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في شرح هذا الحديث:

«وأما قَوْلُ صاحب هذا الخاتَم حين قالوا له: خُذْهُ: (لا آخُذُهُ، وقد طرحه رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ) ففيه: المبالغة في امتثال أمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واجتناب نهيه، وعدم الترخُّص فيه بالتأويلات الضعيفة.

ثم إن هذا الرجل إنما ترك الخاتَمَ على سبيل الإباحة لمن أراد أخذه من الفقراء وغيرهم، وحينئذٍ يجوز أخذه لمن شاء، فإذا أخذه جاز تصرفه فيه. ولو كان صاحبه أخذه لم يحرم عليه الأخذ والتصرف فيه بالبيع وغيره، ولكن تورع عن أخذه وأراد الصدقة به على من يحتاج إليه، لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يَنْهَهُ عن التصرف فيه بكل وجهٍ، وإنما نهاه عن لُبسه، وبقي ما سواه من تصرفه على الإباحة» اهـ. من «منهاج المحدثين» (١٢/ ٧٧، ٧٨).

الوفاءُ لِلصَّحابةِ رضيَ اللّه عنهم أجمعينَ



قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال عزَّ وعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

من الوفاء للصحابة:

الاعتراف بفضائلهم وجهادهم، وأنهم سبب فضل الله علينا بالإسلام؛ سواء بحمل أمانة تبليغ الدين، أو الجهاد في سبيله -رضي الله عنهم أجمعين-.

«فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم»(١).

لقد بلغ من أمر تعظيم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن تَبِعَهم بإحسان، ووجوب صيانة تاريخ أكابر المسلمينَ إلى حَدِّ النص عليه في متون «الاعتقاد» التي لا تضم إلا أُمَّاتِ قضايا العقيدة المتفق عليها عند أهل السُّنة، بحيث لا يخالف فيها إلا شاذٌّ خارجٌ عن الجماعة مُفارِقٌ لها.

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في «عقيدته» المشهورة:

«ونحب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولا نُفرِطُ في حب أحد منهم، ونُبْغِضُ من يُبغِضُهم، وبغير الخير يذكرهم. ولا نذكرهم إلا بخير.

وحبُّهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»(٢).

---

(١) ينظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٧٤١) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) «بيان السنة والجماعة» للطحاوي (ص٤١، ٤٢) ط. دار الفتح الإسلامي، بالإسكندرية.

وقال أيضًا:

«ومَن أحسَنَ القولَ في أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرِّيَّاته المقدَّسين من كل رِجْسٍ؛ فقد برئ من النفاق.

وعلماء السلف من السابقين، ومَن بعدهم من التابعين -أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر- لا يُذْكرون إلا بالجميل، ومَن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل»(١).

قال شارحه رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

فيجب على كل مسلم -بعد موالاة الله ورسوله- موالاةُ المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصًا الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم؛ إذ كل أمة قبل مبعث محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علماؤها شرارها، إلا المسلمين؛ فإن علماءَهم خيارُهم؛ فإنهم خلفاء الرسول من أُمَّته، والمُحْيُون لِما مات من سُننه، فبهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا»(٢) اهـ.

(١) «المصدر نفسه» (ص٤٤، ٤٥).
(٢) ينظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٧٤٠، ٧٤١).

عن عمرو بن غالب: أن رجلًا نال من عائشة عند عمَّار، فقال: «اعزب مقبوحًا منبوحًا[١]، أتؤذي حبيبةَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!»[٢].

وقال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة تخلُّفه عن غزوة تبوك:

«... ولما بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبوك، ذكرني، وقال: (**ما فعل كعب؟**).

فقال رجل من قومي: خلَّفه يا نبي الله بُرْداهُ، والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ!

فقال معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِئسَ ما قُلْتَ! واللهِ ما نعلمُ إلَّا خيرًا»[٣].

إن هدم القِمَم طريقٌ مختصر لهدم الإسلام، وهذا ما يدأب فيه الرافضة -قبَّحهم الله، ونكَّس راياتهم- من الطعن في صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصويرهم -إلا خمسة منهم- في أشنع صورة وأقبحها، وكلما عظم بلاء الصحابي في رفع راية الإسلام ونصرته بالعلم والعمل والجهاد، عظم حَظُّه من تطاولهم وأحقادهم؛ كالخلفاء الثلاثة الراشدين، والمجاهدين الفاتحين الذين أطفؤوا نار المجوسية، وكسروا ظهر الكسروية؛ ليتوسلوا بذلك إلى الطعن في هاديهم ومعلمهم ومربيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

---

(١) **منبوحًا**: مشتومًا.

(٢) رواه ابن عساكر.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

ولقد فقه السلف هذه الحقيقة، وتنبهوا لمراميها البعيدة، فكشفوا عُوارَها، وهتكوا سِتْرَها:

- فعن مصعب بن عبد الله قال:

«حدَّثَني أَبِي عبدُ الله بن مصعب الزبيري، قال: قال لي أمير المؤمنين المهدي:

يا أبا بكر، ما تقول فيمن تنقَّص أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قال: قلتُ: زنادقة.

قال: ما سمِعت أحدًا قال هذا قبْلَك!

قال: قلت: هم قوم أرادوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنقص، فلم يجدوا أحدًا من الأمة يتابعهم على ذلك، فتنقصوا هؤلاء عند أبناء هؤلاء، وهؤلاء عند أبناء هؤلاء، فكأنهم قالوا: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصحبه صحابة السوء، وما أقبح الرجل أن يصحبه صحابة السوء!

فقال: ما أُراه إلا كما قلتَ».

- وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «إذا رأيت أحدًا يذكر أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسوء؛ فاتَّهِمْه على الإسلام».

- وقال الإمام أبو زُرْعَةَ الرازي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

«إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلم أنه زنديق؛ وذلك أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، والقرآن حق، وما



جاء به حق، وإنما أدَّى إلينا ذلك كلَّه الصحابةُ، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أَوْلى، وهم زنادقة».

فكل من أراد طعْنَ الإسلام طعَنَ في رموزه وحَمَلةِ شريعته، والذَّابِّينَ عن حوزته.



القصيدة الوضاحية
في مدح الصِّدِّيقة عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا



نشر هذه القصيدة عبد الله كَنُّونُ المغربي (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) وقال في مطلع نشرته: «هي قصيدة في مناقب أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اشتملت على ذكر فضائلها، وفضائل والدها أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومجادلة الخصوم المبغضين لها، المتقوِّلين عليها، ومُحاجَّتِهم بالدليل من الكتاب والسنة، في إيمانٍ صادقٍ، ودفاعٍ حارٍّ، وبالواقع التاريخي الذي لا نِزاع فيه من سيرتها العَطِرة، وسيرة أبيها الخليفة الأول، وكل ذلك بأسلوب بارع، وبيان رفيع، ونَظْمٍ محكم متين، ومما أبرَّ به[1] صاحبُ هذه القصيدة أنه جعلها على لسان السيدة عائشة نفسها، فبعد المطلع الذي يُؤْذِن بمقصوده، تخلَّص في البيت الثاني إلى إعطائها الكلمة، فجعلها هي التي تُناظِر، وتُفاخِر، وتدفع في نحور الأعداء بسلاح الحجة والبرهان الذي يُطوِّقُهُمُ الخزي والعار» اهـ.

قال الشيخ الإمام أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي (ابنُ بَهيج) (ت:٤٩٦هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مَـا شَـانُ أُمِّ الْمُؤْمِـنِـينَ وَشَـانِـي ... هُـدِيَ المُحِـبُّ لَهَـا، وَضَـلَّ الشَّانِي

(١) أبرَّ العمل: طلب به البر والتقرب إلى الله تعالى.

إنِّـي أَقُــولُ مُـبَـيِّـنًـا عَـنْ فَضْلِهَا ... وَمُـتَرْجِمًـا عَـنْ قَـوْلِهَـا بِلِسَانِي

يَا مُبْغِضِي، لَا تَأْتِ قَبْرَ «مُحَمَّدٍ» ... فَـالْبَـيـتُ بَـيْـتِي، وَالْمَـكَـانُ مَكَانِي

إنِّي خُصِصْتُ عَلَى نِسَاءِ «مُحَمَّدٍ» ... بِـصِـفَـاتِ بِـرٍّ تَحْـتَـهُـنَّ مَعَانِي

وَسَبَقْتُهُنَّ إلَى الفَضَائِلِ كُلِّهَا ... فَالسَّبْقُ سَبْقِي، وَالعِنَانُ عِنَانِي

مَـرِضَ الـنَّـبِيُّ، وَمَـاتَ بَـيْنَ تَرَائِبي ... فَـالـيَـوْمُ يَـوْمِـي، وَالـزَّمَـانُ زَمَانِي

زَوْجِـي رَسُـولُ اللهِ لَمْ أَرَ غَـيْرَهُ ... اللهُ زَوَّجَــنِي بِــهِ وَحَـبَـانِـي

وَأَتَـاهُ «جِـبْرِيـلُ» الأَمِـينُ بِصُورَتِي ... فَـأَحَـبَّـنِي الْمُـخْـتَـارُ حِـينَ رَآنِـي

أَنَـا بِـكْـرُهُ الْـعَـذْرَاءُ، عِـنْـدِي سِـرُّهُ ... وَضَـجِـيـعُـهُ فِـي مَـنْـزِلِي قَـمَـرَانِ

وَتَـكَـلَّـمَ اللهُ الـعَـظِـيـمُ بِحُـجَّـتِي ... وَبَــرَاءَتِــي فِـي مُحْـكَـمِ الـقُـرْآنِ

واللهُ خَـفَّـرَنِـي وَعَـظَّـمَ حُـرْمَـتِي ... وَعَـلَــى لِـسَــانِ نَـبِـيِّـهِ بَـرَّانِـي

واللهُ فِـي الـقُـرْآنِ قَـدْ لَـعَـنَ الَّذِي ... بَـعْـدَ الــبَـرَاءَةِ بِـالـقَـبِـيـحِ رَمَانِي

وَاللهُ وَبَّــخَ مَــنْ أَرَادَ تَـنَـقُّـصِي ... إفْـكًـا، وَسَـبَّـحَ نَـفْـسَـهُ فِي شَانِي

إِنِّــي لَـمُـحْـصَـنَـةُ الإِزَارِ بَرِيئَةٌ ... وَدَلِـيـلُ حُـسْـنِ طَـهَـارَتِـي إحْصَانِي

وَاللهُ أَحْـصَـنَـنِي بِـخَـاتَـمِ رُسْـلِـهِ ... وَأَذَلَّ أَهْــلَ الإِفْــكِ وَالـبُـهْـتَـانِ

وَسَمِعْتُ وَحْيَ اللهِ عِنْدَ «مُحَمَّدٍ» ... مِـنْ «جِـبْرَئِـيـلَ»، وَنُـورُهُ يَغْشَانِي

أَوْحَـى إلَـيْـهِ وَكُـنْـتُ تَحْـتَ ثِيَابِهِ ... فَـحَـنَـى عَـلَـيَّ بِـثَـوْبِـهِ خَبَّانِي

مَنْ ذَا يُفَاخِرُنِي وَيُنْكِرُ صُحْبَتِي ... وَ«مُحَـمَّـدٌ» فِـي حِـجْـرِهِ رَبَّانِي؟

وَأَخَـذْتُ عَنْ أَبَـوَيَّ دِيْـنَ «مُحَمَّدٍ» ... وَهُـمَـا عَلَى الإِسْـلَامِ مُصْطَحِبَانِ

وَأَبِـي أَقَـامَ الـدِّيـنَ بَـعْـدَ «مُحَمَّدٍ» ... فَالنَّصْلُ نَصْلِي، وَالسِّنَانُ سِنَانِي

وَالْفَخْرُ فَخْرِي، وَالخِلَافَةُ فِي أَبِي ... حَـسْـبِي بِـهَـذَا مَـفْـخَـرًا وَكَـفَانِي

وَأَنَا ابْنَةُ «الصِّدِّيقِ» صَاحِبِ «أَحْمَدٍ» وَحَبِيبِهِ فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ

نَصَرَ النَّبِيَّ بِمَالِهِ وَفِعَالِهِ وَخُرُوجِهِ مَعَهُ مِنَ الأَوْطَانِ

ثَانِيهِ فِي الغَارِ الَّذِي سَدَّ الْكُوَى بِرِدَائِهِ -أَكْرِمْ بِهِ مِنْ ثَانِ-

وَجَفَا الغِنَى حَتَّى تَخَلَّلَ بِالعَبَا زُهْدًا، وَأَذْعَنَ أَيَّمَا إِذْعَانِ

وَتَخَلَّلَتْ مَعَهُ مَلَائِكَةُ السَّمَا وَأَتَتْهُ بُشْرَى اللهِ بِالرِّضْوَانِ

وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَخْشَ لَوْمَةَ لَائِمٍ فِي قَتْلِ أَهْلِ البَغْيِ وَالعُدْوَانِ

قَتَلَ الأُلَى مَنَعُوا الزَّكَاةَ بِكُفْرِهِمْ وَأَذَلَّ أَهْلَ الكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ

سَبَقَ الصَّحَابَةَ وَالقَرَابَةَ لِلْهُدَى هُوَ شَيْخُهُمْ فِي الْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

وَاللهِ مَا اسْتَبَقُوا لِنَيْلِ فَضِيلَةٍ مِثْلَ اسْتِبَاقِ الخَيْلِ يَوْمَ رِهَانِ

إِلَّا وَطَارَ أَبِي إِلَى عَلْيَائِهَا فَمَكَانُهُ مِنْهَا أَجَلُّ مَكَانِ

وَيْلٌ لِعَبْدٍ خَانَ آلَ «مُحَمَّدٍ» بِعَدَاوَةِ الأَزْوَاجِ وَالأَخْتَانِ

طُوبَى لِمَنْ وَالَى جَمَاعَةَ صَحْبِهِ وَيَكُونُ مِنْ أَحْبَابِهِ الحَسَنَانِ

بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالقَرَابَةِ أُلْفَةٌ لَا تَسْتَحِيلُ بِنَزْغَةِ الشَّيْطَانِ

هُمْ كَالأَصَابِعِ فِي اليَدَيْنِ تَوَاصُلًا هَلْ يَسْتَوِي كَفٌّ بِغَيْرِ بَنَانِ؟!

حَصِرَتْ صُدُورُ الكَافِرِينَ بِوَالِدِي وَقُلُوبُهُمْ مُلِئَتْ مِنَ الأَضْغَانِ

حُبُّ البَتُولِ وَبَعْلِهَا لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْ مِلَّةِ الإِسْلَامِ فِيهِ اثْنَانِ

أَكْرِمْ بِأَرْبَعَةٍ أَئِمَّةِ شَرْعِنَا فَهُمُ لِبَيْتِ الدِّينِ كَالأَرْكَانِ

نُسِجَتْ مَوَدَّتُهُمْ سَدًى فِي لُحْمَةٍ فَبِنَاؤُهَا مِنْ أَثْبَتِ البُنْيَانِ

اللهُ أَلَّــفَ بَــيْنَ وُدِّ قُـلُـوبِـهِـمْ ... لِـيَـغِـيـظَ كُـلَّ مُـنَـافِـقٍ طَـعَّـانِ

رُحَمَـاءُ بَيْنَهُـمُ صَفَتْ أَخْلَاقُهُمْ ... وَخَـلَـتْ قُـلُـوبُـهُـمُ مِـنَ الشَّنَآنِ

فَـدُخُـولُهُـمْ بَـيْنَ الأَحِـبَّـةِ كُلْفَةٌ ... وَسِبَـابُـهُـمْ سَـبَـبٌ إِلَى الحِـرْمَـانِ

جَمَـعَ الإِلَـهُ المُسْلِمِينَ عَلَى أَبِي ... وَاسْـتَـبْـدَلُوا مِـنْ خَـوْفِـهِمْ بِأَمَانِ

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نُـصْـرَةَ عَـبْـدِهِ ... مَـنْ ذَا يُطِيقُ لَـهُ عَلَى خِـذْلَانِ؟!

مَـنْ حَبَّنِي؛ فَلْيَجْتَنِبْ مَـنْ سَبَّنِي ... إِنْ كَـانَ صَـانَ مَحَـبَّـتِي وَرَعَانِي

وَإِذَا مُحِـبِّي قَـدْ أَلَـظَّ بِمُبْغِضِي ... فَكِلَاهُـمَـا فِـي البُغْضِ مُسْتَوِيَانِ

إِنِّــي لَـطَـيِّـبَـةٌ خُـلِـقْـتُ لِطَيِّبٍ ... وَنِـسَـاءُ أَحْـمَـدَ أَطْـيَـبُ النِّسْوَانِ

إِنِّــي لَأُمُّ المُـؤْمِـنِـينَ فَـمَـنْ أَبَـى ... حُـبِّي؛ فَـسَـوفَ يَـبُـوءُ بِالخُسْرَانِ

اللهُ حَـبَّـبَـنِي لِـقَـلْـبِ نَـبِـيِّـهِ ... وَإِلَى الـصِّـرَاطِ المُسْتَقِيمِ هَدَانِي

وَاللهُ يُـكْـرِمُ مَـنْ أَرَادَ كَـرَامَـتِي ... وَيُـهِـيـنُ رَبِّــي مَـنْ أَرَادَ هَـوَانِـي

وَاللهَ أَسْـأَلُـهُ زِيَـادَةَ فَـضْـلِـهِ ... وَحَـمِـدْتُـهُ شُـكْـرًا لِمَـا أَوْلَانِـي

يَا مَـنْ يَلُوذُ بِأَهْلِ بَيْتِ «مُحَمَّدٍ» ... يَـرْجُـو بِـذَلِـكَ رَحْـمَـةَ الـرَّحْمَـنِ

صِـلْ أُمَّـهَـاتِ المُؤْمِـنِـينَ، وَلَا تَحِدْ ... عَـنَّـا؛ فَـتُـسْـلَـبَ حُـلَّـةَ الإِيمَـانِ

إِنِّــي لَـصَـادِقَـةُ المَـقَـالِ كَـرِيمَـةٌ ... إِيْ، وَالَّـــذِي ذَلَّـتْ لَـهُ الثَّقَلَانِ

خُـذْهَـا إِلَـيْـكَ؛ فَإِنَّمَـا هِـيَ رَوْضَـةٌ ... مَـحْـفُـوفَـةٌ بِـالـرَّوْحِ وَالـرَّيْحَـانِ

صَـلَّـى الإِلَـهُ عَـلَـى الـنَّـبِيِّ وَآلِـهِ ... فَـبِـهِـمْ تُـشَـمُّ أَزَاهِـرُ البُسْتَانِ

الحيوان أوفى من الرافضة:

عن ابن الْمُنْكَدِرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَنَّ سَفِينَةَ مولى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخطأ الجيش بأرض الروم، أو أُسِرَ في أرض الروم، فانطلق هاربًا يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد، فقال: أبا الحارث[(١)]، إنيِّ مولى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كان من أمري كَيْتَ وكَيْتَ.

فأقبل الأسد له بَصْبَصةٌ[(٢)] حتى قام إلى جنبه، كلما سمع صوتًا أهوى إليه، ثم أقبل يمشي إلى جنبه، حتى بلغ الجيش، ثم رجع الأسد»[(٣)].



---

(١) هذه كنية الأسد.

(٢) يقال: بَصْبَصَ؛ إذا حرَّك ذَنَبه.

(٣) أخرجه مَعْمَرُ بن راشد في «الجامع» (٢٠٥٤٤- ملحق آخر مصنف عبد الرزاق)، ومن طريقه البغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٣١٣) حديث رقْم: (٣٧٣٢). وصححه الألباني في تحقيق «مشكاة المصابيح» (٥٩٤٩). وقال محقِّقا «شرح السنة»: «رجاله ثقات، إلا أن ابن المنكدر لم يثبت سماعه من سفينة».
وأخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٦٥٥٠) عن محمد بن المنكدر: أن سفينة مولى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «ركبت البحر، فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركِبت لوحًا من ألواحها، فطرحني اللوح في أَجَمَةٍ فيها الأسد، فأقبل إليَّ يريدني، فقلت: يا أبا الحارث، أنا مولى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.
فطأطأ رأسه، وأقبل إليَّ فدفعني بمَنْكِبِه حتى أخرجني من الأَجَمَة، ووضعني على الطريق، وهَمْهَمَ، فظننت أنه يودِّعني، فكان ذلك آخر عهدي به».
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

الوفاء للقادة الفاتحين
دَين في أعناق أهل البلاد المفتوحة



إن مِنَّةَ القادة الذين نشروا نور الإسلام من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومَن بعدهم لتستلزم الوفاء لهم، وذكرهم بالخير، أو كف الأذى عنهم على أضعف الإيمان، وإن لهم أجر من عمل صالحًا من أهل هذه البلدة؛ إذ كانوا سببًا في إسلامهم، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ حُسْنَ العهدِ مِنَ الإيمانِ**»(١).

فالوفاء ورعاية الحرمة من أخلاق أهل الإيمان، ومن خصائلهم، ومِن شُعَب الإيمان.

ويكفي الموفيَ بالعهد مدحًا وشرفًا قولُ مَن عَلَتْ كلمتُه سبحانه: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ [البقرة:١٧٧].

وقد تضافرت على حُسنِ العهد مع الإخوان والخلان أهلُ المِلَلِ والنِّحَلِ(٢).



(١) تقدم تخريجه (ص٨١).
(٢) ينظر: «فيض القدير» للمُناوي (٢/ ٤٤٧).

الوفاء للوالدين

وهو بحث يطول، ولكن نقتصر هنا على ذكر قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٥].

ففي قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ تجسيد للوفاء لهما الذي يستدعي الترحُّم عليهما.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **لَيَرْفَعُ الدرجةَ للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا ربِّ، أنَّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدِك لك**»(٢).

---

(١) انظر تخريجه (ص٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٣٦)، والإمام أحمد (١٠٦١٠)، وابن ماجه (٣٦٦٠).
وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه» (٤/ ٩٨): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».
وحسَّنَ إسنادَه: الألباني في «الصحيحة» (١٥٩٨)، ومحققو «مسند أحمد» (١٦/ ٣٥٧).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن امرأة من جُهَيْنَةَ جاءت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: إن أمي نذَرَتْ أن تَحُجَّ، فلمْ تَحُجَّ حتى ماتت، أفَأَحُجُّ عنها؟

قال: «**نعَمْ، حُجِّي عنها، أرأيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ أكُنْتِ قاضِيَتَه؟ اقْضُوا الله؛ فاللّهُ أحَقُّ بالوفاءِ**»[١].

ومن صور الوفاء الصادق للوالد أن يرعاه الولد ويقوم بحقِّه إذا أصابته أمراض الشيخوخة، واعتراه الوَهَن، لاسيما أمراض الخرف العقلي مثل (ألزهايمر) الذي يفقد فيه المسن ذاكرته، ولا يتعرف حتى على أولاده، وهنا يبرز الوفاء الحقيقي ابتغاء وجه الله وعرفانًا بجميل هذا الوالد إبان عافيته وصحته.



(١) أخرجه البخاري (١٨٥٢، ٧٣١٥).

مِنَ الوفاءِ
دعاءُ العُلماءِ بعضِهم لبعضٍ



- عـن أم الـدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كان لأبي الدرداء سـتون وثلاث مئة خليل في الله، يدعو لهم في الصلاة، فقلت له في ذلك، فقال:

إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب، إلَّا وكَّل الله به مَلَكَينِ يقولان: (ولك بمِثْلٍ)، أفلا أرغب أن تدعو لي الملائكة؟!».

- وقال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد إجلالًا له، وكان بين داري وداره سبعُ سِككٍ، وما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرتُ له مع والديَّ، وإني لأستغفر لمن تعلمتُ منه أو علَّمني علمًا».

- وقال أبو يوسفَ تلميذُ أبي حنيفةَ:

«إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبوَيَّ، ولقد سمعت أبا حنيفة يقول: إني لأدعو لحمادٍ مع أبوَيَّ».

- وقال ابن راهَوَيْهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قَلَّ ليلةٌ إلا وأنا أدعو فيها لمن كتب عنَّا، ولمن كتبنا عنه».

- وقال الحارث بن سُرَيج: سمعت يحيى القطان يقول:
«أنا أدعو الله للشافعي، أخصُّه به».

- وقال الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
«ما بِتُّ منذ ثلاثين سنةً إلا وأنا أدعو للشافعي، وأستغفر له».

- وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي:
أيَّ رجُلٍ كان الشافعي؛ فإني سمعتك تُكثر من الدعاء له؟

فقال: «يا بني، كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين مِن خَلَف، أو عنهما من عِوض؟!».

- وكان الإمام أحمد يقول:
«إذا ذُكِرَ الحديثُ فمالك بن أنس هو النَّجم. وسفيانُ الثَّوريُّ جمع الحالين: العلم والزهد. وسفيان بن عُيَيْنَة حَفِظ على الناس ما لولاه لضاع. **والشافعي من أحباب قلبي**»[(١)].

- وقال المرُّوذي: قَدِمَ رجُلٌ مِن طَرَسوسَ، فقال: كنَّا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل، رفعوا أصواتهم بالدعاء: «ادعوا لأبي عبد الله»، يعني: الإمامَ أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- وسأل رجُلٌ الإمامَ أحمد، فقال:
بالرَّيِّ -مدينة بالمشرق- شابٌّ يقال له: أبو زُرْعَةَ.

---

(١) «العقيدة» رواية أبي بكر الخلال (ص١٢٧).

فغَضِبَ أحمدُ، وقال: «تقول: شابٌّ؟!» كالمنكِرِ عليه، ثم رفع يديه، وجعل يدعو الله عَزَّوَجَلَّ لأبي زُرْعةَ، ويقول: «اللهم انصره على مَن بغى عليه، اللهم عافِه، اللهم ادفع عنه البلاء، اللهم... اللهم...» في دعاء كثير.

- وقال عبد الله بن أحمد:

«رُبَّما سمِعتُ أبي في السَّحَرِ يدعو لأقوام بأسمائهم».

- وقال ابن أبي حاتم:

رأيت في كتاب عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني -المعروف بِرُسْتَه- إلى أبي زُرْعةَ بخطه:

«اعلَمْ -رحمك الله- أنِّي ما أكاد أنساك في الدعاء لك ليلي ونهاري: أن يُمَتِّعَ المسلمين بطول بقائك؛ فإنه لا يزال الناس بخير ما بقيَ مَن يعرف العلم، وحقَّه من باطله، وقد جعلك الله منهم».

- وهذا أبو حَمْدونَ الطيب بن إسماعيل -أحد القرَّاء المشهورين- رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كانت له صحيفةٌ فيها مكتوب ثلاث مئة من أصدقائه، وكان يدعو لهم كل ليلة، فتركهم ليلة فنام، فقيل له في نومه:

«يا أبا حمدون، لِمَ لَمْ تُسرِجْ مصابيحَك الليلة؟!».

فقعد فأسرج، وأخذ الصحيفة، فدعا لواحدٍ واحد حتى فرغ[1].

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٩٥) ط. دار الغرب الإسلامي، وانظر: «طاقة ورد» للمؤلف (ص١٤٤-١٤٦).

مِنَ الوفاءِ
التَّنْويهُ بفضل مَن سبَقَ



- مِن صُوَرِ الوفاء في العلم:

التنويـه بفضـل مَن سـبقك إلى البحـث في موضـوعٍ صنَّفتَ فيـه؛ كقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حق شيخه يحيى بن مُعطي و«أَلْفِيَّته»:

قـال محـمـدٌ هـو ابـنُ مـالـكِ	أحمـدُ ربِّـيَ اللَّهَ خـيرَ مـالـكِ
مُصَلِّيًا على النبي المصطفى	وآلــه المستكملين الشَّـرفا
وأستعين الله في أَلْفِيَّهْ	مقاصدُ النَّحوِ بها مَحْوِيَّه
تُقَرِّبُ الأقصى بلفظٍ موجَزِ	وتَبسُطُ البَذْلَ بوعدٍ مُنْجَزِ
وتَقتَضي رِضًا بغيرِ سُخْطِ	فائقةً أَلْفِيَّةَ ابنِ مُعْطِي
وهْوَ بِسَبْقٍ حائزٌ تفضيلا	مُسْتَوْجِبٌ ثَنائِيَ الجَميلا
واللهُ يقضي بِهِبَاتٍ وافِرَهْ	لِي ولَهُ في دَرجاتِ الآخِرَهْ

وابنُ معطي الزواوي المغربي: تصدَّر لتدريس العلوم العربية بجامع عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى أن تُوُفِّيَ في ذي القَعدة ٦٢٨ هـ، ودُفِن بقرب الإمام الشافعي، وله ألفية مشهورة في النحو، ويُعتبر ابنُ مالك من تلاميذه؛ ولهذا نَوَّهَ بفضله، وإن كان ذكر أن ألفيَّته تفوق ألفية ابن معطي؛ لأنها استوعبت أحكامًا ومسائلَ أكثرَ.

وابن معطي رائد في نسق لم يُسبق إليه؛ إذ هو أول من نظم ألفيَّة في النحو، وقد كتب «الدرة الألفية» ولم يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره، قالوا: «نظمُ ابن مالك أجمَعُ وأوعب، ونظم ابن معطي أسلس وأعذب».



الوفاء للخصوم



• تكلَّمَ الإمام المحقق ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ حول درجة «الفتوة»، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومن أراد فَهْمَ هذه الدرجة كما ينبغي؛ فلينظر إلى سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الناس يجدها هذه بعينها، ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سِواه، ثم للورثة منها بحسَبِ سهامهم من التركة.

وما رأيت أحدًا قطُّ أجمَعَ لهذه الخِصال من شيخ الإسلام ابنِ تيميَّةَ قدَّس الله رُوحه.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: (وَدِدْتُ أنِّي لأصحابي، مثلُه لأعدائه وخصومه)!

وما رأيته يدعو على أحد منهم قطُّ، وكان يدعو لهم.

وجئتُ يومًا مبشِّرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدِّهم عداوةً وأذًى له، فنهرني، وتنكَّر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم، وقال:

(إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه)، ونحو هذا الكلام، فسُرُّوا به، ودَعَوْا له، وعَظَّموا هذه الحال منه، فرحمه الله، ورضيَ عنه» اهـ.

• واستفتى السلطان محمد بن الملك المنصور قلاوون شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا به في حق شيخ الإسلام، وأخرج السلطان من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله.

قال شيخ الإسلام: «ففهِمتُ مقصوده؛ أن عنده حَنَقًا شديدًا عليهم لما خلعوه، وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فشرعت في مدحهم، والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أمَّا أنا فهُمْ في حِلٍّ من حقي ومن جهتي، وسكَّنتُ ما عنده عليهم».

قال: فكان القاضي زين الدين بن مخلوف -قاضي المالكية- يقول بعد ذلك:

«ما رأينا أتقى من ابن تيميَّةَ؛ لم نُبقِ ممكنًا في السعي فيه، ولَمَّا قدر علينا عفا عنَّا».

• وعن عبيد الله بن عبد الكريم، قال:

كان محمد بن داود خصمًا لأبي العباس بن سُرَيج القاضي، وكانا يتناظران، ويترادَّان في الكتب، فلما بلغ ابنَ سُرَيجٍ موتُ محمد بن داود نحَّى مخاده، ومشاوره، وجلس للتعزية، وقال: «ما آسى إلا على تراب أكل لسان محمد بن داود».

ونظرة إلى مراثي الأئمة في إخوانهم من العلماء تعكس صدق هذه المشاعر الحارة.

وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].



وفاء طالب العلم لشيخه

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»[1].

إن من أعظم صور الوفاء: الوفاءَ للعلماء، بتقديرهم والدعاء لهم والتأدب معهم.

ومما يُذكر في ذلك أن أبا البركات لَمَّا عزم على الرحلة من بلاد المغرب إلى الشرق بعد أن ضاق عليه الرزق، كتب إليه ابن خاتمة أحدُ شعراء تلمسان أبياتًا، يقول فيها:

أشَمْسَ الغربِ حقًّا ما سمِعْنا ... بأنك قد سَئِمْتَ من الإقامهْ
وأنك قد عزمت على طلوع ... إلى شرق سموت به علامَهْ
لقد زلزلتَ منَّا كلَّ قلب ... بحق الله لا تُقِمِ القيامَهْ

فقال أبو البركات: «لا أرحل من إقليم فيه من يقول مثل هذا».

ونفثة السِّحْرِ والتأثير في هذا أنه هيَّأ لمراده بقوله: «أشمسَ الغرب»، ثم ختم بقوله: «لا تُقم القيامه»؛ إشارةً إلى أن طلوع الشمس من مغربها من

(١) رواه الإمام أحمد (٥٣٦٥)، وأبو داود (١٦٧٢، ٥١٠٩)، والنسائي (٢٥٦٧)، وصححه الألباني.

علامات قيام الساعة، وأن طلوع هذا العالِم من بلاد المغرب قيامةٌ لقلوب محبِّيه؛ ولهذا ثناه عن رحيله، فمكث أبو البركات في بلده.

• وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الحر من راعى وِدادَ لحظة، وانتمى لمن أفاده لفظة».

صحبةُ يومٍ نسبٌ قريب وذمة يعرفها اللبيب

• وكان محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

«لا يبلغ العبد مقام الإحسان حتى يُحْسِنَ إلى كل مَن صحبه ولو ساعة».

• وقال بعض العلماء: «قبيح بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا فلا تترحموا علينا».

• وقال أيوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إني أُخبَرُ بموت الرجل من أهل السُّنة، فكأني أفقِدُ بعض أعضائي».

• وأخرج اللَّالَكائيُّ أن حماد بن زيد قال:

«كان أيوب يبلغه موتُ الفتى من أصحاب الحديث فيُرى ذلك فيه، ويبلغه موت الرجل يُذكر بعبادة فما يُرى ذلك فيه».

• وقال أيوب:

«إن الذين يَتَمَنَّوْنَ موت أهل السُّنة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون».

• وقال يحيى بن جعفر:

«لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل -أي: البخاري- من عمري لفعلت؛ فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموته ذَهابُ العلم».

• وقال أبو بكر بن كامل: حضرت أبا جعفر الطبريَّ حين حضرته الوفاةُ، فسألته أن يَجعل كلَّ من عاداه في حِلّ، وكنتُ سألتُه ذلك لأجل أبي عليّ الحسن ابن الحُسين الصوَّاف؛ لأني كنتُ قرأتُ عليه القرآن، فقال: «كلُّ من عاداني وتكلَّم فيَّ في حِلّ، إلا رجلًا رماني ببدعة».

• وخرج عطاء بن أبي سعدٍ الهَرَويُّ مع الوزير نِظام المُلكِ ماشيًا إلى الروم، فما ركِب، وكان يخوض الأنهار مع الخيل، ويقول: «شيخي في المحنة[١]، فلا أستريح».

• وقال الشيخ محمد بن موسى الموسى مدير مكتب منزل سماحة الإمام المجدد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ١٤٢٠هـ):

في عام ١٤١٠هـ قدم على سماحة الشيخ وهو في الطائف رجل مسلم من بلجيكا وهو مغربي الأصل، فلما مَثُلَ أمام سماحته قال:

يا سماحة الشيخ أنا فلان، من محبيك، وقد جئتك مهديًا لك إحدى عينيَّ[٢]، ولقد سألت طبيبًا مختصًّا فقال لي: لا مانع، وسوف أذهب إلى المستشفى وإلى الطبيب المختص لنزعها وإهدائها لك.

(١) يعني: شيخ الإسلام أبا إسماعيل الأنصاري. يُنظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٥٤-٥٦).

(٢) كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبصرًا بقلبه.

فقال له سماحة الشيخ: «يا أخي بارك الله لك في عينيك، ونفعك بهما، نحن راضون بما كتب الله لنا».

وفي عام ١٤١٨هـ رأيت رجلًا من السودان يتجول بين المكاتب في دار الإفتاء في الرياض، وهو يقول: لم أجد من يتجاوب معي، ولا من يُدخِلني على سماحة الشيخ، فقلت له: وماذا تريد من سماحته؟

فقال: أنا أتيت إلى سماحته مهديًا إليه إحدى عينيَّ، أدخلوني على سماحته؛ فأخذت بيده، وأدخلته عليه، فلما رآه وسلم عليه قال: يا سماحة الشيخ! أنا من بلاد السودان، جئت إليك مهديًا إحدى عيني، فتفضل بقَبولها، وخذ إحداهما.

فشكر له سماحة الشيخ صنيعه، ومحبته، وقال: «بارك الله لك في عينيك، نحن راضون بما كتبه الله لنا»[(١)].

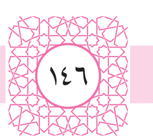
الله أعطاك المحبةَ في الورى … وحباك بالفضل الذي لا يُنْكَرُ
ولأنت أملأُ للعيونِ لديهمُ … وأجلُّ قدرًا في الصدور وأكبرُ[(٢)]

فإن عجز الإنسان عن الوفاء لشيخه بالدعاء والكلمة الطيبة، فليعدل إلى أضعف الإيمان بأن يكُفَّ شره عنه، ويمسك لسانه عن أذاه، إذن لحُمِدَ أبلغَ الحمدِ في زمنٍ يصدق فيه قولُ القائل:

إنا لفي زمنٍ تركُ القبيح به … من أكثر الناسِ: إحسانٌ وإجمالُ

---

(١) «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز» (ص٥٠٦، ٥٠٧).
(٢) «ديوان البحتري» (١/ ٢٣).



وقول الآخر:

عَـــدِّنـــا فــي زمـــانـــنـــا ... عـــن حـــديـــثِ المـــكـــارمِ

مـــن كـــفـــى الـــنـــاسَ شَـــرَّه ... فَـــهْـــوَ فـي جُـــودِ حَـــاتِـــمِ



الوفاءُ للمُعَلِّمينَ في العُسرِ واليُسر



• ومِن صُوَرِ الوفاءِ:

الوفاءُ للمعلِّمينَ في حالتي الشدة والرخاء، خصوصًا مَن كانت لهم أيادٍ بيضاءُ في مسيرة الإنسان.

ومـن أعظم مـا حصل من ذلـك في عصرنا وفاءُ الشـيخ الثري المحسـن سـليمانَ بنِ عبد العزيز الراجحي (١٩٢٨-٢٠٢٠م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأسـتاذه علي بن شـاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث كان له مواقفُ في توجيه الشـيخ سـليمانَ وتقريبِه وتحبيبه للـدرس في بدايـة عمـره، وقد أهـدى لتلميذه في يـوم من الأيام ريـالًا واحدًا -وذلـك في حـدود عام ١٣٥٩ هـ-، فـكان لذلك أبلَغُ الأثر في نفس الشـيخ سليمانَ وسيرته؛ فما كان منه إلا أن وفى لأستاذه واعترف بجميله.

بل إنه منذ أن تُوُفِّيَ عام ١٣٦٣هـ والشيخ سليمان يُضَحِّي له، ويدعو له، ويَذْكُرُه بالخير، ويحج عنه، بل وبنى له مساجدَ عديدة، بل ونَصَّ عليه في وصيته.

يقول الشيخ سليمان: «ولا زلت إلى اليوم أرى أنني لم أُوْفِهِ حقَّه».



مشهدٌ لا يُنْسَى



وقال الأستاذ محمد المجذوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ونختم هذه الرحلة مع الشيخ إمام العصر ابن باز بتلك الصورة التي ما أحسب واحدًا ممن شهدوها بقادرٍ على نسيانها.

كان انتقال الشيخ إلى منصبه الجديد في الرياض مفاجأةً لكل من في الجامعة؛ مدرسين وطلابًا وموظفين، لا يشبهها إلا فِقدانُ أسرةٍ راعيَها الحليم الرَّحيم!

وذات يوم عاد إلى المدينة في زيارة عابرة، فكانت فرصة مرموقة للاجتماع على وداعه.

وفي مسجد الجامعة احتشد هؤلاء ليعبروا عن تقديرهم للرجل الذي خالط حبُّه دماءهم، فكانت هناك كلمات أملاها الإخلاص دون إعداد، حتى جاء دور الشيخ للتعقيب عليها، فإذا هو يتعثر في التعبير؛ إذ غلبه التأثر فلم يتمالك أن يبكي.

لقد كانت تلك الدموع الحارَّةُ أبلَغَ خطاب سمِعتُه للشيخ، وأشد خطبه المبينة تحريكًا لمشاعر سامعيه، حتى غمر التفاعلُ كلَّ من في المسجد، فهُمْ بيْنَ باكٍ في صمت، ومُعْوِلٍ في نشيج.

وما أحسب ثَمَّةَ بيانًا أدَلَّ على مدى الترابط الرُّوحي بين الشيخ وهذا الجمع من مثل ذلك الموقف.

ووجدت في نفسي دافعًا لا يُدفع إلى الكلام في أعقاب هذا المشهد المثير، فكان مما جرى به لساني هذان البيتان:

بَكَيْنا وفاءً لامْرِئٍ قَلَّ أنْ يُرى ... لهُ في الدُّعاةِ العامِلينَ نظيرُ

فخَلُّوا مَلامي إنْ ألَحَّ بيَ البُكا ... فإنَّ فِراقَ الصَّالحينَ عَسيرُ

وحقًّا لقد كان فراقُ الشيخ ابن باز للجامعة الإسلامية عسيرًا؛ لأنه فرق بينها وبين الرجل الذي باشر غرسها من أول أيامها، ثم مضى يسقيها ذوب قلبه، ويبذل لها من الجهد ما لا يضاهيه إلا سهر الأم على طفلها الحبيب.

فجزاه الله عن الجامعة وأهلها، وعن الإسلام الذي وهب نفسه كلها له، خيرَ ما يُجزى الدُّعاة العاملون المصلحون[1].



(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٩٥، ٩٦).

من حقِّ الدكتور (لبيب السعيد) والقراء العظماء الخمسة على الأُمَّة: الوفاء، والدعاء لهم، والإشادة بذكرهم



مَن مِنا لا يغبط الرواد الخمسة العمالقة قراء إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة على السُّنة الحسنة التي سَنُّوها بتسجيل القرآن الكريم صوتيًّا، ومَن مِنا لا يقول: يا ليتني مكان هؤلاء الرجال وفي مِسْلاخِهم؟!

ولكن معظمنا لا يعرف صاحب فكرة هذا المشروع المبارك ومؤسِّسه، إنه الدكتور (لبيب السعيد) المولود في المنصورة بتاريخ (٨/ ١٢/ ١٩١٤م) والذي كان يعمل في وزارة المالية المصرية، وكان منتدبًا للتدريس بكلية التجارة جامعة عين شمس، وعمل أستاذًا للاجتماع الإسلامي وعلوم القرآن في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية حتى منتصف الثمانينيات، وقد توفي في (٢٢/ ١/ ١٩٨٨م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

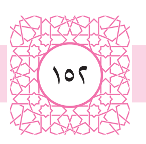
وتبدأ القصة في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي حين نشر الصهاينة نسخًا محرفة من المصاحف في بعض البلاد الأفريقية، فتصدَّى لهم الأزهر بقوة وأحبط كيدهم، فمن هنا نشأت فكرة الجمع الصوتي الأول للمصحف المرتل إمعانًا في الأخذ بأسباب حراسة القرآن العظيم، ولمح الدكتور (لبيب السعيد) رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا أن تراث العلماء يبقى بعد موتهم في كتبهم، أما القراء فتراثهم الصوتي يفنى بفنائهم، نعم كان علم القراءات ينتقل من القراء إلى تلاميذهم

بالمشافهة فَمًا لفمٍ؛ لكن إتقان الأداء الصوتي عند الكبار لا ينتقل غالبًا بالبراعة نفسها إلى التلاميذ.

وفي شهر شعبان من سنة ١٣٧٨هـ، الموافق ١٩٥٨م تقدم الدكتور (لبيب السعيد) بمذكرة إلى الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم -التي كان يرأسها- يوضح فيها اقتراحه بشأن تسجيل القرآن صوتيًّا بكل رواياته المتواترة والمشهورة وغير الشاذة، مبينًا أن أهم وسيلة لنقل القرآن الكريم عبر الدهور، كانت وما زالت: روايته وتلقينه مباشرة وشفاهًا، فَمًا لفمٍ، وهذا هو المعتمد عند علماء القراءة؛ لأن في القراءة ما لا يمكن إحكامه إلا عن طريق السماع والمشافهة.

ومتابعة للتطور، وتأكيدًا لطريقة النقل الشفوي، وتطويرًا لها، يمكن الآن الاتجاه إلى تسجيل القرآن الكريم تسجيلًا صوتيًّا، ولعل هذا الأسلوب أن يكون هو أصلح أساليب العصر، وأكثرها تيسيرًا على المسلمين في تلقي الكتاب العزيز، مجوَّدًا ومتلوًّا بمختلف القراءات.

وقال السعيد في اقتراحه: «الملاحظ الآن أن كثيرًا من المسلمين لا يُحسنون -مع الأسف- أداء الكتاب العظيم، حسب أصول التجويد، مع أنهم بالضرورة يؤمنون بهذا الكتاب، ويحبونه، ويستهدونه. والملاحظ أيضًا أن أغلب حفاظ القرآن الكريم لا يعرفون غير رواية حفص، وهذا وذاك أمران بالغَا الخطورة، ويتعين على الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم، وهي التي تعمل



ليظل ميراث القرآن محفوظًا أحسن حفظ على مدى الزمن، أن تبادر لهذه الحال عاجـلًا. وربَّما كان مشروع تسـجيل القـرآن صوتيًّا من كبار علـماء القرآن هو السبيل العملية السهلة إلى العلاج المنشود.

ولا ريب أن الحاجة إلى هذه الوسيلة -بالنسبة للدول الإسلامية غير العربية- أَمَسُّ، وأن انتشار القرآن بفضل هذه الوسيلة سيكون أوسع، وطلابه سيكونون أكثر، وأن المصحف المسموع سيكون سببًا خطيرًا لزيادة توثق العلاقات بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها...

أما فيما يختصُّ بمن يتولون القراءة والتدريس العملي، فيجب أن يكونوا من أعلم علماء القرآن، مع مناسبة أصواتهم للتسجيل، وأن تختارهم لجانٌ لها خبرتُها القرآنية العظمى، ويشارك فيها الأزهر الشريف، والهيئات العلمية واللُّغوية والثقافية الأخرى.

وأقترح تشكيل لجنة من أعضاء الجمعية تضم إليها من تشاء ممَّن يُرجى نفعه لأعمالها، وتضع اللجنة منهاجًا كاملًا مفصلًا لتنفيذ المشروع، سواء من الناحية القرآنية، أو ناحية التسجيل الفني، أو من الناحيتين التمويلية والإدارية، كما تحدد المساعدات الممكن الحصول عليها من الجهات الحكومية والشعبية المختلفة، وكذلك تتولى اللجنة ترشيح أعضاء اللجان التي يعهد إليها باختيار علماء القرآن الكريم ممن يقومون بالتسجيل».

كما اقترح السعيد أن يشمل التسجيل دروسًا عملية في أحكام التجويد بطريقة سهلة تمكن جمهور المستمعين من الانتفاع بها، وأن يقوم على التلاوة علماء فن التجويد والقراءات، والقراء المهرة من أصحاب الأصوات الجيدة والأداء المتقن، وأن تختارهم لجنة لها خبرتها في القرآن وعلومه، يشارك فيها الأزهر الشريف والهيئات العلمية واللُّغوية والثقافية.



المصحف المرتل



اختمـرت الفكـرة ووضـع الدكتـور السـعيد معالمهـا ولاقـت قبـولًا واستحسانًا، ورحب بها الأزهر الشريف، وأبدى الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر آنئذ ارتياحه ورضاه عنها.

واحتاج هذا المشروع العظيم إلى تمويل عالٍ، ولمَا لم يكن في طاقة جمعية المحافظة على القرآن الكريم الإيفاء بالتمويل، اتفق السعيد مع الإذاعة المصرية على التسجيل في استديوهاتها، مقابل أن يكون لها الحق في أن تذيع من محطاتها ما يتم تسجيله لديها.

لكن الأزمة المالية استمرت، فعرض الدكتور لبيب على وزير الأوقاف أحمد عبد الله طعيمة فكرته، وشكا له أنه أمضى عدة سنوات محاولًا تنفيذ المشروع، ولكن بلا جدوى... يكشف «طعيمة» في مذكراته «صراع السلطة» أنه استدعى الشيخين سيد سابق ومحمد الغزالي إلى مكتبه، وكانا مسؤولين في الوزارة، وطلب منهما مناقشة السعيد في مشروعه. يؤكد «جاء رأيهما بأنه جدير بالتنفيذ فنفذته فورًا» يؤكد «طعيمة»: «كان ذلك أول تسجيل صوتي للقرآن الكريم في العالم بعد جمع القرآن في عهد سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

لقد انبرى المقرئ الجليل محمود خليل الحصري رَحِمَهُ اللَّهُ لإنجاز المهمة المقدسة، ورفض أن يتقاضى على ذلك أجرًا أو مكافأة، وكان يسجل في اليوم

الواحد ست عشرة ساعةً لينجزه في أسرع وقت[١]، ثم تتابع القراء الكبار المنشاوي ومصطفى إسماعيل والبنا وعبد الباسط على الطريق نفسه رحمهم الله أجمعين، وجزاهم الله عن القرآن الكريم خير الجزاء.

وبحلول العاشر من صفر ١٣٨١هـ (الموافق ٢٣ من يوليو ١٩٦١م) كانت النسخة الأولى من أسطوانات المصحف المرتل[٢] قد أنجزت في مصر، وصارت جاهزة للتوزيع؛ لتكون الأولى من نوعها في التاريخ.

---

(١) وقد كان للشيخ الحصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ شأنٌ عظيمٌ في خدمة كتاب الله تعالى، فقد كان أول من سَجَّل القرآن الكريم في مشروع «الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم» الذي بدأه الدكتور لبيب السعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ برواية حفص عن عاصم (١٩٦١م)، ورواية ورش عن نافع (١٩٦٤م)، ورواية قالون والدوري عن أبي عمرو البصري (١٩٦٨م)، وأول من سَجَّل «المصحف المعلم» (١٩٦٩م)، و«المصحف المفسر» المسمى «مصحف الوعظ» (١٩٧٣م)، ولعل هذه الإنجازات المباركة هي تأويل الرؤيا التي رآها والده الشيخ (خليل السيد) الذي كان يلقّب بالحصري؛ لأنه كان يتقن صناعة الحصير، وكان كلما وجد مسجدًا أو مصلًّى بلي حصيرُه أو بدون حصير أو مفروشًا بقش الأرز، هُرِع إليه، وفرشه بالحصير الجديد، فاشتهر بلقب الحُصري، ثم رأى في المنام أن عموده الفِقْري يتشكل ويتدلى عنقودًا من العنب، والناس تأتي جماعاتٍ جماعات، يأكلون من عنقود العنب، وعنقود العنب لا ينفد، وتكررت هذه الرؤيا فسأل عنها شيخًا مُعبِّرًا، فسأله إن كان له ذرية، فقال: «ولدي محمود، عمره عامان»، فقال الشيخ: «ألحقه بالأزهر، يتعلم العلوم الشرعية، فسوف يكون له شأنٌ كبيرٌ»، وقد كان -رحمه الله وجزاه وسائر القراء عن القرآن خيرًا-.

(٢) وحتى لا نبخس الناس أشياءهم، ونغمطهم حقهم نذكر أن رجلًا (من الوسط الفني) يُدعى (محمد فوزي) كان قد استورد أول (استديو) حديثٍ متكاملٍ لطبع وتسجيل الأسطوانات الأصلية التي كانت وقتها تُطبع في باريس، وقد استدعاه وزير الأوقاف آنذاك إلى مكتبه وعرض عليه المشروع، فلما علم أنه متعلقٌ بتسجيل القرآن الكريم رفض أن يتقاضَى أية أرباح مقابل إنجاز هذا المشروع، وبالفعل طبع محمد فوزي -رحمه الله وغفر له- عدة آلاف من الأسطوانات وُزِّعت على الإذاعة المصرية، وإذاعات الدول الإسلامية، بل إن السفير الأمريكي زار وزير الأوقاف وطلب منه نسختين من الأسطوانات لتُضم إلى مكتبة الكونجرس.

كان نجاح المشروع مبهرًا منذ بدايته، فلم يحتج الأمر إلا إلى بضعة أشهر أخرى، حتى يستمع المصريون عبر أثير الإذاعة المصرية إلى صوت القرآن المرتل بصوت الشيخ الحصري (الإثنين ٨ من ربيع الآخر ١٣٨١هـ - ١٨ سبتمبر ١٩٦١م)؛ لتكون أول خطوة في تاريخ القرآن المرتل المسموع في العالم العربي تقريبًا.

إن الدكتور (لبيب السعيد) رَحِمَهُ ٱللَّهُ -الذي كان يتمتع بخلق نكران الذات، وكراهية الشهرة- مفخرة لمصر والعالم الإسلامي، وله دَيْن في رقبة كل مسلم ينتفع بالإنصات لإذاعة القرآن الكريم في مصر وخارجها، ومن حقِّه علينا الوفاء له بالإشادة بذكره، والدعاء له، ونسبة الفضل إلى صاحبه.

قد مات قوم وما ماتت فضائلهم — وعاش قوم وهم في الناس أمواتُ

فهنيئًا له ما قدَّمه لنفسه وأُمته، وهنيئًا لنا هذه التَّرِكة المباركة التي بها تحقق قولُ شيخ الأزهر مصطفى المراغي (ت١٣٦٤هـ-١٩٤٥م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القرآن العظيم: «نزل في مكة، وكُتِبَ في تركيا[١]، وقُرِئ في مصر»[٢].



(١) على يد الخطاطين الأتراك الذين طوَّروا الخط العربي، وارتقَوْا به إلى قمة الجمال والإبداع، فصارت اسطنبول قبلة الخطاطين وعاصمتهم.

(٢) إذ كانت مصر عاصمة «دولة التلاوة القرآنية» وترسخ دورها في خدمة كتاب الله ونشره مسموعًا في العالمين منذ ميلاد إذاعة القرآن الكريم.

الوفاء للأخ في اللّه



إن التَّحابَّ في الله تعالى، والأُخوَّةَ في دينه من أفضل القُرُبات، وألطف ما يُستفاد من الطاعات في مجاري العادات، ولها شروط يلتحق بها المتصاحبون بالمتحابينَ في الله تعالى، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونَزَغَات الشيطان، فبالقيام بحقوقها يُتقرَّبُ إلى الله زُلفى، وبالمحافظة عليها تُنالُ الدرجاتُ العُلى.

والأخوَّةُ في الله عملٌ صالحٌ شرطه الإخلاص وحسن الخاتمة: «**ورَجُلانِ تحابَّا في اللّه، اجتمعا عليه، وافترقا عليه**».

والحب في الله: «لا يَزيدُه البِرُّ، ولا يَنقُصُه الجفاءُ»؛ لأنه «**في اللّه**».

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أن رجُلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأَرْصَدَ اللّه له مَلَكًا على مَدْرَجَتِه، فلمَّا أتى عليه، قال: أين تريد؟**

قال: أخًا لي في هذه القرية.

قال: فهل له عليك مِن نعمةٍ تَرُبُّها؟

قال: لا، إلا أني أُحِبُّه في اللّه عَزَّوَجَلَّ.

قال: فإنِّي رسولُ اللّه إليك: أن اللّه أحبك كما أحببتَه فيه».

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما تحابَّ رجُلانِ في الله، إلا كان أحبَّهما إلى الله أشَدُّهما حبًّا لصاحبه**»[(١)].

وقال أبو عَمْرٍو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد ولقيته فأخذ بيدي، فقال: إذا التقى المتحابَّان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه؛ تحاتت خطاياهما، كما تحاتّ ورق الشجر.

قال عبدة: فقلت: إن هذا لَيسيرٌ.

فقال: لا تقُلْ ذلك؛ فإن الله يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣] الآيةَ.

قال عبدة: «فعرَفت أنه أفقهُ مِنِّي».

وقال يحيى بن زياد:

وأَرْهَنُ نَفْسِي بالوفاء لصاحبي ... فَمِنْ دُون غَدْرِي أَنْ تُغَيّب أعْظُمِي

وقال الحريري: «تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتى رَقَّ الدينُ، وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، وفي الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ولم يبق إلا الرهبة والرغبة».

وقد بقينا في زمان ليس فيه آداب الإسلام، ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوي المروءة!

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٩)، وابن حبان (٢٥٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٧١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو في «الصحيحة» للألباني برقم (٤٥٠).

الوفاء الحقيقي هو وفاء الأُخُوَّةِ في الله



الوفاء هو الثبات على الحب، وإدامته إلى الموت، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه؛ فإن الحب إنما يراد للآخرة، فإنِ انقطع قبل الموت حَبِطَ العملُ، وضاع السعي.

وحادثة إكرام الرسول ﷺ للعجوز التي كانت تأتيهم في أيام خديجةَ[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خير دليل.

وكلما انقطع الوفاء بعدم دوام المحبة شَمَتَ الشيطانُ؛ فإنه لا يحسد متعاونَين على برٍّ كما يحسد مُتواخِيَينِ في الله مُتحابَّيْنِ فيه، فيُجهِد نفسَه لإفساد ما بينهما، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**ما تَوادَّ اثنان في الله** عَزَّ وَجَلَّ، **فيُفرَّقُ بينهما إلا بذنبٍ يُحْدِثُه أحدُهما**»[(٢)].

ولقد قال بِشْرٌ الحافي:

إذا قصَّر العبد في طاعة الله، سَلَبَه الله مَن يؤنسه؛ وذلك لأن الإخوان مَسلاة عن الهموم، وعَوْن على الدِّين.

---

(١) تقدم (ص٨١).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٠١)، وصحَّحه الألباني بمجموع طرقه كما في «الصحيحة» رقم (٦٣٧).

إن الوفـاء الحقيقـي هو الدائم الـذي لا تنقطع منفعتـه في الدنيا والبرزخ والآخـرة، ولا يـدوم -بهـذا المعنـى- إلا إذا كان لوجه الله تعـالى؛ وذلك لأن الحب في الله عبادة، والعبادة مثل أي عمل صالح لها ثلاثة شروط:

الأول: الإيمان.

الثاني: الإخلاص.

الثالث: موافقة الشرع الشريف.

ولا يتم الانتفاع بها إلا بحسن الخاتمة وبالثبات عليها حتى الممات.

قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سـبعة يظلهم الله في ظلـه يوم لا ظـل إلا ظله**» وذكر منهم:

«**ورجلان تحابًا في الله اجتمعا عليه، وافترقا عليه**» الحديث[١].

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجتمعا عليه**» يشير إلى شرط الإخلاص.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وافترقا عليه**» يشير إلى شرط حسن الخاتمة.

أما مَن جمع بينهما حبٌّ لغير وجه الله، كالعشق المحرم، أو اجتمعوا على الوفاء لبعضهم البعض في كفر أو معصية فهم يضيعون أعمارهم، ولا يجنون سوى الحسرة، والتبري من بعضهم البعض يوم القيامة.

وكيف يكون وفيًّا لك من خان الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال بعض السلف: «لا تصادقَنَّ فاسقًا، ولا تثق إليه؛ فإن من خان أولَ مُنْعِمٍ عليه لا يفي لك».

---

(١) رواه البخاري (١٢/ ١٠٠)، ومسلم (١٠٣١).

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٥].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف:٦٧-٧٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

- وقال أمير المؤمنين عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

«عليكم بالإخوان؛ فإنهم عُدَّةُ الدنيا، وعدة الآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

أي: صديقٍ مشفقٍ.

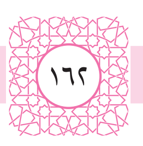
وجَمَعَ الشافعَ؛ لكثرة الشافعين، ووحَّد الصديق؛ لِقِلَّتِه[١].

وقال تعالى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾ [الحاقة:٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١١٦، ١١٧).



أما وفاء المؤمنين لبعضهم البعض فإنه يدوم وينفعهم أثره في الدنيا بأداء حقوق الأخوة في الله، وفي البرزخ بالإحسان إلى أخيه بالدعاء وهبة الأعمال الصالحة[(١)]، ويوم القيامة حين يشفع المؤمنون لإخوانهم الذين ماتوا قبل توبتهم من المعصية، ويشتدون بإلحاح في مناشدة ربهم أن يعفو عنهم ويخرجهم من النار، فيقبل شفاعتهم[(٢)].



(١) انظر: «الإحسان إلى الأموات وما يصل إليهم من ثواب القُربات» للمصنف.

(٢) انظر: (ص١٧١).

من الوفاء:
أن تُغيثَ أخاك في الشِّدَّة



قال إبراهيم بن العباس:

ولــكـــنَّ الجـــواد أبـــا هـشـام ... وفيُّ الـعـهـدِ مــأمــونُ المغـيـبِ

بـطـيءٌ عـنك مـا استـغـنـيتَ عنه ... وطـــلاَّعٌ إلـيـك مــع الخُــطـوبِ

ومن هذا ما قيل في حق الأنصار -رضوان الله عليهم-: «إنكم لَتَقِلُّونَ عند الطمع، وتكثرون عند الفزع»[(١)].

قال الشاعر:

دعوى الإخاءِ على الرخاءِ كثيرةٌ ... بـل في الـشـدائـدِ تُـعْـرَفُ الإخـوانُ

وقال آخَرُ:

إنَّ أخاك الصِّدْقَ مَن كان معكْ ... ومــن يَــضُــرُّ نـفـسَـه لينفعكْ

ومـن إذا رَيْـبَ الـزمـان صَـدَعَـكْ ... شـتَّـتَ فـيـك شَـمْـلَـهُ لِـيَجمَعَكْ

عن معمر: أن طاووسًا أقام على رفيق له مريض، حتى فاته الحج.

---

(١) ومعناه: أنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يتسارعون إلى المعارك والمكارم مع الزهد التام، ورفع الهمة عن الحُطام.
ومثل هذا المعنى قول عنترة:

يـخـبركـم مـن شَـهِـدَ الـوقـيـعـة أنني ... أغـشـى الـوغـى وأَعِـفُّ عـنـد المطعمِ

• إن من أصدق علامات الأخوَّةِ: المواساةَ بالمال:

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ [محمد:٣٦، ٣٧].

• دخل قومٌ على الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: يا أبا سعيد، أصلَّيْتَ؟

قال: نعم، قالوا: فإن أهل السوق لم يُصَلُّوا بعدُ.

قال: «ومَن يأخُذُ دِينه من أهلِ السوق؟! بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم!»، قاله كالمتعجِّب منه.

• وجاء رجُلٌ إلى إبراهيمَ بنِ أدهمَ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يريد بيت المقدس، فقال: إني أريد أن أرافقَك.

فقال له إبراهيمُ: على أن أكون أمْلَكَ لشيئك منك؟!

قال: لا.

قال: أعجبني صِدقُك.

• وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه».

• وجاء رجل إلى أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: إني أريد أن أواخيَك في الله.

فقال: «أتدري ما حقُّ الإخاء؟».

قال: عَرِّفني.

قال: «ألَّا تكونَ أحقَّ بدينارك ودرهمك منِّي».

قال: لم أبلغ هذه المنزلةَ بعدُ.

قال: «فاذهَبْ عنِّي».

• وقال عليُّ بن الحسين لرَجُلٍ:

هـل يُدخل أحدُكم يده في كُمِّ[١] أخيه أو كيسِـه، فيأخـذ منه ما يريد بغير إذنه؟

قال: لا.

قال: فلَسْتُم بإخوانٍ.

• وجاء فتحٌ المَوْصِليُّ إلى صديق له -يُقال له: عيسى التَّمَّار-، فلم يَجِدْه في المنزل، فقال للخادم[٢]:

أخرجِي إلَيَّ كيسَ أخي، فأخرَجَتْه له، فأخذ درهمين.

وجاء عيسى إلى بيته، فأخبَرَتْه الخادم بمجيء فتحٍ وأخذِه الدرهمين، فقال: «إن كنتِ صادقةً فأنتِ حرَّة»، فنظر فإذا هي صادقة، فعَتَقَتْ[٣].



---

(١) **الكُمُّ:** مدخل اليد ومخرجها من الثوب، أما الجَيْبُ: فما يُدخِل منه الرأسَ عند لُبْسِه، قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

(٢) **الخادم:** واحد الخدم، غلامًا كان أو جارية.

(٣) يقال عَتَقَ العبدُ إذا خرج من العبودية.

مِنَ الوفاءِ:
حِفْظُ السِّرِّ في الرِّضا والغضَبِ

ليس الكريمُ الَّذي إنْ زَلَّ صاحبُهُ ... بَثَّ الَّذي كان مِن أسرارِهِ عَلِما

إنَّ الكريمَ الَّذي تبقى مَوَدَّتُهُ ... ويحفظُ السِّرَّ إنْ صافى وإنْ صَرَما

وقال آخَرُ:

وترى الكريمَ إذا تصرَّم وصْلُهُ ... يُخْفِي القبيحَ ويُظهِرُ الإحسانا

وترى اللَّئيمَ إذا تقضَّى وصلُهُ ... يُخْفِي الجميلَ ويُظهِرُ البُهْتانا

قال المتنبي:

وللسر مني موضع لا يناله ... نديم ولا يُفضي إليه شراب

آخر:

إذا ما غفرتُ الذنبَ يومًا لصاحبٍ ... فلستُ معيدًا -ما حييتُ- له ذِكْرا

ولستُ إذا ما صاحبٌ خان عهدَه ... وعندي له سرٌّ مذيعًا له سِرَّا

وقال ملِك لصاحب ملِك آخر: أطلعني على سر صاحبك، وانج بنفسك. فقال: «إليَّ تقول هذا، وما ذاق أحد كأسًا لا مذاق لها أمرَّ من الغدر، والله لو حول ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عوض منه، ولكن سماجة اسمه وبشاعة ذكره ناهيان عنه»(١).

(١) «البصائر والذخائر» لأبي حيان (٣/ ١٥٥).

وقال أبو بكر الخلال في شأن الحسن بن ثواب:

«كان شيخًا جليلَ القَدْرِ، وكان له بأبي عبد الله أُنسٌ شديد، قال لي: كنت إذا دخلت إلى أبي عبد الله يقول لي: إني أفشي إليك ما لا أفشيه إلى ولدي، ولا إلى غيره. فأقول له: لك عندي ما قال العباس لابنه عبد الله: إن عمر بن الخطاب يكرمك ويقدمك، فلا تفشين له سِرًّا، فإن أَمُتْ فقد ذهب، وإن أَعِشْ فلن أحدثَ بها عنك يا أبا عبد الله! فيفشي إليه أشياء كثيرة، وكان عنده عن أبي عبد الله جزء كبير، فيه مسائل كبار لم يجئ بها غيره مشبعة»[1].

قال الشاعر:

ويُكاتِمُ الأسرارَ حتى كأنَّه	لَيَصُونُها عن أن تَمُرَّ ببالِهِ

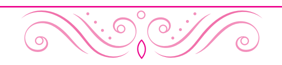
آخر:

وللسرِّ فيما بين جَنْبَيَّ مَكْمَنٌ	خَفِيٌّ قَصِيٌّ عن مدارج أنفاسي
كأني مِن فَرْطِ احتفاظي أَضَعْتُهُ	فبعضي له راعٍ وبعضي له ناسي



(١) انظر: «السلسلة الصحيحة» المجلد السابع - القسم الثاني (ص١٠٠٦).

مِنَ الوفاءِ:
الدُّعاءُ للأخِ في حياتِه وبعدَ مماتِه



• عن أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما مِن عبدٍ مُسلِمٍ يدعو لأخيه بظَهرِ الغَيبِ، إلَّا قال المَلَكُ: ولكَ بمِثْلٍ**»[(١)].

• قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا فضل الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب.

ولو دعا لجماعة من المسلمين حصلت هذه الفضيلةُ، ولو دعا لجملة المسلمين فالظاهر حصولها أيضًا.

وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعوَ لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تُستجابُ ويحصلُ له مِثلُها»[(٢)].

• جاء في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي في ترجمة الطيب بن إسماعيل أبي حَمْدونَ -أحد القُرَّاء المشهورين-، عن أبي عبد الله بن الخطيب، قال:

كان لأبي حَمْدونَ صحيفةٌ فيها مكتوب ثلاثُ مئة من أصدقائه، وكان يدعو لهم كل ليلة، فتركهم ليلةً فنام، فقيل له في نومه:

«يا أبا حمدون، لَمْ تُسرِجْ مصابيحَك اللَّيلةَ!».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٢).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (١٧/ ٤٩).

فقعد فأسرج، وأخذ الصَّحيفةَ، فدعا لواحدٍ واحدٍ حتى فرغ[١].

• كان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: «وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلُكَ يقتسمون ميراثَك، ويتنعمون بما خَلَّفْتَ، وهو منفرد بحزنك، مهتم بما قدمتَ وما صرتَ إليه، يدعو لك في ظلمة الليل، وأنت تحت أطباق الثرى».

• وقال يزيدُ بن سويد:

«رُبَّ قائمٍ مشكورٌ له، ورُبَّ نائمٍ مغفورٌ له؛ وذلك أن الرَّجُلَينِ يتحابَّان في الله، فقام أحدهما يصلي فرضيَ الله صلاته، ودعا فلم يَرُدَّ من دعائه شيئًا، فذكر أخاه في دعائه من الليل فقال: يا ربِّ أخي فلانٌ اغفِرْ له، فغفَرَ الله له».

وحتى لو نسيتُ فلستُ أنسى	لمن يومًا سقى قلبي وِدادا
وأحيا فيه نَبْضًا كان مَيْتًا	وحرَّك في الحشا شيئًا جمادا
سأذكره وأدعو في صلاتي	يُبَلِّغني وإياه المرادا



(١) «تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٩٥) ط. دار الغرب الإسلامي.

ومن الوفاء لأخيك الميت المَدين أن تتحمل عنه دَينه



- فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: تُوفِّيَ رجلٌ، فغسَّلناه وحنَّطناه وكَفَّنَّاه، ثم أتينا به رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي عليه، فقلنا: نُصلِّي عليه. فخطا خُطًى، ثم قال: «**أعليه دَينٌ؟**»، قلنا: دِيناران. فانصرفَ، فتَحَمَّلَهما أبو قَتادة، فأتيناه، فقال أبو قَتادة: الدِّيناران عليَّ. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حقَّ الغريمِ، وبَرِئَ منهما الميتُ؟**»(١)، قال: نعم. فصلَّى عليه، ثم قال بعد ذلك بيومٍ: «**ما فعل الديناران؟**»، فقال: إنما ماتَ أمسِ. قال: فعاد إليه من الغدِ، فقال: قد قضيتُهما. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الآنَ بَرَّدْتَ**(٢) **عليه جِلْدَه**»(٣).

- وعن سَمُرةَ بن جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جِنازة فقال: «**أها هُنا من بَني فلانٍ أحدٌ؟**» قالها ثلاثًا، فقام رجل، فقال له النبي

(١) وفي روايـة: «**هما عليـك، وفي مالك، والميت منهما بريء؟**». قال البيهقي: «عنى به -والله أعلم-: للغريم مطالبتك بهما وحدَك إن شـاء، كما لو كان له عليك حقٌّ من وجه آخر، والميت منه بريء» اهـ. من «السنن» للبيهقي (٦/ ٧٤).

(٢) أي: بسبب رفع العذاب عنه بعد وفاء دَينه.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٤٥٣٦)، والبيهقي (٦/ ٧٥)، (٦/ ٧٤)، والطيالسي (١٦٧٣)، والحاكم (٢/ ٥٨) وصححه ووافقه الذهبي، وحسَّنه الهيثمي (٣/ ٣٩)، وحسَّنه محققو «المسند» (٢٢/ ٤٠٦).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما منعك في المرتين الأُولَيينِ أن تكون أجبتني؟ أما إني لم أُنَوِّهْ**[١] **بك إلا لخيرٍ، إن فلانًا** -لرجل منهم مات- **إنه مأسور بدَينه**»[٢]. قال: لقد رأيتُ أهلَهُ ومن يَتَحَزَّنُ له قَضَوْا عنه حتى ما جاء أحدٌ يطلبُهُ بشيءٍ[٣].

- وعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ برجل ليُصلِّيَ عليه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا على صاحبكم؛ فإن عليه دَينًا**»، قال أبو قتادة: هو عليَّ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بالوفاء؟**»، قال: بالوفاء، فصلَّى عليه[٤].

ومن أنفع مواقف الوفاء قاطبةً:

شفاعة المؤمنين في إخوانهم في الله الذين كانوا يصلون معهم في الدنيا، ويصومون، ويحُجُّون، لكنهم استحقوا دخول النار بذنوبهم ومعاصيهم التي ماتوا ولم يتوبوا منها، فيناشدون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يخرجهم من النار، فيقبل الله شفاعتهم ومُناشَدَتهم في ذلك:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**... حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحدٍ بأشدّ مناشدةً**

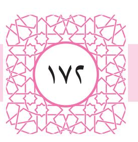
---

(١) **لم أُنَوِّهْ بك**: لم أنادِك، يُقال: نَوَّه به تنويهًا، أي: رفع ذكره، والمراد به هنا: النداء، لما فيه من رفع الذكر.

(٢) وفي رواية: «**عن الجنة، فإن شئتم فافدوه، وإن شئتم فأسلموه إلى عذاب الله**».

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٠٢٣١)، وعبد الرزاق (١٥٢٦٣)، ومن طريقه أخرجه النسائي (٧/ ٣١٥)، والبيهقي (٦/ ٤٩)، وقال محققو «المسند»: «حديث صحيح»، وهو في «صحيح النسائي» (٤٦٨٥).

(٤) رواه الترمذي (١٠٦٩)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٤/ ٦٥)، وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط: «إسناده صحيح» اهـ. من «تحقيق جامع الأصول» (٤/ ٤٦٥).



لله في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجُّون، فيقال لهم: أخرجوا مَن عرفتم. فتُحرَّمُ صُوَرُهم على النار، فيُخْرِجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النارُ إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحدٌ ممَّن أمرتنا به»[1] الحديث.



(١) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

من الوفاء:
ألَّا تتغيَّرَ حالُه مع أخيه إذا أقبلت عليه الدنيا

من الوفاء للأخ: ألَّا يتغيَّرَ حالُه مع أخيه، وإن ارتفع شأنُه، واتسعتِ وِلايتُه، وكثر ماله، وعظُم جاهُه.

قال حبيب الشاعر:

وإن أولى الموالي أن تُواسِيَهم ... عند السرور لَمَن واساك في الحَزَنِ

إنَّ الكرامَ إذا ما أَيْسَروا ذَكَروا ... مَنْ كان يَأْلَفُهُمْ في المنزلِ الخَشِنِ

وأوصى بعض السلف ابنه، فقال له:

«يا بُنَيَّ، لا تصحب من الناس إلا مَن إذا افتقرتَ إليه قَرُبَ منك، وإذا استغنيتَ عنه لم يطمع فيك، وإنْ عَلَتْ مرتبته لم يرتفعْ عليك».

كان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته ضائقة، ثم ولي عملًا فأثرى، فقصده محمد مُسَلِّمًا فرأى منه تغيرًا، فكتب إليه:

لئن كانت الدنيا أنالتْكَ ثروة ... فأصبحتَ ذا يُسْرٍ وقد كنتَ ذا عُسْرِ

فقد كشف الإثراءُ منك خلائقًا ... من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من الفقرِ

آخر:

دعــوتُ اللّهَ أن تـسـمـو وتعلو ... عُـلُـوَّ الـنَّـجْـمِ في أُفُــقِ السماءِ

فـلـما أن سَمَـــوْتَ بَـعُـدتَ عني ... فـكـان إذنْ عَـلـى نـفـسـي دعائي

وقال ابن أبي حازم:

وخِـلٍّ كـان يَخـفِـضُ لـي جَناحًا ... أفـادَ غِـنًـى فـنابَذني جِمـاحَـا[١]

فـقـلـتُ لـه ولــي نـفْـسٌ عَــزُوفٌ ... إذا حَـمِـيَـتْ تـقـحَّـمَـت الرِّماحا[٢]

سـأُبْـدِلُ بـالمطـامِـعِ فـيـك يأسًا ... وبـالـيـأسِ اسْــتراح مَـنِ اسْتراحَا

وقال البارودي:

وكـذا اللئيمُ إذا أصـاب كـرامةً ... عـادى الـصـديـقَ ومـال بالإخوانِ

واعلم أن الترفُّعَ على الإخوان بما يتجدَّدُ من الأحوالِ لؤمٌ.

قال حاتم الطائي:

غنينا زمـانًـا بـالتصعلك والغنى ... وكـلًّا سقاناه بكأسَيْهما الدهرُ

فـما زادنـا بـغـيًـا عـلـى ذي قـرابةٍ ... غِـنانا ولا أَزْرَى بأحسابنا الفقرُ

قال يحيى بن الحكم: «والله لقد ولي الحَجاج وما عربيٌّ أحسن أدبًا منه، فطالت وِلايته، فكان لا يسمع إلا ما يحب، فمات وإنه لأحمقُ سيِّئ الخلق»[٣].

(١) الجِماح: الشرود، وجمح الرجل: ركب هواه ورأسه، ولم يمكن رَدُّه.

(٢) عزوف عن كذا: مبتعد، ممتنع عنه، وزاهد فيه.

(٣) «العزلة» للخطابي (ص٢٣٤).

الوفاء لمن دار عليه الزمان
أو زال عنه الجاه والسلطان



إن زوال المنصب والسُّلطان كِيْرٌ يُسْفِرُ عن معادن الكرام؛ لأن إكرام الناس وهم في مناصبهم يقدر عليه الوضيع قبل الشريف، أما الوفاء لهم بعد نزولهم من علياء مناصبهم؛ فلا يفعله إلا الأوفياء النبلاء الكرام.

ومن أروع الأمثلة في ذلك:

أن مراون بن محمد -آخر خلفاء بني أمية- لما أيقَنَ بزوال مُلكه وهزيمته أمام العباسيين استدعى عبد الحميد الكاتب -الذي كان يحبه حبًّا جمًّا، ويرفع منزلته بين الكُتَّاب والعمال، ولا يرى الدنيا إلا به؛ لعلمه بنبُوغه وتفرُّده في صناعته البلاغية- وطلب منه أن يكون مع أعدائه لتسلم حياته، قائلًا:

«لقد احتجتَ أن تكون مع عدوّي، فاستأمن إليهم، وأظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يدفعهم إلى حسن الظن بك والإحسان إليك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حَرَمي بعد وفاتي» فقال عبد الحميد:

«إن ما تشير به عليَّ، أنفع الأمرين لك، وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر معك حتى يفتح الله تعالى أو أُقتل معك»، ثم تمثَّل بقول القائل:

أُسِرُّ وفاءً ثُمَّ أُظْهِرُ غَدْرَةً ... فَمَنْ لي بعذرٍ يوسع الناسَ ظاهره

وبقي معه حتى قُتلا معًا في قرية بوصير في مصر[١].

وكان أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلَّاد، الشاعر الضرير، من الظرفاء الأذكياء، سريع الإجابة مع الإصابة، وله نوادر غريبة، حتى كان الناس يتحاشون الوقوع في لسانه، وكان البرامكة قد أحسنوا إليه وكفوه مذلّة السؤال، فكان يتصدّى دومًا لمن يحاول أن يتنقَّصهم.

حضر يومًا مجلس أحد الـوزراء، ففاض الحديث في جود البرامكة وكرمهم، وكان هذا المجال مما يسهب فيه أبو العيناء، فذكر من ذلك عددًا من المواقف والحوادث، فقال له الوزير:

«لقد أكثرت من ذكرهم وتقريظهم وغاليت في وصفك إياهم، وما هذا إلا من تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين»، فردَّ أبو العيناء على الفور:

«ولِمَ لم يكذب عليك الوراقون والمؤلفون كما كذبوا عليهم أيها الوزير؟»، فَبُهِتَ الوزير، وعجب الحاضرون من إقدام أبي العيناء عليه، ومن مدى وفائه للبرامكة حتى يخاطر بنفسه عنهم[٢].

ولما تولَّى أبو جعفر المنصور الخلافة تزايدَ استهداف البلاد الإسلامية من أعدائها في الشرق والغرب، وفي الداخل والخارج، فأخذ التدبير الحربي

---

(١) «وَفَيات الأعيان» (٣/ ٢٢٩).
(٢) «نفسه» (٤/ ٣٤٣).

يستولى على فكره ليل نهار، وسمع بما كان يدبّره هشام بن عبد الملك في مواجهة الحروب وأخطارها، فأحب أن يعلم شيئًا عن تدبيره من أحد المقربين إليه. وروى محمد بن رباح أنه ذُكِر لأبي جعفر رجل كان من خواص هشام ينزل الرصافة -رصافة هشام بالشام- فأرسل إليه ليسأله عن تدبير هشام في الحروب.

قدم عليه الرجل فسأله:

- أنت صاحب هشام؟

- نعم يا أمير المؤمنين.

- أخبرني عن حربه وكيف دبَّرَها في سنة كذا.

- نعم، لقد فعل - رحمه الله تعالى- كذا، وقام -رضي الله عنه- بكذا وكذا.

غضب المنصور أشد الغضب، ثم قال:

- قم عليك غضب الله، تطأ بساطي وتترحم على عدوّي؟

قام الشيخ، وقبل أن يمضي إلى سبيله، التفت إلى المنصور، وقال:

- إن لِعدوِّك قلادةً في عنقي، ومنةً في رقبتي، لا يَنْزِعُها إلا غاسلي.

ثم خرج الشيخ، فقال المنصور: ردّوه.

عاد الشيخ فقال له المنصور:

- هيه كيف قلت؟

فأجاب: إنه يا أمير المؤمنين كفاني الطلب، وصان وجهي عن السؤال، فلما وقفت على باب عربي أو أعجمي منذ رأيته، أفلا يجب عليَّ أن أفي له وأذكره بخير وأتبعه بالثناء؟

فقال المنصور: بلى والله، لله أمّ نهضت عنك، أشهد أنك نهيض حرة، وغراس كريم، وأنك لوفي، حافظ للخير. استمع أبو جعفر لحديث الرجل كله، ثم أمر له بصلة فقال:

- والله يا أمير المؤمنين، ما آخذ ما أمرتَ به لحاجة، وإنما أتشرف بحِبائك[1]، وأتبجَّح[2] بصِلَتِكَ، ثم خرج.

قال أبو جعفر:

- عند مثل هذا تَحْسُنُ الصَّنيعةُ، ويُوضَعُ المعروفُ، فأين لنا بمثله؟![3].



(١) **الحِباء:** ما يحبو به الرجلُ صاحبَه، ويُكرمه به.

(٢) **تبجح هنا:** افتخر وتباهى.

(٣) انظر: «تاريخ الأمم والملوك» للطبري (٤/ ٥٢٦، ٥٢٧).

مِنَ الوفاءِ:
عَدَمُ تصديقِ الوُشاةِ



ومِن حقوق الأُخوَّةِ القلبيَّةِ: حُسْنُ الظَّنِّ بالأخ:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ**»(١).

وإذا كان هذا مطلوبًا في المسلمين عامَّة؛ فإن ذلك يتأكد بين المتآخينَ في الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن مناقب الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما قاله تلميذه الربيع بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

دخلت على الشافعي وهو مريض، فقلت له: قَوَّى الله ضَعْفَك.

فقال: «لو قَوَّى ضعفي، قتلني!».

فقلت: واللهِ ما أردتُ إلا الخيرَ.

قال: «أعلَمُ أنك لو شتمتني لم تُرِدْ إلَّا الخيرَ»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٤، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٩/ ١٢٠)، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١١٦-١١٧، ٢١٧، ٣٦١).

مِنَ الوفاءِ:
عدَمُ سماعِ بلاغاتِ النَّاسِ في الصَّديقِ



ومن الوفاء: ألَّا يسمعَ بلاغات الناس على صديقه، ولا سيَّما من يُظهِر أوَّلًا أنه محب لصديقه -كيلا يُتَّهَمَ- ثم يلقي الكلام عَرَضًا، ويَنقلُ عن الصديق ما يوغر القلب؛ فذلك من دقائق الحيل في التضريب[1]، ومَن لم يحترز منه لم تَدُمْ مَوَدَّتُه أصلًا.

• قال بعضهم لحكيم: قد جئتُ خاطبًا لِمَوَدَّتِكَ.

قال: إنْ جعلتَ مهرها ثلاثًا فعلتُ.

قال: وما هي؟

قال: «لا تسمعْ عليَّ بلاغةً، ولا تخالفني في أمري، ولا توطئني عَشْوةً[2]».

أُنْبِئْتُ أنَّكَ قد أتتْكَ قَوارِضٌ ... عَنِّي ثَنَتْكَ عَلَى الضَّميرِ الواجِدِ

عَمِلَتْ رُقَى الواشِينَ فيكَ وإنَّها ... عندي لَتَضْرِبُ في حديدٍ بارِدِ

آخَرُ:

عفا اللهُ عن عبدٍ أعانَ بدَعوةٍ ... خَليلَيْنِ كانا دائمَينِ على وُدِّ

إلى أن مشَى واشِي الهوى بنميمةٍ ... إلى ذاكَ مِن هذا فزَالَا عن العهدِ

---

(١) **ضَرَّب بين القوم:** أغرى بعضَهم ببعض.

(٢) **العَشْوة:** ما بين أول الليل إلى رُبْعِهِ أو: الظُّلْمة.

الوفاء البصير
النُّصْحُ للّٰه فوقَ مُحاباةِ الصَّديقِ

قال ربنا جل ثناؤه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥].

وقال بعضهم: «أنصحُ الناس لك مَن خاف اللهَ فيك».

كان الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد آخى محمد بن عبد الحكم، وكان يُقرِّبه، ويُقبل عليه، ويقول: ما يُقيمُني بمِصْرَ غيرُه.

فاعتلَّ محمد، فعاده الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال:

مَرِضَ الحبيبُ فعُدْتُهُ ... فمَرِضْتُ مِن حَذَري عليهِ
وأتى الحبيبُ يَعُودُني ... فبرِئْتُ مِن نَظَري إليهِ

وظنَّ الناسُ -لِصِدقِ مَوَدَّتِهما- أنه يفوِّضُ أمرَ حَلْقَتِه إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها:

إلى مَن نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟

فاستشرف له محمد بن عبد الحكم -وهو عند رأسه- ليومئَ إليه، فقال الشافعي:

«سبحان الله! أَيُشَكُّ في هذا؟! أبو يعقوب البُوَيْطيُّ»[(١)].

فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البُوَيْطي، مع أن محمدًا كان قد حمل عنه مذهبه كلَّه، لكن كان البُوَيْطيُّ أفضَلَ وأقرَبَ إلى الزهد والورع؛ فنصح الشافعي لله وللمسلمينَ، وترك المداهنة، وآثَرَ رضا الله تعالى.

فلمَّا تُوُفِّيَ الشافعيُّ انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه، ورجع إلى مذهب أبيه، ودرس كتب مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من كبار أصحاب مالك، وآثر البويطي الزهد والخمول، ولم يُعجِبْهُ الجمعُ والجلوس في الحلْقة، واشتغل بالعبادة، وصنَّف كتاب «الأم»، الذي يُنسَبُ الآنَ إلى الربيع بن سليمان، ويُعرف به، وإنما صنَّفه البويطي، ولكن لم يذكر نفسه فيه، ولم ينسبه إلى نفسه، فزاد الربيع فيه، وأظهره.

والمقصود أن الوفاء لمن تحبه لا يعارضه بذل النصح لوجه الله تعالى.

ليس من الوفاء:

- مقابلة إحسان من أحسن إليك بأن تجامله بشهادة زُور أو الإضرار بخصمه ظلمًا.
- الوفاء بعهد أو وعد أو التزام يُحِلُّ حرامًا أو يُحَرِّمُ حلالًا، بل الوفاء بمثل هذا حرام.

---

(١) قال الإمام أبو سعد السمعاني في «الأنساب» (٢/ ٣٦٦): «هذه النسبة إلى بويط، وهي قرية من صعيد مصر الأدنى. كان منها الإمام الصابر في المحنة، الباذِلُ رُوحَه في السُّنة: أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي، صاحب الشافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وخليفته بعده، حُمل إلى بغدادَ مقيدًا في فتنة خلق القرآن، ومات في السجن مقيدًا، ودُفِن كذلك».

أعطني قلبَك، والقني متى شِئْتَ



إن العبرة في الأخوة بخلوص الوُدِّ لا بكثرة اللقاء.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

زرتُ أحمدَ بنَ حنبل، فقلتُ له: يا أبا عبد الله، لو كُنْتُ آتيك على حقِّ ما تستحِقُّ لأتيتُك كلَّ يوم، فقال: لا تقل ذاك، فإن لي إخوانًا ما ألقاهم في كل سنةٍ إلا مرةً، أنا أوثقُ في مودتهم مِمَّن ألقى كلَّ يومٍ»[١].

أحسِبتمُ أن الليالـيَ غيَّرت ... عَقْدَ الهوى لا كان مَن يتغيرُ

يفنى الزمانُ وليس ننسى عهدَكم ... وعلى محبتكم أموتُ وأُحْشَرُ

آخر:

ما غَيَّرَ النَّأْيُ وُدًّا كنتَ تعرفُهُ ... ولا تبدلتُ بعد الذُّكْرِ نِسيانا

ولا حَمِدتُ وفاءً مِن أخي ثقةٍ ... إلا جعلتُك فوقَ الحمدِ عُنوانًا



(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٢٥٩)، و«مناقب الإمام أحمد» (ص١٥٢).

كلامٌ نفيسٌ للإمام ابنِ الجَوْزِيِّ



قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «صيد الخاطر»:

«كان لنا أصدقاءُ وإخوانٌ أعتَدُّ بهم، فرأيت منهم من الجفاء وتركِ شروط الصداقة والأخوَّةِ عجائبَ، فأخذتُ أَعْتِبُ.

ثم انتبهت لنفسي، فقلت: وما ينفع العتابُ؛ فإنهم إنْ صَلَحوا فلِلْعِتاب، لا للصَّفاءِ!

فهممتُ بمقاطعتهم، ثم تفكَّرتُ، فرأيت الناس بين معارفَ وأصدقاءَ في الظاهر، وإخوةٍ مباطنين؛ فقلت: لا تصلحُ مقاطعتُهم[1]، إنما ينبغي أن تنقلهم من ديوان الأخوَّةِ إلى ديوان الصداقة الظاهرة.

فإن لم يصلحوا لها نقلْتهم إلى جملة المعارف، وعاملتهم معاملة المعارف، ومِن الغلط أن تعاتبهم.

فقد قال يحيى بن معاذ: (بِئسَ الأخُ أخٌ تحتاج أن تقول له: اذكُرْني في دعائك!).

(١) وهذه هي الحكمة بعينها والكياسة والمرونة، خلافًا لموقف المُثَقِّب العبدي الشاعر الجاهلي الذي اتَّخَذَ موقف «الأبيض» أو «الأسود» حين قال:

فإما أن تكونَ أخي بحق	فأعرفَ منك غثي من سَميني
وإلَّا فاطَّرِحْني واتخِذْني	عَدُوًّا أتقيكَ وتَتَّقِيني

وجمهور الناسِ اليومَ معارفُ، ويَندُرُ فيهم صديقٌ في الظاهر، فأمَّا الأُخوَّةُ والمصافاةُ فذاك شيءٌ نُسِخَ فلا يُطمَعُ فيه.

وما أرى الإنسان تصفو له أُخوَّةٌ مِن النَّسَبِ، ولا ولدُه ولا زوجتُه.

فدَعِ الطمعَ في الصفا، وخُذْ عن الكل جانبًا، وعامِلْهم معاملة الغرباء.

وإيَّاك أن تَنخدِعَ بمن يُظهِرُ لك الوُدَّ؛ فإنه مع الزمان يَبِينُ لك الحالُ فيما أظهره، ورُبَّما أظهر لك ذلك لسببٍ يَنالُه منك.

وقد قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ:

(إذا أَرَدْتَ أن تُصادِقَ صديقًا فأَغضِبْهُ، فإنْ رأيتَه كما ينبغي فصادِقْهُ)(١).

وهذا اليومَ مُخاطَرةٌ؛ لأنك إذا أغضبت أحدًا صار عدوًّا في الحال.

والسبب في نسخ حكم الصفا: **أن السلف كانت همتهم الآخرة وحْدَها، فصَفَتْ نيَّاتُهم في الأُخوَّةِ والمخالطة، فكانت دِينًا لا دُنْيا.**

والآنَ فقد استولى حُبُّ الدنيا على القلوب، فإنْ رأيت مُتَمَلِّقًا في باب الدِّينِ فاخبُرْهُ تَقْلَهْ(٢).

---

(١) وفي هذا يقول الشاعر:

إذا كنتَ مُخْتَصًّا لنفسِكَ صاحِبًا	فمِن قَبْلِ أن تَلْقاهُ بالوُدِّ أَغْضِبْهُ
فإن كان في حالِ القطيعةِ مُنْصِفًا	وإلَّا فقد جَرَّبْتَهُ فتجنَّبْهُ

(٢) **اخبُرْ**: أي: اعرفه وجرِّبه.

وتَقْلَهْ: أي: تبغضه وتتركه؛ لما يظهر لك من مساويه، وأنه مسخط الفعل عند الخبرة والامتحان. والهاء في «تقله» هاء السكت. انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٨٤٦، ٤٣٥٧)، و«تاج العروس» للزَّبيدي (١١/ ١٣٣) و(٣٩/ ٣٤٣).

ماذا تفعل مع من زهد في صحبتك واستثقَل مودتك؟



ذهب بعض الناس في مثل هذه الحال إلى المعاملة بالمثل، منهم أبو القاسم الحريري الذي قال في «مقاماته»: «بل نتوازن بالمقال وزن المثقال، ونتحاذى في الفعال حذو النعال».

ما العَيْشُ إلا أن تُحِبَّ ... وأن يُحِبَّكَ مَن تُحِبُّه

وما يصدر عن الصديق إن كان من قبيل العثرة التي تقع في حال غفلة أو خطأ في اجتهاد الرأي؛ فذلك موضع الصفح والمغفرة والتجاوز، ولا ينبغي أن يكون له أثر كثير أو قليل في نقض الصداقة.

أما إذا كان عن زهد في الصحبة، وانصراف عن الصداقة، فلك أن تزهد في صحبته، وتقطع النظر عن صداقته.

فللكثافةِ أقوامٌ لها خُلِقوا ... وللمحبةِ أكبادٌ وأَجْفَانُ

آخر:

وعش إما قرينَ أخٍ وَفيٍّ ... أمينِ الغيب أو عيشَ الوِحادِ

آخر:

سريع إلى ظهر الطريق وإنه ... إلى نقض أسباب المودة أسرعُ

يطولُ علينا أن نُرَقِّعَ وَدَّهُ ... إذا كان في ترقيعه يتقطَّعُ

آخر:

ولا خـير في وُدِّ امـرئ متكارهٍ   عليك ولا في صاحبٍ لا تُوافِقُه

وقال الكُميت:

وما أنا بالنِّكْسِ[١] الدنيء ولا الذي   إذا صـدَّ عـني ذو المـودةِ يقربُ
ولكنه إن دام دمـتُ وإن يكن   له مذهب عني فلي عنه مذهب
ألا إن خـير الـودِّ ودٌّ تَطَوَّعت   له النفسُ لا ودٌّ أتى وهْوَ مُتْعَب

آخر:

أدُومُ بـوُدِّي للصديقِ تكرمًا   ولا خير في مَنْ كان في الوُدِّ أعرجا

آخر:

صِلْ مَن دنا وتناسَ مَن بَعُدا   لا تكرِهَنَّ على الهوى أحدا
قد أكْثَرَتْ حواءُ ما وَلَدَتْ   فإذا جفا ولدٌ فَخُذْ وَلَدا

آخر:

فلا تُصْفِيَن بالوُدِّ مَن ليس أهلَه   ولا تُبْعِدَنْ بالوُدِّ مِمَّنْ تودَّدا

وقال البحتري:

عـزمـي الـوَفـاءُ لِمَن وَفى   والغَـدرُ لَيسَ بـه خَـفـا
صِلْني أصِلْكَ فإنْ تخُن   فعَلى مودَّتِكَ العَفا[٢]

---

(١) النِّكْس: الضعيف العاجز الدنيء الذي لا خير فيه، والرَّذْلُ: المُقَصِّر عن غاية النَّجْدة والكرم.
(٢) عفاء الشيء: هلاكه وزواله.

وسمع الشبلي رجلًا يُنْشِد:

أردناكمُ صِرفًا فإذ قد مَزَجْتُمُ	فبُعدًا وسُحْقًا لا نُقيم لكم وزنا

فغُشي عليه.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تُقَصِّرْ في حَقِّ أخيك اعتمادًا على مَوَدَّتِهِ».

وقال الشاعر:

ما أراني إلا سأهجر من ليـ	ـس يراني أقوى على الهِجْرانِ
مَلَّني واثقًا بحسنِ وفائي	ما أضرَّ الوفاءَ بالإنسانِ

وهناك دلائل لا يبقى معها ريبٌ تقودك إلى التمييز بين عَثْرة تصدر من مُحِبٍّ وفيٍّ، وبين جفاءٍ مستحكم لا يصدر إلا من زاهد في مودّتك.

قال صالح بن عبد القدوس البصري:

يَا صاحِ لو كَرِهَتْ كَفِّي مُصاحَبتي	لقلتُ -إذْ كرِهَتْ قُربي لها- بِيني
لَا أَبتغي وَصْلَ مَن لا يبتغي صِلتي	وَلا أبالي حبيبًا لا يُباليني

ومن شعر الإمام الشافعي:

إذَا المَـرْءُ لَا يَـرْعَاكَ إلَّا تَكَلُّفًا	فَـدَعْـهُ وَلَا تُـكْثِرْ عَلَيهِ التَّأَسُّفَا
فَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ وَفِي التَّرْكِ رَاحَةٌ	وَفي القَلْبِ صَبْرٌ لِلْحَبِيبِ وَلَوْ جَفَا
فَمَا كُلُّ مَنْ تَهْوَاهُ يَهْوَاكَ قَلْبُهُ	وَلَا كُلُّ مَنْ صَافَيْتَهُ لَكَ قَدْ صَفَا

إِذَا لَمْ يَكُنْ صَفْوُ الـوِدَادِ طَبِيعَةً ... فَـلَا خَـيْرَ فِي وُدٍّ يَجِـيءُ تَكَلُّفًا

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا ... صَدِيقٌ صَدُوقٌ صَادِقُ الوَعْدِ مُنْصِفَا

آخر:

هَـجـرتُ أَحِـبَّـتي طَـوْعًـا لأنـي ... رأيــتُ قلـوبهـم تَـهْـوَى فِـراقـي

نـعـم يـشـتـاقُـهـم قـلـبي ولـكـنْ ... وضعـتُ كـرامـتي فـوقَ اشتياقي

وأرغــبُ في وِصـالِـهـمُـو ولكن ... طـريـقُ الــذلِّ لا تـهـواه ساقي

آخر:

سَـأَتْـرُكُ ما بيـني وبيـنَك واقِفًا ... فـإن عُـدْتَ عُدْنـا والـوِدادُ مُقِيمُ

تُـواصِـلُ قـومًـا لا وفـاءَ لعهدِهم ... وتـترك مِثْلي والحِفاظُ[1] قديمُ

وأنشد العتبي:

إذا كـنـتَ تَـغـضَـبُ مِـن غـيْر ذنبٍ ... وتَـعْـتِـبُ مِـن غـيْرِ جُـرْمٍ عَلَيَّا

طَـلَـبْـتُ رضـاك فـإنْ عَـزَّنـي ... عَـدَدْتُـك مَـيْـتًـا وإن كـنـتَ حيًّا



(١) الحِفاظ: الوفاء بالعهد.

من أسباب استبقاء الود:
الموازنة والتغافل واحتِمالُ العُيوبِ

مَـن ذا الَّـذي مـا سـاءَ قَـطّ ... ومَـن لـهُ الحُـسْنـى فـقـطْ

وقال هلال بن العلاء الرَّقِّيُّ:

كتب فيلسوف إلى مَن في درجته: أنِ اكتُبْ إليَّ بشيء ينفعني في عمري.

فكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. استَوْحَشَ مَن لا إخوان له، وفَرَّط مَن قصَّر في طلبهم، وأشدُّ تفريطًا مَن وجَد واحدًا منهم وضيَّعَهُ بعد وجْدِه إيَّاه، وإنِّي لَفي طلبهم منذ خمسين سنةً، فما ظَفِرتُ إلَّا بنصف أخٍ وتمرَّدَ عليَّ وانقلب!».

اشْـدُدْ يَـدَيْـكَ بِمَـنْ بَـلَـوْتَ وفـاءَهُ ... إنَّ الـوفـاءَ مِـنَ الـرِّجـالِ عزيزُ

ومن ثَمَّ قال أمير المؤمنين عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إذا أصاب أحدكم وُدًّا من أخيه فليتمسك به، فقلَّما يُصيب ذلك».

قال الأحنف: «الإخاء جوهرة رقيقة، إن لم تحرسها كانت معرَّضة للآفات، فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثرَ مِن نفسك الفضل، ولا من أخيك التقصير».

والأَوْلى بالجاحد الكفور الذي يقول لصديقه الوفي في غضبة يغضبها: «**ما رأيت منك خيرًا قطُّ**» أن يتمثَّل ما قاله الضيف الكريم لمضيفه الذي أحسن

إليه؛ فقد كان لرجُلٍ شجرةُ عنب كثيرة الثمر، فكان غارسها إذا مرَّ به صديقٌ له اقتطف عنقودًا ودعاه، فيأكله، وينصرف شاكرًا.

فلما كان اليوم العاشرُ قالت امرأةُ صاحبِ الشجرة لزوجها:

ما هذا أدب الضيافة، ولكنْ أرى إن دعوتَ أخاكَ، فأكل النصف، مددْتَ يدك معه مشاركًا؛ إيناسًا له، وتبسُّطًا، وإكرامًا.

فقال: لأفعلَنَّ ذلك غدًا.

فلمَّا كان الغدُ، وانتصف الضيف في أكله؛ مَدَّ الرجل يده وتناول حبَّة، فوجدها حامضة لا تُساغُ، وتَفَلَها، وقَطَبَ حاجبيه، وأبدى عجبه من صبر ضيفه على أكل أمثالها!

فقال الضيف: «قد أكلتُ من يدك مِن قبلُ على مرِّ الأيام حُلوًا كثيرًا، ولم أُحِبَّ أن أُريَك من نفسي كراهة لهذا تشوب في نفسك عطاءَك السالفَ».

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من صَدَقَ في مَوَدَّة أخيه قَبِلَ عِلَلَه، وسَدَّ خَلَلَه، وغفر زَلَلَهُ».

وقال الشاعر:

لم أؤاخِـــذْكَ إذ جَـنَـيْـتَ لأني ... واثِــقٌ مـنـك بـالإخـاء الصحيحِ



الإغماضُ عن عَثَراتِ الأصدقاءِ



يرى الباحثون في طبائع البشر أنْ ليس فيهم من يُتَّخَذُ صديقًا، ويُرْجَى منه أن يسير على ما يُرْضِي صديقَه في كل حال، ودَلَّتْهُمُ التجارِبُ على أن الصديق -وإن بلغت صداقتُه المنتهى- قد يظهر لك من أمره ما لا يلائم صِلةَ الصداقة؛ فلو أخذْتَ تهجر مِن إخوانك كلَّ مَن صدرت منه هفوةٌ لم تلبث أن تَفقِدَهم جميعًا، ولا يبقى لك على ظهر الأرض صديقٌ غير نفسك التي بين جنبيك!

وقد عَبَّر عن هذا المعنى النابغة الذبياني في قوله:

ولَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ[1] أخًا لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ[2]، أَيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ[3]؟!

ومراده: إن قطعتَ إخوانك بذنب؛ لم يبق لك أخ تَلُمُّه وتُصْلِح ما تَشَعَّث من أمره وفسد.

آخر:

أُغَمِّضُ لِلصَّديقِ عنِ المَساوي مَخافةَ أن أعيشَ بلا صديقِ

---

(١) مُستبقٍ: من استبقى أي عفا عن ذنوبه.

(٢) **الشَّعَث:** الفساد والعيب.

ومعنى: «لا تلمُّه على شَعَثٍ»: أي: لا تَحتَمِلُه على ما فيه مِن زَلَل، فتَلُمُّه وتُصلِحُه، وتَجمعُ ما تَشَعَّثَ مِن أمره. «لسان العرب» (٢/ ١٦١).

(٣) أيْ: أيُّ الناسِ لا تكون فيه خصلةٌ غير مرْضيَّة؟! ومن هو الإنسان الكامل الخالي من كل عيب؟!

وقال كُثَيِّرُ عَزَّة:

ومَـن يَـتَـتَـبَّـعْ جـاهـدًا كـلَّ عَـثْـرةٍ ... يَجِدْها ولا يَسْلَمْ له الدَّهْرَ صاحِبُ

وقد عبَّر عن هذا المعنى بشَّار بنُ بُرْدٍ إذ قال:

إذا كُنتَ في كُلِّ الذُّنوبِ مُعاتِبًا ... صَديقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذي لا تُعاتِبُهْ

فَعِشْ واحِـدًا أوْ صِـلْ أخـاكَ فإنَّهُ ... مُـقـارِفُ ذَنْـبٍ[1] مَـرَّةً ومُجانِبُهْ

إذا أنتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرارًا على القَذَى ... ظَمِئْتَ وأيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشارِبُهْ؟!

وقال علي بن الجهم:

ومن ذا الذي تُرضَى سجاياهُ كلُّها ... كفى المرءَ نُبلًا أن تُعَدَّ مَعايِبُه

وقال آخَرُ:

تَـلَـوَّنْـتَ ألـوانًـا عـلَـيَّ كثيرةً ... وخـالَـطَ عَـذْبًـا في إخـائِـكَ مالحُ

آخر:

أخ لـي كـأيـام الحـيـاة إخـاؤه ... تـلـوَّن ألـوانًـا كـثـيرًا خطوبُها

إذا عِـبـتُ مـنـه خَـلَّـةً فهجرتُه ... دعـتـني إلـيـه خـلـة لا أعيبها

ولـي صـاحـب فـالموت يـوم فراقه ... تـغـير والأيـــام جَـــمٌّ عجيبها

أريـد لـه هـجـرًا لـبـعـض خلاله ... فـتـعـطـفـني أخـرى لـه فأجيبها

وقال الطغرائي:

أخــاك أخــاك فـهـو أجـل ذخـرٍ ... إذا نـابـتْـك نـائـبـةُ الـزمـانِ

وإن بــانـت إســاءتُــه فَـهَـبْـهـا ... لمـا فـيـه مـن الـشِّـيَـمِ الحـسـانِ

تــريــد مــهــذبًــا لا عــيــبَ فيه ... وهــل عـــودٌ يَـفـوحُ بـلا دخــانِ

---

(١) **مقارف ذنبٍ:** أي: مُخالِطُه ومرتكبه، مِن: قارَفَ الخطيئةَ؛ إذا خالطها.

وقال أبو عثمان سعيد بن حميد:

إذا كنتَ لم تَعْفُ عن صاحبٍ أساءَ وعاقَبْتَهُ إن عَثَرْ
بَقِيتَ بلا صاحبٍ فاحْتَمِلْ وكُنْ ذا وفاءٍ وإن هُوَ غَدَرْ

آخر:

ومِن شِيَمي ألَّا أفارقَ صاحبي وإنْ ملَّني إلا سألتُ له رُشْدَا
وإن دام لي بالوُدِّ دُمْتُ ولم أكن كآخَرَ لا يرعى ذِمامًا ولا عهدَا

وعن الرَّبيعِ بن سليمانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: سمِعتُ الشافعيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «الكَيِّسُ العاقِلُ، هو الفَطِنُ المُتغافِلُ»(١).

وعن الأصمعيِّ، قال: قال أعرابيٌّ: «تَناسَ مَساويَ الإخوانِ؛ يَدُمْ لك وُدُّهُم»(٢)، وطريق ذلك أن تُعِدَّ مقبرةً جاهزة لتدفن فيها فورًا أخطاءَ الأصدقاء.

ما وَدَّني أحدٌ إلا بذلتُ له صَفْوَ المودةِ مني آخِرَ الأبَدِ
ولا جفاني وإن كنت المحِبَّ له إلا دعوتُ له الرحمنَ بالرَّشَدِ

آخَر:

وكنتُ إذا صافيتُ خِلًّا منحتُه بِهِجْرانهِ وَصْلًا ومِن غدره وفا

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٥٧٥/ رقم: ٨٠٣٠).
وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٩/ ١٢٣) بلفظ: «اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل»، وانظر رسالة «المداراة والتغافل» للمصنف.
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣/ ٥٠٤/ رقم: ١٠٦٨٦).

مِنَ الوفاءِ:
ألَّا تَهجُرَه إذا زلت قَدَمُه



الأُخوَّةُ عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقد تأكَّد الحقُّ، ووجب الوفاء بموجَب[١] العقد.

ومن الوفاء له: ألا يُهمِل أخاه أيام حاجته وفقره، وفقرُ الدِّين أشد من فقر المال، والأخوَّة عند النائبات وحوادث الزمان، وهذا من أشد النوائب.

والقريب[٢] ينبغي أن لا يُهجَرَ من أجل معصيته حتى يقامَ له بواجب النصيحة؛ وذلك لأجل قرابته، قال الله تعالى لنبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في عشيرته: ﴿ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢١٦]، ولم يقل: «إني بريئ منكم» لحق القرابة ولُحمة النسب.

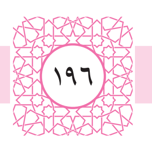
وعـن أنـس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: غـاب عمِّي أنسُ بـنُ النَّضْرِ[٣] عـن قتال بدر، فقال:

---

(١) **الموجَب -بفتح الجيم-:** المقتضى.

(٢) الهجر ثلاثًا أو دونه مقيَّد عند الإمام أحمدَ بها إذا كان لغير أقاربه ورَحِمه. سأله رجُل عن ابنة عم له تنال منه وتظلمه وتشتمه وتقذفه، فقال: «سلِّمْ عليها إذا لَقيتَها، اقطع المصارمة، المصارمةُ شديدة».
قال ابن مفلح: «وهذا يدل على منع الهجر لأقاربه لحقِّ نفسه». انظر: «الآداب الشرعية» (١/ ٢٣٨).

(٣) هو ممن قال فيهم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ مِن عِبادِ الله مَن لو أقسَمَ على الله لَأَبَرَّهُ**».
انظر: «صحيح البخاري» (٢٧٠٣، ٤٥٠٠، ٤٦١١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٥).



«يا رسول الله، غِبْتُ عن أوَّلِ قتالٍ قاتلْتَ المشركين، لَئِنِ اللهُ أشهَدني قتالَ المشركين، لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أصنعُ».

فلمَّا كان يومُ أُحُدٍ، وانكشف المسلمون، قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أعتذرُ إليك مما صنع هؤلاء -يعني: أصحابَه-، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني: المشركين-»، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: «يا سعد بن معاذ، الجَنَّةُ ورَبِّ النَّضْرِ، إني أجد ريحَها مِن دُونِ أُحُدٍ»... الحديثَ[١].

ولهذا أشار أبو الدَّرْداءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لَمَّا قيل له: ألَا تُبغِضُ أخاك وقد فعل كذا؟

فقال: «إنما أُبغِضُ عمله، وإلَّا فهو أخي».

والتفريق بين الأحباب مِن محابِّ الشيطان، كما أن مقارفة العصيان من محابِّه، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه، فلا ينبغي أن يُضاف إليه الثاني.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: «**لا تكونوا عَوْنَ الشيطانِ على أخيكم**»[٢].

فهذا أبو الدَّرْداءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول:

«إذا تغـيَّرَ أخـوك، وحـالَ[٣] عمَّا كان عليـه، فلا تَدَعْهُ لأجْـلِ ذلك؛ فإن أخاك يعوج مرة، ويستقيم أخرى».

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٥، ٤٠٤٨).
(٢) رواه البخاري (٦٧٨١).
(٣) **حالَ**: تغيَّرَ وانقلب.

وكذلك حُكيَ عن آخرينَ من السلف الصالح أنه انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه: ألَا تقطعُه وتهجره؟

فقال: «أحْوَجُ ما كان إليَّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته، أنْ آخُذَ بيده؛ حتى أنقذه من المصائب، وأدعوَ له بالعودة إلى ما كان عليه».

وقال أحد السلف في ستر زلَّات الإخوان:

«وَدَّ الشيطان أن يُلقي على أخيكم مِثلَ هذا حتى تهجروه وتقطعوه، فماذا أبقيتم من محبة عدوكم؟!».

وهفوة الصديق لا تخلو إمَّا أن تكون في دينه بارتكاب معصية، أو في حقك بتقصيره في الأُخوَّة.

١- أمَّا ما يكون في الدِّين:

مِن ارتكاب معصية، والإصرار عليها؛ فعليك التلطُّفُ في نصحه بما يُقَوِّمُ أَوَدَه[1]، ويجمع شمله، ويعيد إلى الصلاح والورع حالَه.

فإن لم تقدر وبقيَ مُصِرًّا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مَوَدَّتِه أو مقاطعته:

---

(١) أقام أَوَدَه: أزال اعوجاجه، وأصلح أمره، وقوَّمه.

فذهب أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الانقطاع، وقال:

«إذا انقلب أخوك عمَّا كان عليه، فأَبغِضْهُ مِن حيثُ أحببتَه».

ورأى ذلك مِن مقتضى الحب في الله، والبُغضِ في الله، لأن من أحبَّ لسبب؛ أبغضَ لوجودِ ضِدِّه.

وأمَّا أبو الدَّرْداءِ وجماعةٌ من الصحابة فذهبوا إلى خلافه:

فقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا تغيَّر أخوك وحالَ عمَّا كان عليه، فلا تَدَعْهُ لأجل ذلك؛ فإن أخاك يعوج مرة، ويستقيم أخرى».

وقال محمد بن عامر:

ولا تقطعْ أخًا لك عند ذنبٍ	**فإن الذنبَ يغفره الكريمُ**
ولكنْ داوِ عورتَه بِرُقَعٍ	**كما قد يُرْقَعُ الخَلِقُ القديمُ**

وقال إبراهيمُ النَّخَعيُّ:

«لا تقطَعْ أخاك ولا تَهجُرْهُ عند الذنْب؛ فإنه يركبه اليومَ، ويتركه غدًا».

وقال أيضًا:

«لا تُحَدِّثوا الناس بزَلَّةِ العالِمِ؛ فإنَّ العالِمَ يَزِلُّ الزَّلَّةَ ثم يتركها».

وفي الخبر: «اتَّقوا زلَّةَ العالِمِ، ولا تقطعوه، وانتظروا فَيْئَتَه»[1].

---

(١) أخرجه ابن عَدِيٍّ في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٧/ ١٩٢).
وقال الحافظ العراقي في «المغني»: «رواه البَغَوي في (المعجم)، وابن عَدِي في (الكامل) من حديث عمرو ابن عوف المُزَنيِّ، وضَعَّفاه».

وعن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يَفِدُ إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففقده عمر فقال: «ما فعل فلان ابن فلان؟» فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطَّوْلِ، لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: «ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه، وأن يتوب الله عليه». فلما بلغ الرجلَ كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي[(١)]. ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: فلم يزل يُرَدّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نَزَع فأحسن النَّزع. فلما بلغ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خبرُه قال: «هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زل زلَّة فسددوه، ووفقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه».

وفي رواية: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل عن أخ كان آخاهُ، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعضَ مَن قَدِمَ عليه، وقال: ما فعل أَخي؟

قال: ذلك أخو الشيطان!

قال: مَهْ[(٢)]!

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ١٢٧).

(٢) اسم فعل أمر، بمعنى: اكفُفْ.

قال الجوهري في «الصحاح» (٦/ ٢٢٥٠): «مَهْ: كلمة بُنِيَتْ على السكون، وهو اسمٌ سُمِّيَ به الفعلُ، ومعناه: اكفُفْ؛ لأَنَّه زجرٌ. فإن وصلتَ نوَّنتَ، فقلت: مَهٍ مَهٍ. ويقال: مَهْمَهْتُ به، أي: زجرتُه». وانظر: «تاج العروس» للزَّبيدي (٣٦/ ٥٠٦).

قال: إنَّه قارَفَ الكبائرَ حتى وقع في الخمر.

قال: إذا أردْتَ الخروج فآذِني(١).

فكتب عند خروجه إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر:١-٣]»، ثم عاتبه تحتَ ذلك وعَذَلَه(٢).

فلمَّا قرأ الكتاب بكى، وقال: «صدق اللهُ، ونصَحَ لي عُمَرُ»، فتاب ورجع.

١- وأمَّا زَلَّتُه في حقِّه بما يوجب إيحاشَه:

فلا خلاف في أن الأَولى العفو والاحتمال، بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن، ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد؛ فهو واجب بحق الأخوَّة(٣).

قال الشاعر:

إن جرى بيننا وبينَكَ عَتْبٌ ... وتناءتْ مِنا ومنك الديارُ

فالوِدادُ الذي عَهِدتَ قديمٌ ... والعِثارُ الذي أصبتَ جُبارُ(٤)



(١) أي: أعْلِمْني.

(٢) أي: لامَهُ.

(٣) «الإحياء» (٢/ ١٨٣-١٨٥).

(٤) **العثار:** الشر والزلل والسقوط، **والجُبار:** الهَدَر، الذي لا قصاص فيه ولا غُرْمَ.

لا تَثِقَنَّ بمَوَدَّةِ مَن لا يُحِبُّكَ إلَّا معصومًا

تأمَّلْ هذه العبارة التي قالها أبو عثمانَ النيسابوريُّ، والتي تؤسِّسُ لمنهج احتمال الصديق وإن زَلَّ.

قال أبو عمر بنُ نُجَيْد:

كنتُ أختلِفُ إلى أبي عثمانَ النَّيْسابوريِّ مدَّةً في وقت شبابي، وكنتُ قد حَظِيتُ عنده، فقُضِيَ من القضاء أني اشتغلتُ مرَّةً بشيء مما يشتغل به الفتيان، فنُقِل ذلك إلى أبي عثمانَ، فانقطعتُ عنه بعد ذلك، فافتقدني، فأقمتُ على انقطاعي عنه، وكنتُ إذا رأيتُه في الطريق أو من بعيدٍ اختفيتُ في موضع؛ حتى لا تقعَ عينُه عليَّ.

فدخلتُ يومًا سِكَّةً مِن السِّكَكِ، فخرج عليَّ أبو عثمانَ مِن عَطْفةٍ في السِّكَّة، فلم أجد عنه مَحِيصًا، فتقدمتُ إليه وأنا دَهِشٌ مُتَشَوِّشٌ، فلمَّا رأى ذلك قال لي: «يا أبا عمر، لا تَثِقَنَّ بمَوَدَّةِ مَن لا يحبُّك إلا معصومًا»[(١)].

وقد سُبِق أبو عثمانَ إلى هذا القول؛ سبقه إليه ذو النون المصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال أبو عثمانَ سعيدُ بنُ عثمانَ الخياطُ: سمِعتُ ذا النون يقول:

«لا تَثِقَنَّ بمحبَّةِ مَن لا يُحِبُّك إلا معصومًا»[(٢)].

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٤٥)، والبيهقي في «شُعَب الإيمان» (١٠/ ٥٧٦/ برقم: ٨٠٣١) مختصرًا.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٩/ ٣٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٥٧٦/ برقم: ٨٠٣٢) و(١٣/ ٥٠٥/ برقم: ١٠٦٨٧).

وفاءُ الأُمِّ لأولادِها



رغم أن الإسلام لم يحمد من المرأة كُرْهَها للزواج بعد زوجها[١]، لقد شكر ذلك لها، وأجزل عليه مثوبتها، إن اعتزمته، وأقدمت عليه وفاءً لأبنائها، ورعيًا لهم، وضنًّا بهم أن يضيعوا عند غير أبيهم.

عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**»، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّجَ بينهما شيئًا[٢].

ويُروى عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أني أرى امرأة تبادرني، فأقول لها: ما لَكِ؟ ومن أنتِ؟ فتقول: أنا امرأة قعدتُ على أيتام لي**»[٣]، أي: مات زوجها، وترك لها أيتامًا، فلم تتزوج، وقعدت على أيتامها تربيهم.

ويُروى عن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة**» -وأومأ يزيد بن

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٠٣)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٦٠٨)، (١٢٨١).
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٣).
(٣) رواه أبو يعلى في «المسند» (١٢/ ٧)، وضعَّفه البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٥/ ٤٨٨)، والألباني في «الضعيفة» (٥٣٧٤).

زريع الراوي بالوسطى والسبابة-، «**امرأة آمَتْ من زوجها، ذاتُ منصِبٍ وجمال، حَبَسَتْ نفسها على يَتاماها، حتى بانوا**[١]**، أو ماتوا**[٢]».

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخلَتْ عليَّ امرأة ومعها ابنتان لها، تسأل، فلمْ تجد عندي شيئًا، غير تمرة واحدة، فأعطيتُها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبرتُه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ ابتُلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن؛ كُنَّ له سِترًا من النار**»[٣].

وفي رواية لمسلم:

جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فِيها تمرة لتأكلَها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقَّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صَنَعَتْ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **قد أوجب لها بها الجنة، وأعتقها بها من النار**».

وهذه أم هانئٍ فاختةُ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أخت أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبنتُ عمِّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وراوية حديث الإسراء، فرَّقَ

---

(١) **السفعة:** نوع من السواد ليس بكثير، وأراد أنها بذلت نفسها ليتاماها، وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها، واسودَّ، وآمت -بالمد- أقامت بلا زوج، ومعنى بانوا: انفصلوا واستغنوا، وانظر: «عون المعبود» (١٤/ ٥٨).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٤٠٠٦)، وأبو داود (٥١٤٩)، وغيرهما، وقال محققو «المسند»: «حسنٌ لغيره إن شاء الله، وهذا إسناد ضعيف» (٣٩/ ٤٣٢)، وضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (١١٢٢).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٥)، ومسلم (٢٦٢٩)، والترمذي (١٩١٦).

الإسلام بينها وبين زوجها هبيرة[١]، وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين، فخطبها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت أم هانئ: يا رسول الله، لَأَنتَ أحبُّ إليَّ من سمعي ومن بصري، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلتُ على زوجي -تعني: رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن أضيِّع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أُضيِّعَ حق زوجي!

وهنا امتدحها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشكر لها ذلك، فقال: «**إن خير نساءٍ رَكِبنَ الإبلَ نساءُ قريش؛ أحْناه على ولدٍ في صِغَرِه، وأرعاهُ على بَعْلٍ** -أي: زوج- **في ذات يده**»[٢].

وانصرفت أم هانئٍ إلى الاهتمام بأمور أبنائها وتربيتهم تربية صالحة، فنشؤوا عالمين عاملين، وروى بعضهم عنها ما حدثت به عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأحاديث؛ أمثال ابن ابنها جَعْدة المخزومي، وابن ابنها يحيى بن جعفر، وابن ابنها هارون، وعاشت حتى خلافة أخيها عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وكان ذلك بعضَ عُذر أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حين خطبها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلت تقول له: إني مُصْبِيَةٌ[٣]، فأرسل إليها: «**أمَّا ما ذكَرْتِ**

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣١٢، ٣١٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠٨٢)، ومسلم (٢٥٢٧)، و«**أحناه**»: أكثره شفقة، والحانية على أولادها هي التي تقوم عليهم في حال يُتمهم فلا تتزوج، فإن تزوجت فليست بحانية.
ومعنى: «**أرعاه على بعل**» أي: أحفظ وأصون لماله بالأمانة فيه، والصيانة له، وترك التبذير في الإنفاق.
و«**ذات يده**»: ماله المضاف إليه.

(٣) أي: ذات صبيان، والصبي من لم يُفطم بعد، أو الصغير دون الغلام.

من أيتامك، فعلى الله وعلى رسوله»، فقالت عند ذلك: مرحبًا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وتلك أم سُلَيمٍ الغُمَيْصاءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، إحدى السابقات إلى الإسلام، أسلمت ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، وبايعَتْه حين مَقْدَمِه إلى المدينة، وكان إسلامها مراغمةً لزوجها مالك بن النضر، وكان ولدها أنس بن مالك يومئذٍ طفلًا رضيعًا، فكانت تقول له: «قل: لا إله إلا اللهُ، قل: أشهد أن محمدًا رسولُ الله»، فجعل ينطق بذلك أوَّلَ ما ينطق، فكان مما يثير الغضب في نفس مالك، فيقول لها: لا تُفسِدي عليَّ ولدي، فتقول: «إني لا أُفسِدُه!».

ثم أيأسه أمرُها، فخرج عنها إلى الشام، وهنالك لقيَ عدوًّا له، فقتله، فلما بلغها قتلُه -وكانت شابَّةً حَدَثة، وكثُر خُطَّابُها- قالت: «لا جَرَمَ، لا أفطم أنسًا حتى يدعَ الثدي، ولا أتزوج حتى يجلس في المجالس ويأمرني»، فوفت بعهدها وبَرَّتْ، وكان أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعرف لها تلك المِنَّة، ويقول: «جزى الله أمِّي عنِّي خيرًا؛ لقد أحسنت ولايتي».

حتى إذا شب أنس تقدم لِخِطبتها أبو طلحةَ زيدٌ -وكان مشركًا- فأبَتْ، ثم قالت له يومًا فيما تقول: «أرأيتَ حجرًا تعبده لا يضُرُّك ولا ينفعك، أو خشبة تأتي بها النجار، فينجرها لك: هل يضرك؟! هل ينفعك؟!»، وأكثرَتْ من أشباه ذلك الكلام، فوقع في قلبه الذي قالت، فأتاها فقال: «لقد وقع في

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٦٣٤٤)، (٢٦٦٦٩)، والنسائي (٦/ ٨١، ٨٢)، وقال الحافظ في «الإصابة»: «إسناده صحيح» (١٣/ ٢٢٣)، وصححه ابن حبان (١٢٨٢)، والحاكم (٤/ ١٧)، ووافقه الذهبي.

قلبي الذي قُلْتِ»، وآمَنَ بين يديها، قالت: «فإني أتزوجك، ولا أريد منكَ صَداقًا غير الإسلام»[١].

قال ثابت: «فما سمِعْنا بامرأةٍ قطُّ كانت أكرَمَ مهرًا من أمِّ سُلَيم: الإسلام»[٢].

وهذه امرأة من نساء اليَمامة تُدْعى: أمَّ أُثال -وكانت كأحسن النساء وجهًا-، فلما مات زوجها تدافَع الخُطَّاب على بابها، فردَّت كل خاطب؛ وفاءً لابنها أُثال، وفي ذلك تقول:

لعمر أُثال لا أفدي بعيشه ... وإن كان في بعض المعاش جفاءُ

إذا استجمعتْ أمُّ الفتى غَضَّ طَرْفَه ... وشاعَرَهُ دونَ الدِّثارِ بلاءُ

ذلك بعض حديث المرأة المسلمة في الوفاء لخير ما وُكِّلَتْ به، وخُلِقَتْ له، بعد العبودية لرب العالمين.



(١) رواه ابن سعد (٨/ ٤٢٥، ٤٢٦)، والنسائي (٦/ ١١٤)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «تحقيق سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٠٥).
(٢) رواه النسائي (٦/ ١١٤).

الأُمومةُ صِنْوُ التَّضحيةِ

تتنقل المرأة بعد ذلك إلى طَورٍ آخَرَ تبلغه، فتبلغ به غايةَ ما أُعِدَّت له من كمال النفس، وشرف العاطفة؛ ذلك هو طَور التضحية، فهناك تنزل المرأة عن حقها من الوجود لمن فُصِل عن لحمها ودمها؛ تسهر لينام، وتظمأ لِيَرْوَى، وتحتمل الألم المُمِضَّ راضيةً مغتبطةً لتُذيقه طعم الدَّعة، وتُنْشِيَهُ نسيم النعيم.

تلك هي التضحية بالنفس بلغت بها الأمومة غايتها، على حَدِّ قول مسلم بن الوليد:

يجودُ بالنفسِ إن ضَنَّ الجَوادُ بها	والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجُودِ

وهاك هذه القصَّةَ الشعرية الرمزية، التي يُظهر فيها الشاعر حقيقة قلب الأم، وما يُكِنُّه من مشاعرَ وعواطفَ، ورأفةٍ وحنان:

أغرى امرؤٌ يومًا غلامًا جاهلا	بنقوده كيما ينالَ به الوَطَرْ
قال ائتني بفؤاد أمِّك يا فتى	ولك الجواهرُ والدراهمُ والدُّرَرْ
فمضى وأغرز خِنجرًا في صدرها	والقلبَ أخرجهُ وعاد على الأثرْ
لكنه من فرطِ سرعته هوى	فتدحرج القلبُ المُقَطَّعُ إذ عَثَرْ
ناداه قلبُ الأم وَهْوَ مُعَفَّرْ	ولدي حبيبي هل أصابك من ضررْ؟!
فكأنَّ هذا الصوتَ رغم حُنُوِّهِ	غضبُ السماءِ على الغلامِ قد انهمرْ

فـدرى فـظـيـعَ جـنـايـةٍ لم يَجْنِها ... ولـدٌ سِـواه مـنـذ تـاريـخِ البشرْ

فـارتـدَّ نحـو الـقـلـب يغسـلـه بما ... فاضت به عيناهُ من سَيْلِ العِبَرْ

ويـقـولُ: يـا قـلـبُ انـتـقـم مـني ولا ... تـغـفـرْ فـإن جـريمـتي لا تُغتفَرْ

واسـتـلَّ خـنـجـرَهُ لـيـطـعن قلبَهُ ... طعنًا فيبقى عِـبْرةً لِمَـنِ اعتبَرْ

نـاداهُ قـلـبُ الأم كُـفَّ يـدًا، ولا ... تطعن فؤادي مرتين على الأثرْ(١)



(١) «خطر التبرج والاختلاط» لعبد الباقي رمضون (ص١٣٤، ١٣٥).

أنواع الفراق وآثارها على الأوفياء



«**مـا اجتمـع قـوم إلا تفرقـوا**»، هـي سـنة من سـنن الحياة، قـضى بها من تفـرد بالبقـاء، وحكم بالمـوت على جميـع الأحيـاء ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٨٨]، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٤].

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عِش ما شِئتَ فإنك ميت، وأحبِبْ مَن شئتَ فإنك مفارقه**» الحديث[1].

وقـد علمنـا أنه لابد لكل مجتمَع مـن افتراق، ولكل دانٍ مِـن تَناءٍ، وتلك عـادة الله في العبـاد والبـلاد حتـى يَـرِثَ اللهُ الأرض ومَـن عليهـا، وهـو خير الوارثين، وما شيء من دواهي الدنيا يعدل الافتراق.

سمع بعض الحكماء قائلًا يقول: الفراق أخو الموت، فقال: بل الموت أخو الفراق!

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٣)، والحاكم (٤/ ٣٢٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسَّنه بطرقه الألباني في «الصحيحة» رقم (٨٣١).

سئل إمام الحرمين حين جلس في موضع أبيه: «لِمَ كان السفرُ قطعةً من العذاب؟»[١] فأجاب على الفور: «لأنَّ فيه فراقَ الأحباب».

قال المتنبي:

أما الفراقُ فإنه ما أعهدُ	هو تَوْأمي لو أن بَيْنًا يُولَدُ
ولقد علمنا أننا سنطيعه	لما علمنا أننا لا نخلدُ

آخر:

أيَّنا قَدَّمَتْ حِمام المنايا	فالذي أَخَّرَتْ سريعُ اللَّحاقِ
لا يدومُ البقاءُ للخلق لكنْ	دوامُ البقاءِ للخلَّاقِ

آخر:

ولقد نظرتُ إلى الفراق فلم أجد	للموتِ لو فُقِدَ الفراقُ سبيلا
يا ساعةَ البينِ الطويلِ كأنما	واصلتِ ساعاتِ القيامةِ طُولا

وهذا شاعر ادَّعَتْ نفسُه عدمَ الجزع من الفراق، فلما عاينَتْهُ تحدَّاها فقال:

نصحتُكِ يا نفسُ لا تطمعي	وقلتُ حَذارِ فلم تسمعي
فإن كنتِ تستسهلينَ الوَدَاعَ	كما تدَّعِينَ إذًا وَدِّعي



(١) صدرُ حديثٍ رواه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧).

أقسامُ البَيْــن

والبَيْنُ ينقسم أقسامًا:

- **فأوَّلُها:** مدة يوقن بانصرامِها، وبالعودة عن قريب.

إن يــوم الــفــراق أحْـــرَقَ قلبي وَكَـوَانِــي الـفـراقُ بـالـنـار كـيًّا

إن قَـضَــى اللّهُ بـيـنـنـا باجتماعٍ لا ذكـرتُ الـفِـرَاقَ مـا دُمـتُ حيًّا

- ثمَّ بَيْنٌ يولده المحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان، وعُذره مقبول.

- ثمَّ بَيْنُ رحيلٍ وتباعُدِ ديارٍ، ولا يكون من الأَوْبَةِ[1] فيه على يقين خبر، ولا يحدث تلاقٍ، وهو الخطب الموجع، والهمُّ المُفظِع، والحادث الأشنع، والداء الدويّ.

ومِن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء: أن تكون شديدَ الجزع من المفارقة، نَفورَ الطبع عن أسبابها، كما قيل:

وجدتُ مصيباتِ الزمانِ جميعَها سِوى فُرقةِ الأحباب هيِّنةَ الخطبِ

وأنشد ابن عُيَيْنَةَ هذا البيت وقال:

«لقد عَهِدتُ أقوامًا فارقتُهم منذ ثلاثين سنةً، ما يُخَيَّلُ إلَيَّ أن حسرتهم ذهبت من قلبي».

(١) **الأوبة:** الرجوع.

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى تؤذنا بذَهابِ
لم يبلغا المعشار مِن حقيهما فَقْدُ الشبابِ وفُرْقَةُ الأحبابِ

وقال البارودي:

ولما وقفنا للوداع وأسْبَلَتْ مدامعُنا فوقَ الترائبِ كالمُزْنِ
أَهَبْتُ بصبري أن يعودَ فعَزَّني وناديتُ حِلْمي أن يثوبَ فلم يُغْنِ
فكم مهجةٍ من زفرةِ الوجد في لَظًى وكم مُقْلةٍ من غَزْرةِ الدمعِ في دَجْنِ

آخر:

ولما برزنا لتوديعهم بَكَوْا لؤلؤًا وبكينا عقيقا
أداروا علينا كؤوسَ الفراقِ وهيهاتَ مِن سُكْرِها أن نُفيقا
تولَّوْا فأتبعتُهم أدمعي فصاحوا الغريقَ وصِحْتُ الحريقا

وهل أصدق في وصف حال القلب عند الفراق من قول ابن دريد الأزدي:

قلبٌ تقطَّعَ فاستحال نَجِيعا[(١)] فجرى فصار مع الدموعِ دُمُوعا
رُدَّتْ إلى أحشائهِ زَفَراتُه فَفَضَضْنَ منه جوانحًا وضُلوعا
عَجَبًا لنارٍ ضُرِّمَتْ في صَدْرِه فاستنْبطَتْ مِن جَفْنِهِ يَنْبُوعا
لَهَبٌ يكونُ إذا تلبَّسَ بالحَشا قَيظًا ويظهرُ في الجُفونِ رَبيعا

واستصعب بعض المحبين الفراق بغير توديع فقال:

ولم أر في الذي قاسيتُ شيئًا أَمَرَّ من الفراق بلا وداعِ

---

(١) ماء نجيع: هنيء مريء.

غير أن منهم -لشدة وَقْعِ لحظات الفراق -آثر الهروب منها:

قال البحتري:

الله جـــارك فـي انـطـلاقـك ... تـلـقـاءَ شـامِـكَ أو عـراقـكْ

لا تـعـذِلَـنِّي فـي مـسـيري ... يـــومَ سِـــرْتَ ولم ألاقِـــك

إنـــي خـــشـــيـــتُ مـــواقـــفـــا ... لـلـبـين تـسـفـح غَـرْبَ مـاقِـك[1]

وعـــلـــمـــتُ أن بـــكـــاءنـــا ... حـسـب اشـتـيـاقـي واشـتـيـاقـك

وذكـــرت مـــا يـجـــد المــــودع ... عـــنـــد ضَـــمِّـــكَ واعـتـنـاقِـك

فـــتـركـــتُ ذاك تـــعـــمـــدًا ... وخـــرجـــتُ أهـــرب مـــن فـــراقـك

وقال إسحاق بن راهويه:

فـــراقـك مـثـل فـــراق الحـيـاة ... وفـقـدك مـثـل افـتـقـاد الـدِّيَـمْ[2]

عـلـيـك الـسـلام فـكـم مـن وفـاء ... أفـــارق مـنـك وكـم مـن كـرم

آخر:

ثـلاث يَـعِـزُّ الـصـبرُ عـنـد حلولها ... ويـذهـب عـنـهـا عـقـلُ كـلِّ لـبـيـبِ

خـروجُ اضـطـرارٍ مـن بـلادٍ تُحِبُّها ... وفُـرقـةُ إخـوانٍ وفَـقْـدُ حـبـيـبِ

آخر:

لـيـس الـفـراق وإن جـزعـت بـضـائـر ... مـا لم تـفـرق بـيـنـنـا الأخـلاقُ

إن لم يَـحُـلْ حَـدَثُ المـنـيـةِ بـيـنـنـا ... فـسـنـلـتـقـي وسـيُـحْـفَـظُ الميثاق

والـدهـر يـجـمـع بـين كـل مـفـارق ... ولـكـل مـلـتـقـيـين مـنـه فـراق

---

(١) **الغَرْبُ:** الدَّمْع. **والماق:** طَرَفُ العين مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع.

(٢) **الدِّيَم:** جمع دَيْمة، وهي المطر يطول زمانه في سكون.

آخر:

وغادروا القلب ما تهدا لواعجه ... كأنه بضرام النار مشتعلُ

يا راحل العيس عرج كي نودعهم ... يا راحل العيس في تَرْحالك الأجل

إني على العهد لم أنقض مودتهم ... يا ليت شعري لطول البين ما فعلوا

آخر:

بقيتُ غداةَ النوى حائرا ... وقد حان ممن أحب الرحيلْ

فلم تبق لي دمعة في الشؤون ... إلا غدت فوق خدي تجول

فقال نصيحٌ من القومِ لي ... وقد كاد يقضي عليَّ الغليل

ترفق بدمعك لا تُفْنِهِ ... فبين يديك بكاءٌ طويلْ

- أما بَيْنُ الموت، فهو الفوت، وهو الذي لا يُرجى له إياب، وهو المصيبة الحالَّة، وهو قاصمة الظهر، وداهية الدهر، فلا حيلة إلا الصبر طَوعًا أو كرهًا، وهو أجَلُّ ما يُبتلى به المُحبُّون، وهو الغم الذي يتجدد على قدر البلاء.

كل بَيْنٍ واقع ... فمُرَجًّى لم يَفُتْ

لا تَعَجَّلْ قَنِطًا ... لم يَفُتْ مَن لم يَمُتْ

والذي قد مات فاليـ ... ـيأسُ عنه قد ثبت[(١)]

وقال أبو الحسن البرمكي: أنشدني الجاحظ:

وكان لنا أصدقاء مَضَوْا ... تفانَوْا جميعًا فما خُلِّدوا

تساقَوْا جميعًا كُؤوسَ المَنونِ ... فمات الصَّديقُ وماتَ العدو[(٢)]

(١) «طوق الحمامة» لابن حزم (ص١٠١، ١٠٢).

(٢) «وَفَيَات الأعيان» لابن خلِّكان (٣/ ٤٧٤).

ويُروى أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تمثَّلَتْ عند قبر أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقول مُتَمِّم بنِ نُوَيْرَةَ:

وكُنَّا كَنَدْمانَيْ جَذِيمةَ حِقْبةً ... مِنَ الدَّهرِ حتَّى قيل لن يَتصَدَّعَا

وعِشْنا بخيرٍ في الحياةِ وقَبْلَنا ... أصاب المنايا رهْطَ كِسْرى وتُبَّعَا

فلمَّا تفرَّقْنا كأنِّي ومالكًا ... لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معَا[1]

ومات صديق لسليمان بن عبد الملك، يقال له شَراحِيلُ، فتمثَّلَ عند قبره:

وهَوَّن وَجْدي في شَراحيلَ أنَّني ... متى شِئتُ لاقيتُ امرَءًا مات صاحبُهْ[2]

وقالت الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكين حوْلي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزِّي النفسَ عنه بالتأسي

ويُنسَب لغسان بن جهضم:

غَدَرْتِ به لَمَّا ثوى في ضريحِه ... كذلك يُنسى كلُّ مَن يَسكُنُ اللَّحْدَا[3]

وقال أبو العتاهية:

سيُعرَضُ عن ذِكْري وتُنسَى مَوَدَّتي ... ويَحدُثُ بعدي للخليلِ خليلُ[4]

---

(١) «الكامل في اللغة والأدب» للمُبَرِّد (٤/ ٢٦).
(٢) «نفسه» (٤/ ٢٦).
(٣) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦٨/ ٢٠٨).
(٤) «وفيات الأعيان» (١/ ٢٢٢).

وقال البُحْتُرِيُّ:

فوَا أسفاه ألا أكونَ شهدتُه | فخاست[١] شمالي عنده ويَميني
وألا لقيت الموت أحمرَ[٢] دونه | كما كان يلقى الدَّهرَ أغبرَ دوني
وإن بقائي بعده لخيانةٌ | وما كنت يومًا قبلَه بخؤون[٣]

وقال آخَرُ:

ومن عجبٍ أن بتَّ مستشعر الثرى[٤] | وبتُّ بما زوَّدتني متمتِّعَا
ولو أنني أنصفتك الوُدَّ لم أبِتْ | خلافك حتى ننطوِي في الثَّرى معَا

(١) **خاست:** لزمت موضعها واحتبست.
(٢) **أحمر:** أي في أوج شدته.
(٣) هذا البيت وما يليه يعبر عما يُسمَّى في «الطب النفسي»: شعور الناجي بالذنب (Survivor's Guilt) أو (Survivor Syndrome) وبدأ شيوع هذا التشخيص في الستينيات من القرن الماضي، وهو الآن يدرج ضمن اضطراب انعصاب ما بعد الشدة (PTSD)، وهي حالة نفسية تتميز بالقلق والاكتئاب والانسحاب الاجتماعي واضطراب النوم، والكوابيس، وأعراض جسدية كالصداع وآلام المعدة والخفقان، وفقدان الدافعية، وتكرر ذكريات الحادث (Flashbacks)، ويعاني منها الباقون على قيد الحياة والناجون الذين قُتِل معارفهم وأقاربهم في الحروب والكوارث والأوبئة أو حالة رسوب صديقه، فيشعر الناجي بالذنب كأنه (خانهم) لأنه نجا، ويتساءل: كيف لم أمنع حدوث ذلك؟ ولماذا لم أمُتْ مكانهم؟ وكأن نجاته من دونهم خيانة وجريمة، مع أنه في الواقع لم يرتكب أي خطأ، لكن (ذنب الناجي) استجابة طبيعية للخسارة، ويتم التأقلم مع (ذنب الناجي) عن طريق أن يحمد الله أنه نجَّاه وعافاه، ويلزم دعاء: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري، وفضَّلني على كثيرٍ ممن خلق تفضيلًا»، وأن لا يقمع شعوره ويعترف به ببساطة، وأن يُنفِّس عن مشاعر حزنه بالكلام، ولا يمنع نفسه من البكاء، ويُغيِّر منظوره للموقف بأن يستحضر أنه ليس مسؤولًا عما حدث، ويفكر في المسؤول الحقيقي إن وُجِدَ، وأن الله لن يُحاسِبَه على جناية غيره، ويحافظ على نظام حياته اليومي، وأن يُدوِّن مشاعره وأحلامه، وأن يخضع لمساعدة احترافية حسب ما تقتضيه حاجته.
(٤) **مستشعر الثرى:** كأنه جعله شعارًا له في قبره، والشعار ما وَلِيَ الجسدَ من الثياب.

وأنشد بعضهم:

أبـلـغْ أخـا الإحـسـان لـي حُسْنا ... أنـي وإنْ كـنـتُ لا ألـقـاهُ ألقاهُ

وأنَّ طـرفي مـوصـولٌ بـرؤيـتـه ... وإنْ تـبـاعـدَ عـن مـثـوايَ مثواهُ

اللهُ يـعـلـمُ أنِّـي لـسـتُ أذْكُـره ... وكيف أذكره مَنْ لستُ أنساهُ؟!

ومعنى الوفاء: الثبات على الحب لأخيه، وإدامته إلى الموت، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه؛ فإن الحب في الله إنما يُراد به ما عند الله عَزَّوَجَلَّ، فلا ينتهي بموت أخيه، وما كان لله دام واتصل.

قال بعضهم: «قليل الوفاء بعد الوفاة، خير من كثيره في حال الحياة».

وقال أحد الصالحين:

«أين مثل الأخ الصالح؟ إن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه، ويتمتعون بما خلَّف، والأخ الصالح ينفرد بالحزن، مهتمًّا بما قَدِم أخوه عليه، وما صار إليه، يدعو له في ظلمة الليل، ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرى».

ولما تُوُفِّيَ والد العلَّامة صديق حسن خان رباه عِدَّةٌ من أصدقاء والده.

أَخُوك الذي لا ينقُضُ النَأْيُ عهدَهُ ... ولا عندَ صرفِ الدَّهرِ يَزْوَرُّ جانبُهُ

وليس الذي يلقاك في البِشْرِ والرِّضا ... وإن غِبتَ عنه لَسَّعَتْكَ عقاربُهْ

قال الحسن:

«إن كان الرجُل لَيَخْلُف أخاه في أهله بعد موته أربعين سنةً».

وقال هُريم بن سفيان:

كان عمرو بن قيس المُلائي يمرُّ بنا في كل جمعة، ومعه هديَّة قد حملها، يأتي بها منزل منصور بن المعتمر، وذلك بعد موت منصور بها شاء الله، فلم يَزَلْ على ذلك حتى مات، قال: فبلغني أن أهله(١) كانت تعاهدهم بنحو من ذلك بعد ما مات عَمرٌو.

وعن بِسْطام التيمي، قال:

رأيت طلحة بن مُصَرِّفٍ يخرج من زُقاق ضيِّق في التيم، فقلت: «من أين يجيء طلحة؟» قالوا: «يأتي أمَّ عمارة ابن عمير، يَبَرُّها بالنفقة والكسوة والصِّلة». وذاك بعد موت عمارة ببضعَ عَشْرَةَ سنةً، وكانت أم عمارة أعجمية.



(١) يعني زوجة عمرو بن قيس.

الوفاء للوالدين بعد موتهما



عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»[1].

وعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يُعْمَلُ به من بعده**»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**تُرْفَعُ للميت بعد موته درجة، فيقول: أي رب! أي شيء هذه؟ فيقال: ولدك استغفر لك**»[3].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن امرأة من جُهينة جاءت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: «إن أمي نذرت أن تحجَّ فماتت قبل أن تحجَّ، أفأحجُّ عنها؟»، قال: «**نعم! حُجِّي عنها، أفرأيتِ لو كان على أمكِ دَيْنٌ أكنتِ قاضيتَه؟**»، قالت: «نعم»، قال: «**فاقضوا الذي له، فإن الله أحقُّ بالوفاء**»[4].

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٢٥٧٦).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤١)، وابن حبان (٨٤، ٨٥)، وصحَّحه الألبانيّ في «صحيح ابن ماجه» (١٩٧).

(٣) انظر تخريجه (ص١٣٢).

(٤) رواه البخاري (٧٣١٥)، (٦٦٩٩)، (١٨٥٢).

ويُروى عن أبي أسـيد مالك بن ربيعة السـاعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: بينما نحن جلـوسٌ عنـد رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذ جـاءه رجـل من بنـي سَـلِمةَ، فقال: يا رسول الله، هل بقي مِنْ برِّ أَبَوَيَّ شيءٌ أَبَرُّهما بعد موتهما؟

فقال: «**نعم؛ الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرام صديقهما**»[١].

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنه كان إذا خرج إلى مكة، كان له حمارٌ يتروَّحُ عليه إذا ملَّ ركوب الراحلة، وعمامة يشد بها رأسه، فبينما هو يومًا على ذلك الحمار، إذ مَرَّ به أعرابيٌّ، فقال: أَلَسْتَ ابنَ فلان؟

قال: بلى.

فأعطاه الحـمار، فقال: «اركـب هـذا»، والعمامة، وقـال: «اشـدُد بها رأسك».

فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك، أعطيتَ هذا الأعرابيَّ حمارًا كنت تَرَوَّحُ عليه، وعمامةً كنت تَشُدُّ بها رأسك؟!

فقـال: إني سـمعت رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقـول: «**إن من أَبَرِّ الـبر صِلَةَ الرجُلِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يُوَلِّي**»[٢]، وإن أباه كان وُدًّا لِعُمَرَ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٠٥٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، وابن حبان (٤١٨)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٢)، وأبو داود (٥١٤٣)، والترمذي (١٩٠٤).

وفي رواية البخاري في «الأدب المفرد»، وكذلك الترمذي مختصرًا: **«إن أبر البر أن يَصِلَ الرجلُ أهلَ وُدِّ أبيه»**.

ويُروى عن عبد الله بن دينار بلفظ:

مـرَّ أعـرابي في سـفر، فـكان أبـو الأعـرابي صديقًـا لِعُمـرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال للأعرابي:

ألَسْتَ ابنَ فلان؟

قال: بلى.

فأمر له ابن عمر بحِمارٍ كان يستعقب[1]، ونزع عمامته عن رأسه فأعطاه.

فقال بعض من معه: أما يكفيه درهمان؟[2].

فقـال: قـال النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«احفـظ وُدَّ أبيك، لا تقطعـه فيطفئ الله نُورَك»**[3].

وعن ثابتٍ البُناني، عن أبي بُرْدةَ قال:

قَدِمتُ المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر، فقال:

أتدري لِمَ أتيتُك؟

(١) أي: يستريح عليه إذا ضجر من ركوب البعير.

(٢) وعند مسلم: قال ابن دينار: «قلنا له: إنهم الأعراب، وهم يَرْضَوْن باليسير».

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٠)، وقال الحافظ العراقي: «إسناده جيد»، وحسَّنه الهيثمي، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢١٠).

قال: قلت: لا.

قال: «سَمِعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (**مَن أحَبَّ أن يَصِلَ أباه في قبره، فلْيَصِلْ إخوانَ أبيه مِن بعده**)، وإنه كان بين أبي: عُمَرَ، وبين أبيك إخاءٌ وَوُدٌّ، فأحببت أن أصلَ ذلك»[١].

فمَن أحب إنسانًا حبًّا شديدًا أحب مُحِبَّ ذلك الإنسان، وأحب محبوبه، وأحب من يخدمه، وأحب من يثني عليه محبوبه، وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه، حتى قال بقية ابن الوليد:

«إن المؤمن إذا أحب المؤمنَ أحب كلبه».

رأى المجنونُ في البيداء كلبًا	**فجرَّ له من الإحسانِ ذَيْلا**
فلاموه لذاك وعنَّفوه	**وقالوا: لِمْ أنلتَ الكلبَ نَيْلَا؟**
فقال: دَعُوا الملامةَ إنَّ عيني	**رَأَتْهُ مرةً في حَيِّ ليلى**

ومما قاله «فارس السيف والقلم» محمود سامي البارودي رَحِمَهُ اللهُ يرثي أمَّه:

لَعَمْري لَقَدْ غَالَ الرَّدَى مَنْ أُحِبُّهُ	**وَكَانَ بِوُدِّي أَنْ أموتَ ويَسْلَمَا**
وَأَيُّ حياةٍ بعدَ أُمٍّ فقدتُها	**كَمَا يَفْقِدُ المَرْءُ الزُّلَالَ عَلَى الظَّمَا**
تَوَلَّتْ، فَوَلَّى الصَّبْرُ عَنِّي، وَعَادَنِي	**غرامٌ عليها، شفَّ جسمي، وأسقما**

(١) أخرجه ابن حبان (٢٠٣١)، وصحَّحه الألباني على شرط البخاري كما في «السلسلة الصحيحة» (١٤٣٢).

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ذُكْرَةٌ تَبْعَثُ الأَسى ... وَطَيْفٌ يُوافِيني إِذَا الطَّرْفُ هَوَّمَا

وَكَانَتْ لعيني قرةً، وَلمهجتي ... سرورًا، فخابَ الطرفُ وَالقلبُ منهما

فَلَوْلَا اعْتِقَادي بِالقَضَاءِ وَحُكْمِهِ ... لَقَطَّعْتُ نفسي لهفةً وَتَنَدُّما

تألمت فُقدان الأَحِبَّةِ جازِعًا ... وَمَنْ شَفَّهُ فقدُ الحبيبِ تألما

وَقَدْ كنتُ أخشى أَنْ أراكِ سقيمةً ... فكيفَ وَقَدْ أصبحتِ في التُّرْبِ أَعْظُما؟

فيا ربةَ القبرِ الكريمِ بما حوى ... وَقَتْكِ الرَّدَى نَفْسِي وَأَيْنَ؟ وَقَلَّمَا

وَهَلْ يَسْتَطِيعُ المَرْءُ فِدْيَةَ رَاحِلٍ ... تَخَرَّمَهُ المِقْدَارُ فِيمَنْ تَخَرَّمَا؟

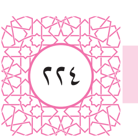
سَقَتْكِ يدُ الرِّضْوانِ كأسَ كرامةٍ ... منَ الكوثرِ الفياضِ معسولةَ اللمى

لِيَبْكِ عَلَيْكِ القَلْبُ، لَا العَيْنُ؛ إِنَّني ... أرى القلبَ أوفى بالعهودِ وَأكرما

فواللهِ لَا أنساكِ ما ذرَّ شارقٌ ... وَمَا حَنَّ طَيْرٌ بِالأَرَاكِ مُهَيْنِمَا

عَلَيْكِ سَلَامٌ لَا لِقَاءَةَ بَعْدَهُ ... إِلَى الحَشْرِ إِذْ يلْقى الأَخِيرُ المُقَدَّمَا





وفاء الزوج لزوجته



مِن الأزواج مَن قَلَّ حظُّه من الوفاء؛ فلا همَّ له من زوجته سوى نصيبه منها؛ فلا يحفظ حقها إلا ما دام راغبًا فيها، وما دامت في شرخ شبابها، وغضارة نضارتها، وكامل صحتها، ووفرة مالها.

فإذا ما كبِرَتْ، أو مرِضت، أو افتقرت؛ أعرَض عنها، ونسيَ ما كان من سالف الوُدِّ بينه وبينها، ولم يقدِّر لها صبرها عليه، وقيامها بحقه!

يقول الشاعر مُنزهًا نفسه عن هذا الخلق الذميم:

تقول العدى لا بارك الله في العِدى ... قد اقصَرَ عن ليلى ورثَّت وسائلُه

ولو أصبَحَت ليلى تَدِبُّ على العصا ... لكان هَوَى ليلى جديدًا أوائلُه

- ومن قلة الوفاء أن يطلِّق الرجل زوجته ضِرارًا إذا مرِض مرضًا يخشى منه الموت؛ كي يحرَمها من الميراث!

- ومن ذلك أن يسافر عنها كثيرًا دونما حاجة للسفر.

إلى غير ذلك من صور قلة الوفاء التي تدل على لؤم الطبع، وقلة الرعاية لحفظ الذمام.

أمَّا كِرام الناس، وأهل الوفاء منهم: فإنهم يحفظون الوُدَّ، ولا ينسون الإحسان، مهما تقادم عليه الزمان.

ومـن أولى مـا يُـعْـنَـون بحفظه: حق الزوجات اللواتي وهبنهم البر والإخلاص، وحسن المعاشرة؛ فترى أولئك الكرام يحفظون عهود الوُد، فيذكرون زوجاتهم بالخير، ويدعون لهن، ويقفون إلى جانبهن بالمواساة إذا مرِضْنَ، أو كَبِرْنَ، أو أُصِبْنَ ببلية، بل لو حصل بينهما طلاق، بل ويحفظون حقهن بعد مماتهن.

وقد تظهر هذه العواطف في تشوق في حال غَيبةٍ، كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ متشوقًا إلى زوجته ليلى الحلبية:

رحَلْتُ وخلَّفتُ الحبيبَ بداره	**بِرَغْمِي ولم أجنحْ إلى غيرِه مَيْلا**
أُشاغِلُ نفسي بالحديثِ تَعَلُّلا	**نهاري وفي ليلي أحِنُّ إلى ليلى**[1]

قال ابن زريق البغدادي لما ودع زوجته خارجًا لطلب الرزق في قصيدته العينية الطويلة المسماة باليتيمة:

أستودع الله في بغدادَ لي قمرًا	**بالكرخ من فلك الأزرار مطلعُهُ**
ودعته وبودي لو يودعني	**طيبُ الحياة وأني لا أودعه**

إلى أن قال:

بالله يا منزل الأُنس الذي درست	**آثاره وعفت مُذْ بِنْتُ أرْبُعُهُ**
هَل الزمانُ مُعيدٌ فيك لَذَّتنا	**أم الليالي التي أمْضَت تُرجِّعه**

(١) «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسخاوي (١/ ١٩٨).

في ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيثٌ على مغناك يمرعه

من عنده ليَ عهدٌ لا يضيع كما ... عندي له عهدُ ودٍّ لا أضيِّعه

ومن يُصَدِّع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكري يُصَدِّعُه

وهذا ابن دراج القسطلي يقول عند وداع زوجته:

ولما تدانت للوداع وقد هفا[1] ... بصبري منها أَنَّةٌ وزفيرُ

تُناشِدُني عهدَ المودةِ والهوى ... وفي المهد مبغومُ[2] النداءِ صغيرُ

وطار جَناحُ الشوقِ بي وهَفَتْ به ... جوانِحُ من ذُعْرِ الفراقِ تَطيرُ

آخر:

يا وردةً لم يزل في جَوِّها أثر ... من نفحها آهِ لو عادتْ لياليكِ

ذكرتُ بعدكِ أيامي التي ذهبت ... فاشتقتُها غيرَ يومٍ خانني فيكِ

يومَ افترقنا على أني أراكِ غدًا ... فلم أجد في غدٍ إلا تجافيكِ

وهذا أبو عثمان سعيدُ بن حُميد يُشفِقُ على نفسه وأهله من ساعة الافتراق بالموت، فلا يرى نجاةً له ولها من ألمها إلا بأن يرجو أن يقترنا في المات كما اقترنا في الحياة:

لا مُتّ قبلَكِ بل أحيا وأنتِ معا ... ولا أعيش إلى يومٍ تموتينا

لكن نعيش لما نهوى ونأمله ... ويُرغِم الله فينا أنفَ واشينا

---

(١) **هفا الريح بالشيء**: حَرَّكَتْه وذهبت به.

(٢) **بَغَمَت الغزالة**: صاحت إلى ولدها بصوت لين، ويقال لكل ذي صوت: بَغَم صوته أي لان ورَقَّ، والبغوم: صوت الأم إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها.

حتى إذا قدَّرَ الرحمنُ ميتتنا ... وحالَ من أمرنا ما ليس يُغنينا
مِتنا جميعًا كغُصنَيْ بانة ذَبُلا ... مِن بعد ما نضرا واستسقيا حينا
في مثلِ طرفةِ عينٍ لا أذوق شجًى ... من المماتِ ولا أيضًا تذوقينا

- ولما حضرت الوفاة يحيى الهندي الأندلسي أوصى بأن يُدفَن حِذَاءَ زوجته التي كانت قد تُوُفِّيتْ قبله، وحزن عليها حزنًا شديدًا فقال:

إذا متُّ فادفني حذاء خليلتي ... يخالط عظمي في التراب عظامَها
ورتِّبْ ضريحي كيفما شاءه الهوى ... تكون أمامي أو أكون أمامها
لعل إله العرش يجبر صرعتي ... فيعلي مقامي عنده ومقامها

ومن شعر البارودي يرثي زوجته:

أبلتني الحسراتُ حتى لم يكد ... جسمي يلوحُ لأعينِ العُوَّادِ
لا لوعتي تَدَعُ الفؤادَ ولا يدي ... تقوى على رَدِّ الحبيب الغادي
يا موتُ فيمَ فجعَتني بحليلةٍ ... كانت خلاصةَ عُدّتي وعَتادي
أسليلةَ القمرين أيُّ فَجيعةٍ ... حَلَّت لفقدِكِ بين هذا النادي
لو كان هذا الموتُ يقبل فِدية ... للنفسِ عنكِ لكنتُ أولَ فادِي
لكنها الأقدار ليس بناجع ... فيها سوى التسليمِ والإخْلادِ
هيهات بعدكِ أن تَقَرَّ جوانحي ... أسفًا لبُعْدِكِ أو يلينَ مِهادي
وَلَهى عليكِ مصاحِبٌ لمسيرتي ... والدمعُ فيكِ ملازم لوِسادي
فإذا انْتَبَهْتُ فأنتِ أولُ ذُكْرَتي ... وإذا أويتُ فأنتِ آخِرُ زادي

تعس امـرؤٌ نسي المعاد وما دري ... أن المـنـونَ إلـيـه بـالمـرصـادِ
فاستهدِ يا محمودُ ربك والتمس ... مـنـه المعـونـة فـهـو نِـعْـم الهـادي
واسـألـه مـغـفـرةً لمن حَـلَّ الثرى ... بالأمسِ فهو مُجِيبُ كلِّ منادي
هـي مـهـجـةٌ ودَّعْــتُ يــومَ زِيـالِهـا ... نـفـسـي وعـشـت بحـسْـرَةٍ وبِـعـادِ
تـاللهِ مـا جَـفَّـتْ دمـوعـي بعدما ... ذهـب الـردي بـكِ يـا بْـنـة الأمجادِ
لا تحسبيني ملتُ عنكِ مع الهوى ... هـيـهـاتَ مـا تـرك الـوفـاء بعَادي
قد كدت أقضي حسرةً لو لم أكن ... مـتـوقـعًـا لُـقـيـاكِ يــومَ مَـعَـادي
فعليكِ من قلبي التحيةُ كلما ... نـاحـت مُـطَـوَّقَـةٌ عـلـى الأعـوادِ

آخر:

إذا جَنَّ لَيْلِي هامَ قلبي بذِكرِكمْ ... أَنُـوحُ كما نـاح الحـمـامُ المُطَوَّقُ
وفوقي سحابٌ يُمْطِرُ الهَمَّ والأسى ... وتحـتي بِحـارٌ بـالـدموعِ تَـدَفَّـقُ[1]



(١) ومن الشعراء الذين رثوا زوجاتهم: جرير، وأبو تمام، والشريف الرضي، ومحمد بن عبد الملك، والطغرائي، وابن نباتة، وممن كتبوا ديوانًا جَرَّدوه لرثاء الزوجة: عزيز أباظة، وعبد الرحمن صدقي، والدكتور محمد رجب البيومي.

وفاءُ الزَّوجةِ لزَوجِها



إن الثبات على صدق الوفاء من أفضل ما تتحلى به النساء؛ ولهذا درجت المرأة المسلمة على مواتاة زوجها ومصافاته، واستخلاص نفسها له، واحتمال نَبْوة الطبع منه، وأكثر ما كان صفاء نفسها، وسماح خلقها وعذوبة طبعها، إذا استحال الدهر بالرجل فرزَأهُ في ماله، أو نَكَبَهُ في قوَّته، أو بدَّله بكرم المنصب، وروعة السلطان، أعرافًا من السجن، وأصفادًا من الحديد.

بل لقد كان وفاؤها له بعد عفاء أثره، وامِّحاءِ خبره، عديلَ وفائها له وهي بين أَفْياء نعمته، وأكناف داره، وكان إيثار الإسلام له بمَدِّ حدادها عليه أربعة أشهر وعشرة أيام، لا تتجمل في أثنائها، ولا تَزْدانُ، ولا تفارق داره إلى دار أبيها= سُنَّةً من سنن هذا الوفاء، وآية من آياته.

لذلك كانت المرأة المسلمة ترى الوفاء لزوجها بعد الموت، آثَرَ ما تراه لأبيها وأمها وذوي قرابتها، فكانت تؤثر فضائله، وتذكر شمائله في كل موطن ومقام، بل ربما عرَضَ ذِكرُه وهي بين خليفته من بعده، فلا تتحرج في ذكر فضائله وتفضيله إن كانت ترى الفضل له[١].

ومن حديث ذلك أن أسماء بنت عُميس كانت لجعفر بن أبي طالب، ثم لأبي بكر من بعده، ثم خلفهما عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتفاخر مرة ولداها محمد بن جعفر

(١) انظر: «المرأة العربية» (٢/ ٨٩).

ومحمد بن أبي بكر، كلٌّ يقول: «أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك»، فقال لها عليٌّ: «اقضي بينهما يا أسماء»، قالت: «ما رأيتُ شابًّا من العرب خيرًا من جعفر، ولا رأيت كهلًا خيرًا من أبي بكر»، فقال عليٌّ: «ما تركتِ لنا شيئًا، ولو قلتِ غير الذي قلتِ لَمَقَتُّكِ!»، فقالت أسماء: «إن ثلاثًا أنت أقلُّهم لَخِيار»(١).

وأوصى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن تُغَسِّلَه أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ففعلت، وكانت صائمة، فسألت مَن حضر مِن المهاجرين، وقالت: «إني صائمة، وهذا يوم شديد البرد، فهل عليَّ من غُسل؟»، فقالوا: «لا»، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد عزم(٢) عليها لَمَّا أفطرت، وقال: «هو أقوى لكِ»، فذكرت يمينَه في آخر النهار، فدعت بماءٍ فشَرِبَتْ، وقالت: «والله لا أُتْبِعُهُ اليومَ حِنْثًا»(٣).

ومن ذلك أيضًا: ما رُوي من أن النساء قُمْنَ حين رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أُحُدٍ يسألن الناس عن أهلهن، فلم يُخْبَرْنَ حتى أتين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تسأله واحدة إلا أخبرها، فجاءته حَمْنَةُ بنت جحش، فقال: «**يا حَمْنَةُ، احتسبي أخاكِ عبد الله بن جحش**»، قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله، وغفر له»، قال: «**يا حَمْنَةُ، احتسبي خالك حمزة بن عبد المطلب**»، قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله، وغفر له»، ثم قال:

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٠٨، ٢٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٧٦)، وقال الحافظ ابن حجر: «أخرجه ابن السكن بسند صحيح عن الشعبي» اهـ. من «الإصابة» (٧/ ٤٩١).
(٢) أي: أقسم عليها.
(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٠٨).

«**يا حَمْنَةُ، احتسبي زوجكِ مُصعب بن عمير**»، فقالت: «يا حَرَباه[(١)]»، قال النبي ﷺ: «**إن للمرأة لشُعبةً من الرجل ما هي له في شيء**»، وفي رواية: «**إن زوج المرأة منها لبمكان**»[(٢)].

ولَعَمْرُكَ إن في قول رسول الله ﷺ لبلاغًا لما أوثرت المرأة به، وأَبَرَّتْ فيه من فرط الحنو على زوجها، وفضل الوفاء له بعد موته[(٣)].

ولما تسوَّر المجرمون الفَسَقةُ على أمير البررة، وقتيل الفجرة، عثمان رضي الله عنه، وتبادروه بالسيوف، ألقت زوجته نائلة بنت الفُرافِصة بنفسها عليه حتى تكون له وقاءً من الموت، فلم يَرْعَ القتلةُ الأثمةُ حُرمتَها، وضربوه بالسيف ضربة انتظمت أصابعها، ففصلتهن عن يدها، ونفذت إليه، فجندلته، ثم ذبحوه رضي الله تعالى عنه[(٤)].

ولما خطبها أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه أبت، وقالت: «والله لا قَعَدَ أحد مني مقعدَ عثمانَ أبدًا»[(٥)].

وقال الأصمعي: خرج سليمان بن عبد الملك ومعه سليمان بن المُهَلَّبِ بن أبي صُفْرةَ من دمشق متنزهين، فمرا بالجبانة، وإذا امرأة جالسة على قبر تبكي،

---

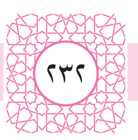
(١) **الحَرَب**: السَّلَب. وفي رواية أنها قالت: «وا حزناه»!

(٢) رواه ابن ماجه (١٥٩٠) بلفظ: «**إن للزوج من المرأة لشعبةً ما هي لشيء**»، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» رقم (٣٤٧) (ص١٢٠).

(٣) انظر: «أحكام النساء» لابن الجوزي (ص٧٠).

(٤) «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» (ص٥١٧).

(٥) «الأعلام» (٧/ ٣٤٣).



فهبت الريح، فرفعت البرقع عن وجهها، فكأنها غمامة جَلَتْ شمسًا، فوقفنا متعجبين، ننظر إليها، فقال لها ابن المهلب: «يا أمة الله، هل لكِ في أمير المؤمنين بعلًا؟».

فنظرت إليهما، ثم نظرت إلى القبر وقالت:

فإن تسألاني عن هواي فإنه بملحود هذا القبر يا فتيانِ

وإني لأستحييه والتُّرْبُ بيننا كما كنت أستحييه وَهْوَ يراني

فانصرفنا ونحن متعجبون[1].

وقال رجل من بني أَسَدٍ:

«أضللْتُ إبلًا لي، فخرجتُ في طلبهنَّ، فهبَطْتُ واديًا، فإذا أنا بفتاةٍ أعشى نورُ وجهها نورَ بصري، فقالتْ لي:

يا فتى، ما لي أراك مُدَلَّهًا[2]؟

فقلت: أضللَتُ إبلًا لي، فأنا في طلبها.

قالت: أفأَدُلُّكَ على مَن هي عنده، وإن شاء أعطاكها؟

قلتُ: نعم، ولكِ أفضلُهنَّ.

قالت: الذي أعطاكَهُنَّ أخذَهُنَّ، وإن شاء ردَّهنَّ. فَسَلْهُ مِن طريق اليقين، لا من طريق الاختبار.

---

(١) «أخبار النساء» (ص١٣٨).

(٢) ساهي القلب، ذاهب العقل.

فأعجبني ما رأيتُ من جمالها وحسن كلامها، فقلت: ألك بعلٌ[١]؟

قالت: قد كان، ودُعِيَ فأجابَ، فأُعيدَ إلى ما خُلقَ منه.

قلت: فما قولك في بعلٍ تُؤْمَنُ بَوائِقُه[٢]، ولا تُذَمُّ خلائقُه؟ فرفعت رأسها وتنفَّسَتْ، وقالت:

كنا كغُصنين في أصلٍ غذاؤهما	ماء الجداول في روضات جناتِ
فاجتَثَّ خيرَهما من جنب صاحبه	دَهْرٌ يَكُرُّ بترحاتٍ وفرحاتِ
وكان عاهدني إن خانني زَمَنٌ	ألا يضاجعَ أنثى بعد مَثْواتي
وكنت عاهدته إن خانه زَمَنٌ	ألا أبوءَ ببَعلٍ طولَ محياتي
فلمْ نزَلْ هكذا والوصلُ شِيمتُنا	حتى تُوُفِّي قريبًا مُذْ سُنَيَّاتِ
فاقبض عِنانَكَ عمَّن ليس يَردَعُه	عن الوفاء خلافٌ بالتحيَّات

وتقول الذلفاء ترثي زوجها نجدة بن الأسود:

سئمتُ حياتي حين فارقتُ قبره	ورُحْتُ وماءُ العين ينهلُّ هامِلُه
وقالت نساء الحي قد مات قبله	شريف فلم تهلِكْ عليه حلائله
صدقن لقد مات الرجالُ ولم يمت	كنجدةَ مِن إخوانه مَن يماثله

وقال ابن زَيْدُونَ في قصيدته المشهورة يطلب الوفاء:

أضحى التَّنائي بديلًا عن تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاءَ لكم	رأيًا، ولم نتقلدْ غيره دينا

---

(١) أي: زوج.

(٢) أي: شروره وغوائله.

دُومي على العهدِ ما دُمنا محافظةً فالحرُّ مَن دانَ إنصافًا كما دينا
أوْلِــي وفـاءً وإن لم تبـذلي صِلةً فالذِّكر يُقنعنا والطيف يكفينا

وأخيرًا: هذا مَثَلٌ للزوجة المسلمة الفاضلة، ينبغي لكل مسلمة أن تجعله نُصْبَ عينيها:

إن فاطمة بنت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان كان لأبيها -يوم تزوجَت- السلطانُ الأعظم على الشام والعراق والحجاز واليمن وإيران والسند وقفقاسيا والقريم وما وراء النهر إلى نجارا وجنوة شرقًا، وعلى مِصرَ والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وإسبانيا غربًا، ولم تكن فاطمة هذه بنت الخليفة الأعظم وحَسْبُ، بل كانت كذلك أخت أربعة من فحول خلفاء الإسلام وهم: الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، وكانت فيما بين ذلك زوجة أعظم خليفة عرَفه الإسلام بعد خلفاء الصدر الأول، وهو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز.

بنتُ الخليفةِ والخليفةُ جَدُّها أختُ الخلائف، والخليفةُ زوجها[(١)]

وهذه السيدة التي كانت بنت خليفة، وزوجة خليفة، وأخت أربعة من الخلفاء، خرجت من بيت أبيها إلى بيت زوجها يوم زُفَّتْ إليه وهي مثقلة

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ١٩٣).

بأثمن ما تملكه امرأة على وجه الأرض من الحلي والمجوهرات، ويقال: إن من هذه الحلي قُرْطَيْ[(١)] مارية اللذين اشتهرا في التاريخ، وتغنى بهما الشعراء، وكانا وحدهما يساويان كَنزًا.

ومن فضول القول أن أشير إلى أن عروس عمر بن عبد العزيز كانت في بيت أبيها تعيش في نعمة لا تعلو عليها عيشة امرأة أخرى في الدنيا لذلك العهد، ولو أنها استمرت في بيت زوجها تعيش كما كانت تعيش قبل ذلك تملأ كَرِشها في كل يوم وفي كل ساعة بأدسم المأكولات وأندرها وأغلاها، وتُنَعِّم نفسَها بكل أنواع النعيم الذي عرَفه البشر؛ لاستطاعت ذلك... إلا أن الخليفة الأعظم عمر بن عبد العزيز اختار -في الوقت الذي كان فيه أعظمَ ملوكِ الأرض- أن تكون نفقة بيته بضعةَ دراهمَ في اليوم[(٢)]، ورضيت بذلك زوجة الخليفة التي كانت بنت خليفة وأخت أربعة من الخلفاء، فكانت مغتبطة بذلك؛ لأنها تذوقت لذة القناعة، وتمتعت بحلاوة الاعتدال، فصارت هذه اللذة وهذه الحلاوة أطيب لها وأرضى لنفسها من كل ما كانت تعرفه قبل ذلك من صنوف البذخ وألوان الترف، بل اقترح عليها زوجها أن تترفع عن

---

(١) (وكان أبوها عبد الملك بن مروان رَحِمَهُ اللَّهُ قد أعطاها قُرْطي مارية، والدُّرَّةَ اليتيمة، وكانت أحبَّ أخواتها إليه، وكان قد دعا لها قائلًا: «اللهم احفظني فيها»، فتزوجها ابن عمها عمر بن عبد العزيز) اهـ من «البداية والنهاية» (٩/ ٦٧).

(٢) (وقد خيَّرها عقب توليه الخلافة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت، وبكى جواريها لبكائها، فسُمِعَت ضجة في داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال. رَحِمَهَا اللَّهُ) اهـ من «البداية والنهاية» (٩/ ١٩٨).

عقلية الطفولة، فتخرج عن هذه الألاعيب والسفاسف التي كانت تبهرج بها أذنيها وعنقَها وشعرها ومعصميها، مما لا يُسْمِنُ ولا يُغْني من جوع، ولو بِيعَ لأشبع ثمنُه بطون شعب برجاله ونسائه وأطفاله، فاستجابت له، واستراحت من أثقال الحلي والمجوهرات واللآلئ والدُّرر التي حملَتْها معها من بيت أبيها، فبعثت بذلك كلِّه إلى بيت مال المسلمين.

وتُوُفِّيَ عقب ذلك أميرُ المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ولم يخلف لزوجته وأولاده شيئًا، فجاءها أمين بيت المال، وقال لها:

إن مجوهراتك يا سيدتي لا تزال كما هي، وإني اعتبرتها أمانة لك، وحَفِظتُها لذلك اليوم، وقد جئتُ أستأذنك في إحضارها.

فأجابَتْه بأنها وهَبَتْها لبيت مال المسلمين؛ طاعة لأمير المؤمنين، ثم قالت:

«وما كنتُ لِأُطيعَه حيًّا، وأعصيَه ميتًا».

وأبَتْ أن تستردَّ من مالها الحلال الموروث ما يساوي الملايين الكثيرة، في الوقت الذي كانت محتاجة فيه إلى دُرَيْهمات، وبذلك كتب الله لها الخلود، وها نحن نتحدث عن شرف معدنها ورفيع منزلتها بعد عصور وعصور. رحمها الله، وأعلى مقامها في جنات النعيم[١].

(١) من تقديم العلَّامة محب الدين الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكتاب «آداب الزفاف» لمحدث الشام الألباني طبعة سنة (١٤٠٩هـ) (ص٨٤-٨٨).

ومن وفاءِ المرأة لزوجها: وجوب الحِداد عليه في عِدَّتِها بعد وفاته:

فتمتنع من الزينة كلها، وتُحِدُّ عليه أربعة أشهر وعشرًا لغير الحامل، عن حميد بن نافع قال: أخبرتني زينب بنت أبي سلمة قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب، فدعت أم حبيبة بطيب فيه صُفْرَةٌ خَلوقٌ أو غيره، فدهنت منه جارية، ثم مَسَّت بعارضَيْها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول على المنبر: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحِدَّ على مَيِّتْ فوقَ ثلاثِ ليال، إلا على زوج: أربعةَ أشهر وعشرًا**»، قالت زينب: ثم دخلتُ على زينبَ بنتِ جحش حين توفي أخوها، فدعت بطيب فمسَّت منه، ثم قالت: أما والله، ما لي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر...**» الحديثَ[١].

وإظهارًا لعدم التعرض للزواج، ومراعاة لحق الزوج في الوفاء له أوجب الشرع على الحادَّة أن تجتنب ما يدعو إلى نكاحها، ويرغب في النظر إليها، ويحسِّنها، وذلك أربعة أشياء:

أحدها: الطيب، **والثاني:** اجتناب الزينة في نفسها كالخضاب والتحمير والحف وما أشبهه مما يُحَسِّنُها؛ كالاكتحال بالإثمد واجتناب زينة الثياب

(١) رواه البخاري (١٢٨١)، ومسلم (١٤٨٦)، وغيرهما.

المصبغة للتحسين، وكذا اجتناب الحلي، فيحرم عليها لبس الحلي كله حتى الخاتَم في قول عامة أهل العلم.

والثالث: مما تجتنبه الحادّة النقاب، وما في معناه مثل البرقع ونحوه، وإذا احتاجت إلى ستر وجهها أسدلت عليه كما تفعل المحرمة.

والرابع: المبيت في غير منزلها -فيجب على الحادة أن تعتد في المنزل الذي مات زوجها وهي ساكنة به، سواء كان مملوكًا لزوجها أو بإجارة أو عارية إلا لعذر(١).

ومراعاة لحرمة الزوج المتوفى ووفاءً له حرمت الشريعة المطهرة التصريح لها بالخِطبة أثناء عدتها؛ كقول الراغب في تزوجها: «إذا انقضت عدتكِ تزوجتكِ»؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ الآية [البقرة:٢٣٥]، لكن يجوز التعريض بخِطبة المعتدة المتوفى عنها زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٥]، والتعريض بالخطبة هو ما يحتمل الرغبة في النكاح وغيرها؛ كقوله: «رُبَّ راغبٍ فيكِ، ومن يجد مثلكِ؟»، أو: «وددت لو يسَّر الله لي امرأة صالحة» ونحو ذلك.



(١) انظر: «المغني» لابن قدامة (٧/ ٥١٨-٥٢٢)، وانظر: «تحقيق المراد من أحكام الحداد» لمؤلفه سعود العنزي (ص٢٠، ٢١).

الوفاءُ للجـارِ

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما زال جبريلُ يُوصيني بالجارِ، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّه سيُوَرِّثُه**»[(١)].

وعن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمِعتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما زال جبريلُ يوصيني بالجارِ، حتَّى ظننتُ أنَّه لَيُوَرِّثَنَّهُ**»[(٢)].

وعن أبي شُرَيحٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**واللهِ لا يؤمِنُ، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**»، قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يَأمَنُ جارُه بوائِقَهُ**»[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يدخل الجنة مَن لا يَأْمَنُ جارُه بَوائِقَهُ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٦).
(٤) أخرجه مسلم (٤٦)، والبوائق جمع بائقة وهي الشر والداهية.

والنصوص الواردة في الجار عمومًا جاءت مطلقة غير مقيدة بقيد أو بحدٍّ معين، ولم يَدُلَّ نصٌّ شرعيٌّ ثابتٌ على أن حَدَّ الجوار هو كذا وكذا؛ فيرجَعُ في ذلك إلى العُرف.

والجوار في المسكن هو أجلى صور الجوار وأوضحها، ولكن مفهوم الجوار لا يقتصر على الجوار في المسكن فحَسْبُ، بل هو أعم من ذلك، فالجار معتبر في المتجر والسوق والمزرعة والمكتب ومقعد الدرس.

ومن صور الوفاء الرائعة: الوفاء للجار؛ فللجار الصالح منزلة عند العقلاء، ومن يقدرون المكارم قدرها؛ فهم لا يعدلون به شيئًا، ولا يرتضون به بدلًا، ولا يَبْغُون عنه حِوَلًا؛ لأن فيه أنْسَ وحشتهم، واستقرار حياتهم، وبه الأمن على كل مرتخص ونفيس، فهو -بعد الله- غناهم حال الفقر، وغِياثهم ونجدتهم في الخطوب، وهو عُدَّتهم وعتادهم عند النوازل؛ فبقاؤه خِصب ونعمة، وفراقه ورحيله مَحْلٌ ونقمة.

ولهذا كان السلف الصالح، والكرام من الناس لا يؤثرون بالجار الصالح مالًا ولا عَرَضًا من الدنيا.

- باع أبو الجهم العدوي داره بمئة ألف درهم، ثم قال:

بكم تشترون جوارَ سعيد بن العاص؟

قالوا: وهل يُشترى جوارٌ قطُّ؟

قال: رُدُّوا عليَّ داري، وخذوا مالكم؛ لا أدع جوار رجل إن قعدتُ سأل عنِّي، وإن رآني رحَّب بي، وإن غِبتُ حفِظني، وإن شهِدت قرَّبني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتني نائبةٌ فرَّج عني.

فبلغ ذلك سعيدًا، فبعث إليه بمئة ألف درهم.

ومن أعظم صور الوفاء للجار: الوفاء له بعد الرحيل عنه:

فمِن الناس مَن ينسى جيرانه بعد أن يرحل عنهم، أو بعد أن يرحلوا عنه.

والمروءة تقتضي بأن تكون وفيًّا لجارك، فمن الوفاء له ألا تنساه بعد رحيله عنك، أو رحيلك عنه، وأن تتواصل معه بالزيارة، والهدية، والمهاتفة، ونحو ذلك مما يُبقي على حِبال المودة.

ومن الوفاء له ذكره بالخير، والثناء عليه بعد انقضاء مدة الجوار، خصوصًا إذا كان من المحسنين.

قال النابغة الذُّبْيانيُّ:

لا يُبْعِدِ اللهُ جيرانًا تَرَكْتُهُمُ ... مِثلَ المصابيحِ تَجْلُو ليلةَ الظُّلَمِ

لا يَبْرُمُون إذا ما الأُفْقُ جَلَّلَهُ ... بَرْدُ الشتاءِ مِن الإمْحالِ[1] كالأَدَمِ

أحلام عادٍ وأجسادٌ مُطَهَّرةٌ ... من المَعَقَّةِ والآفاتِ والإثمِ

(١) **الإمحال:** من أمحل المكان إذا أجدب وانقطع عنه المطر، فيبست أرضه.

ومن المروءة أن تُعْرِضَ عن ذكر ما تعرف عن جيرانك من السوء بعد أن تفارقهم؛ فذلك من حسن التذمم، وجميلِ الوفاء.

وقد قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ليس حسن الجوار كَفَّ الأذى، ولكن حسن الجوار احتمال الأذى».

وفاء الحارث بن ظالم:

كان من وفائه أن عياض بن دَيْهث مَرَّ برِعاء[(١)] الحارث بن ظالم وهم يسقون، فسقى فقَصُر رِشاؤُه[(٢)]، فاستعار من أرْشِيَةِ الحارث فوَصَل رشاءَه، فأروَى إبله، فأغار عليه بعضُ حَشَمِ النعمان فاطردوا إبله[(٣)]، فصاح عياض: يا جاراه، يا جاراه!

فقال له الحارث: متى كنتُ جارَك؟

فقال: وصَلتُ رِشائي برشائك، فسقيتُ إبلي، فأُغيرَ عليها، وذلك الماء في بطونها.

قال: جِوارٌ وربِّ الكعبة.

فأتى النعمانَ، فقال: أبيتَ اللعن![(٤)] أغارَ حَشَمُك على جاري عياضِ ابنِ دَيْهث فأخذوا إبله وماله، فارْدُدْ عليه.

---

(١) **الرِّعاء:** جمع راع.

(٢) **الرِّشاء:** الحبل، أو حَبْل الدَّلْوِ ونحوها، جمعه: أَرْشِية.

(٣) **طارده:** لاحقه محاولًا الإمساك به.

(٤) **أبيت اللعن:** تقوله العرب عند التحية، ومعناها على نصب اللعن: أبيت أن تأتي من الأشياء =

فقال له النعمان: أفلا تشد ما وَهَى من أديمك؟!

يريدُ: أن الحارث قتل خالد بن جعفر بن كلاب في جوار الأسود بن المنذر أخي النعمان بن المنذر.

فقال الحارث: هل تعدون الحلبة إلى نفسي؟[1] ويُروى: هل تعدون الحلبة من الأعداء؟ يعني: تركضون. ويروى: «تعدون» من التعدي، أي: تتعدون، أي: تتجاوزون؟ فأرسلها مثلًا، أي: أنك لا تُهلك إلَّا نفسي إن قتلتها، فتدبَّر النعمَان كلمته، فردَّ على عياضٍ إبِلَهُ.

= ما يستحق اللعن عليه، وبجر اللعن: تكون الهمزة للنداء، والتقدير: يا بيت اللعنِ، والتقدير: يا بيت السلطان والقدرة والغضب والطرد والإبعاد، وقد استقبح الفراءُ هذا الوجه ناهيًا عن استعماله.

و«أبيت اللعن» دعاء قاصر أو تحية ناقصة، فكل ما تدل عليه حث المخاطَب بها على تجنب ما يستحق اللعن، فليس لهذه التحية مردود إيجابي على المخاطَب بها، فليس فيها الحث على فعل ما يُحمد ويُمدح صاحبه، ثم إنها خاصة بالملوك عند تحيتهم، قال النابغة:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني ... وتلك التي أهتم منها وأنصبُ

وقال لبيد للنعمان: «مهلًا أبيت اللعن لا تأكل معه».

وهي هنا مختصة بالدعاء لا للتحية.

(١) قال المفضل الضبي:
ثم إن النعمان أوعد الحارث وعيدًا شديدًا، فقال له الحارث: «هل تعدون الحيلة إلى نفسي؟» فأرسلها مَثَلًا.
قال المفضل: «أي: هل تريد بحيلتك أن تقتلني، هذا غايتك، يريد: هل يكون شيء بعد الموت؟» اهـ. «أمثال العرب» (ص١١٤).
وقال أبو هلال العسكري: قولهم: «هل تعدون الحيلة إلى نفسي؟» يقول: هل أملك إلا نفسي، وهل يكون شيء بعد الموت؟ «جمهرة الأمثال» (٢/ ٣٦٦).

وقال الفرزدق يضربُ المثل لسليمانَ بنِ عبد الملك حين وفي ليزيدَ بنِ المُهَلَّب:

لَعَمْري لقد أوفى وزَاد وفاؤه ... على كُلِّ جارٍ جارُ آلِ المهَلَّبِ
كما كان أَوْفَى إذ يُنادِي ابنُ دَيْهثٍ ... وصِرمَتُهُ كالمغنَم المُتنهَّبِ
فقام أبو ليلى إليه ابنُ ظالم ... وكان متى ما يَسْلُلِ السَّيفَ يَضْربِ[1]

وأراد جارٌ للإمام أبي حمزة السكري محمد بن ميمون (ت: ١٦٨ هـ) أن يبيع داره، فقيل له: بكم؟ قال:

«بألفين ثمنِ الدار، وألفين جوارِ أبي حمزة».

فبلغ ذلك أبا حمزة، فوجَّهَ إليه بأربعة آلاف، وقال:

«خذ هذه، ولا تَبعْ دارك».

يلومونني أن بعتُ بالرُّخْص منزلي ... ولم يعلموا جارًا هناك يُنَغِّصُ
فقلت لهم: كُفُّوا الملامَ فإنها ... بجيرانها تغلو الديار وترخُصُ

وبلغ ابنَ المُقَفَّعِ أن جارًا له يبيع دارًا له لِدَينٍ ركِبه، وكان يجلس في ظلِّ داره، فقال: ما قُمْتُ إذًا بحرمة ظلِّ داره إن باعها مُعدمًا وبِتُّ واجدًا!

فحمل إليه ثمن الدار، وقال: لا تَبعْ[2].

---

(١) «مجمع الأمثال» للميداني (٤٤٣٤).

(٢) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٤٦٢).

وكان للإمام أبي حنيفة جارٌ إسكاف (صانع)، يعمل نهاره أجمَعَ، حتى إذا جَنَّه الليل رجع إلى منزله، وقد حمل لحمًا فطبخه، أو سمكةً فشواها، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دَبَّ الشرب فيه رفع صوته وهو يقول:

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسداد ثغرِ

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم، وأبو حنيفة يسمع صوته وكان يصلي الليل، ففقد صوته، فسأل عنه، فقالوا: سجنه الأمير، فسار إليه، فقال الأمير: يُطلق، فركِب أبو حنيفة والإسكاف وراءه، فقال له أبو حنيفة: يا فتى، أضعناك؟

فقال له: بل حَفِظتَ ورعيتَ، جزاك الله خيرًا عن حرمة الجوار. وتاب الرجل.

وكان لعبد الله بن سهل التُّسْتَرِيِّ جارٌ نصرانيٌّ، وانهدم جزء من الجدار الفاصل بين منزليهما مما يلي كنيف الجار النصراني، فكانت النجاسة تخرج إلى بيت سهل الذي يقوم مساء كل يوم بإخراجها، ومكث على هذه الحال زمنًا طويلًا حتى مرض، فاستدعى جاره النصراني وأخبره عن ذلك خشية أن يموت فيجيء جار لا يصبر على هذا الأذى! فعجب النصراني من هذا الصنيع، وأسلم.

ومن لطائف ما يُروى في الإحسان إلى الجار:

أن عَدِيَّ بن حاتم كان يَفُتُّ الخبزَ للنمل، ويقول: «إنَّهنَّ جاراتٌ لنا، ولَهُنَّ علينا حقٌّ»[(١)].

وكان محمد بن واسع إذا باع شاةً يوصي بها المشتري، ويقول: «قد كان لها معنا صُحبة».



(١) «شُعَب الإيمان» للبيهقي (١٣/ ٤٢١، ٤٢٢/ رقم ١٠٥٦٧).

من مواقف الوفاء:

عبد الله بن طاهر والمأمون



حُكيَ أن الخليفة المأمون لَمَّا ولَّى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصرَ والشامَ، وأطلق حكمه، دخل على المأمون بعضُ إخوانه يومًا، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب، وهواه مع العلويين، وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيءٌ من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر، فتَشَوَّشَ فِكرُه، وضاق صدرُه.

فاستحضر شخصًا وجعله في زِيِّ الزُّهاد والنُّسَّاكِ الغُزاة، ودسَّه إلى عبد الله بن طاهر، وقال له: امضِ إلى مِصرَ، وخالط أهلَها، وداخِلْ كُبَراءَها، واستَمِلْهُم إلى القاسم بن محمد العلوي، واذكُرْ مناقبَه، ثم بعد ذلك اجتمِعْ ببعض بِطانة عبد الله وادْعُهُ إلى القاسم بن محمد العلوي، واكشفْ باطنَه، وابحثْ عن دفين نيته، وائْتِني بما تسمع.

ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون، وتوجَّهَ إلى مصر، ودعا جماعةً من أهلها، ثم كتب ورقةً لطيفةً ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الرُّكوب وجلس في مجلسه، خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن

طاهر، وهو جالسٌ وحْدَه، فقال له: لقد فَهِمتُ ما قصَدْتَه، فهاتِ ما عندك، فقال: وليَ الأمانُ؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده، ودعاه إلى القاسم بن محمد.

فقال له عبد الله: أوَ تُنصِفُني فيما أقولُه لكَ؟ قال: نعم.

قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمِنَّة؟ قال: نعم.

قال: فيجب عليَّ وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحُكْمِ والنعمة والوِلاية، ولي خاتَم في المشرق، وخاتمٌ في المغرب، وأمْري فيما بيْنَهما مطاعٌ، وقولي مقبولٌ، ثم إني ألتفتُ يمينًا وشمالًا فأرى نعمة هذا الرجُلِ غامرةً، وإحسانَه فائضًا عليَّ، أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة، وتقول: اغدرْ وجانِبِ الوفاء؟! والله لو دعوتني إلى الجنة عِيانًا لَمَا غدرتُ، ولَمَا نكثتُ بَيْعتَه وتركتُ الوفاءَ له!

فسَكَتَ الرجُلُ، فقال له عبد الله: واللهِ، ما أخاف إلا على نفسك، فارحل من هذا البلد.

فلما يَئِسَ الرجل منه، وكشف باطنه، وسمع كلامه؛ رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال، فسَرَّهُ ذلك، وزاد في إحسانه إليه، وضاعَفَ إنعامَه عليه[١].



(١) انظر: «المستطرف» (ص٢١١).

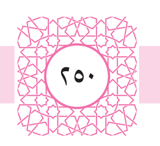
وفاء محبوس



كان محمد بن سيرين عالم البصرة كاتب أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولما حضرت أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاةُ، أوصى بأن يُغَسِّلَه ويصليَ عليه ابنُ سيرين، إلا أن ابن سيرين كان محبوسًا، فجاؤوا للأمير وهو رجل من بني أسد، وأنهوا إليه الخبر، فاستدعى ابنَ سيرين وأكد عليه أن يغسل أنسًا ويصلي عليه، ويعود إلى الحبس كما كان، فوافق ابن سيرين وخرج من الحبس، وغسَّل أنسًا وكفَّنه وصلَّى عليه في قصر أنس بالطفّ، ثم رجع ودخل السجن ولم يذهب إلى أهله[1].



(١) «وفيات الأعيان» (٤/ ١٨٢).



وفاء الحيوانـــات

وفاءُ الكلبِ



وفاء الكلب لصاحبه ودفاعه عنه من طباعه المشهورة(١) حتى كان بعض العرب لا يتحاشى من التسمية بكلب وكلاب(٢).

(١) إن اتِّصاف الكلب بالوفاء لصاحبه لا يستلزم إباحة اقتنائه مطلقًا؛ لأن الأحاديث الصحيحة دلَّت على المنع من اقتناء الكلاب إلا كلب الصيد، وحراسة الماشية، وحراسة الزرع، ومن هذه الأحاديث:

- ما رواه مسلم (١٥٧٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن اقتنى كلبًا ليس بكلبِ صيدٍ ولا ماشية ولا أرض؛ فإنه ينقصُ من أجره قيراطان كلَّ يوم**».

والقيراط: مقدار معلوم عند الله تعالى، والمراد أنه ينقص جزء من أجر عمله.

- وما رواه ابن ماجه (٣٦٤٠) عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلبٌ ولا صُورةٌ**» صححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٩٤٥).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم» (١٠/ ٣٤٠): «هل يجوز اقتناء الكلاب لحفظ الدُّور والدُّروب ونحوها؟ فيه وجهان: أحدهما: لا يجوز؛ لظواهر الأحاديث، فإنها مصرحة بالنهي إلا لزرعٍ أو صيْد أو ماشية، وأصحّهما: يجوز، قياسًا على الثلاثة، عملًا بالعلة المفهومة من الأحاديث وهي الحاجة» انتهى.

ولعل الحكمة في منع اقتناء الكلاب -والله تعالى أعلم-: ترويعها للناس، ونجاسة لعابها، وصعوبة الاحتراز منه عند مخالطتها، وولوغها في الأواني؛ ولأنه قد يتسبب عن مسها ومداعبتها والتعرض لفضلاتها ولعابها أمراض عديدة أخطرها -وبخاصة على الأطفال- العمى وفقدان البصر Ocular Toxocariasis التي تسببها ديدان Toxocara canis.

(٢) انتشرت أسماء بعض الحيوانات عند العرب في الجاهلية نحو: (كلب) (ذئب) (جحش) (حمار) إلخ.

=

أراد علي بن الجهم أن يمدح الخليفة المتوكل ففعل ولكن بألفاظ خشنة جافية متأثرًا ببيئته البدوية فخاطبه قائلًا:

أنت كالكلب في حفاظك للوُدِّ ... وكالتَّيْس في قراع الخطوبِ

أنت كالدَّلْوِ لا عَدِمناك دَلْوًا ... من كبارِ الدِّلا كثيرِ الذَّنُوبِ

بل إن منهم من فضَّل الكلب لوفائه على الإنسان، وقد صنَّف أبو بكر محمد بن خلف بن المَرْزُبان كتابه الشهير «فضل الكلاب على كثير ممَّن لبِس الثياب»(١).

= قيل لأبي الدقيس الأعرابي: لِمَ تُسمون أبناءكم بشر الأسماء؛ نحو (كلب) و(ذئب)، وعبيدَكم بأحسنها؛ نحو (مرزوق) و(رباح)؟

فقال: «إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا».

وكلاب: إما جمعوه لطلب الكثرة، كما في سباع وأنمار، وإما أنه منقول عن المصدر الذي هو في معنى (المكالبة)؛ نحو: كالبت العدو مكالبة وكلابًا. وقد سمّوا به؛ تفاؤلًا بمكالبة العدو وقهره.

وقال العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «ويكره التسمية بأسماء الحيوانات المشهورة بالصفات المستهجنة ومنها: التسمية بما يلي: حنش، حمار، قنفذ، قُنيفذ، قِردان، كلب، كُليب.

والعرب حين سمَّت أولادها بهذه، فإنما لما لحظته من معنى حسنٍ مراد: فالكلب لما فيه من اليقظة والكسب، والحمار لما فيه من الصبر والجَلَد، وهكذا... وبهذا بطل غمز الشعوبية للعرب كما أوضحه ابن دُريد وابن فارس وغيرهما» اهـ. من «معجم المناهي اللفظية» (ص٥٦٣).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أسوإ ما رأيت منها التسمية بقولهم: جلب الله، يعني: كلب الله! كما في لهجة العراقيين، وعند الرافضة منهم يسمونه: جلب علي؛ أي: كلب علي! وهم يقصدون أن يكون أمينًا مثل أمانة الكلب لصاحبه» اهـ. من «معجم المناهي اللفظية» (ص٥٦٤).

(١) إن عنوان كتاب ابن المرزبان ومحتواه يُعدان «صرخة احتجاج» على انحسار خلق الوفاء من البشر، وهو هروب (إلى الأمام) عن طريق تمجيد الكلاب بدل حث الناس على الوفاء ومكافحة ظاهرة الغدر والتفتيش عن الأوفياء من البشر.

إن ولوع كثير من المسلمين اليوم باقتناء الكلاب -لغير سبب شرعي- صورة من صور وقوعهم في «جحر الضب»، واتباع سَنَن غيرهم، تقليدًا من (المغلوب للغالب) عساه يلتحق به أو يلتصق =

وانطلقت ألسنة الأدباء والشعراء بمدح وفاء الكلب، بل تفضيله على الصديق الغادر.

قال بعضهم:

تخــــــيرتَ مـــــن الأخـــــلا ... قِ مــا يُـنـفْـى عــن الـكـلـبِ

فـــإن الـــكـلـــبَ مجـبـــولٌ ... عــلـــى الـــنُّـصـــرةِ والـــذَّبِّ

وَفـــيٌّ يـحـــــفـظ الـعـــهـدَ ... ويـحـــمـــي عَـــرْصـــةَ الـــدَّربِ

= بجلده. وهذه الظاهرة سادت في الغرب كمحاولة تعويضية لسد الفجوة التي أنتجتها الحضارة الغربية، والطغيان المادي الذي أخلَّ بالروابط الاجتماعية بين البشر، فراحوا يبحثون عن بديل (مُقَنَّع) بقناع الوفاء ليعوضهم عن ضمور الروابط الإنسانية، ومعاناة الشعور بالوحدة، والتفكك الأُسري.

نعم.. لاشك في أن الكلب وفيٌّ لصاحبه، لكنه وفاء (آليٌّ) لا يُميِّز، وأعمى لا يُبْصِر، فإنه وفيٌّ لصاحبه يحوطه ويحميه ولا يبالي إن كان صاحبه ظالمًا شريرًا يحرضه على عَقْر وترويع إنسان ضعيف أو مظلوم، ولا يدري إن كان صاحبه لصًّا أو مجرمًا يستعين به على إجرامه، الكلب وفيٌّ لصاحبه ولكنه غير عاقل، ولا يدري ما عواقب فعله، وفي قصة الكلبة (براقش) عبرة: فقد نبحت جيشًا كانوا قصدوا أهلها، فخفي عليهم مكانُهم، فلما نبحتهم عرفوهم، فعطفوا عليهم فاجتاحوهم، فقالت العرب: «أشأم من براقش»، وقالوا: «على أهلها دَلَّتْ براقش»، وصارت مثلًا كما في «جمهرة الأمثال» (٢/ ٤٦).

لقد أمرت شريعة الرحمة الشاملة بالإحسان إلى الحيوانات ومنها الكلاب، بتوسط واعتدال، ولكنها تنزَّهت عن ذلك الإفراط الشائن في معاملتها على النحو الذي نراه من الغربيين:

- إذ رأيناهم يخصصون فنادق للكلاب، وقد يوصي أحدهم بثروته الهائلة لكلبه ويحرم منها أولاده، وقد يتفنن في شراء أنفس الأطعمة وأغلاها للكلب، ويطرد أمه المسِنة خارج بيته؛ لأنه «لا يقدر على الإنفاق عليها»!

لقد تخلَّت الكلاب عند القوم عن وظيفة الحراسة والصيد والحرث، وصارت «نخبة» متميزة تحظى برفاهية العيش وبُلَهنيته، في حضارة تمسح شَعَثَ الكلاب وتُدمي قلوب الشعوب.

ويُـعـطـيـكَ عـلـى الـلـين	ولا يُـعـطـي عـلـى الـضـربِ
ويـشـفـيـك مـن الـغـيـظ	ويُـنـجـيـك مـن الـكـربِ

وقال بعض الأدباء:

تـاه قـلـبي مـنِّي وأيـن مـني قلبُ	إنَّ ردَّ الـسـرور يـا قـومِ صعبُ
شـردتـني خـيـانـةٌ مـن صديق	أنـا مـسـتـسـلـم لـه، وهْـوَ حَـرب
مـضـمـرٌ لـلـنـفـاق والـقـلـب فيه	مُـبـطـنٌ بـغـضَـهُ وبـاديـه حـبٌّ
قـلـتُ يـومًـا لـه وقـد مـضـى منـ	ـه فِـعـالٌ أتـى بـهـا: أنـت كلبُ
قـال: للمزحِ قلتَ ذا أم لثلبي[1]؟	قـلـتُ لـلـثـلـب، قـال: مـا فـيه ثلب
شِـيـمـةُ[2] الـكـلـب حفظهُ لوليٍّ	وعلى الحيِّ في دُجا الليل ذَبٌّ[3]
يـحـفـظُ الـجـارَ لـلـجـوارِ ويُمسي	ساهـر المقلتين: يحـنوه سَغْب[4]
يـرقـد الـنـائـمـون أمـنًـا ويمسي	خائفًا هَلْكَهم[5] يحاكيه صب
وتـرى الـكـلـب في المـهـامـه غوثًا	ويجـيـب الـلـهـيـف، والـنـارُ تخبو
وتـــراهُ يـنـابـحُ الـكـلـب خـوفًـا	وإلى الصوت في دجا الليل يحبو
فـلـمـاذا أنْحَـسـتـهُ الـحـظَّ قـل لي	لِم تُـشِـنْ حُـسـنَـه ومـا فـيه سب؟

---

(١) **الثلب**: الذم وذكر المساوي والمخازي.
(٢) **الشيمة**: الصفة والطبع الغالب.
(٣) **الذَّبّ -بفتح الذال المشددة**: الدفاع عن الصاحب.
(٤) بفتح السين والغين: الجوع مع التعب، وسكنت الغين هنا لوزن الشعر.
(٥) يعني: يخشى هلاكهم.

وقال آخر:

إن قومًا رأوك شبهًا لكلبٍ ... لا رأوْا للظلام صبحًا مُضيّا

أنت لا تحفظ الزمامَ لخلقٍ ... وهو يرعى الزِّمامَ رعْيًا وَفيّا

يشكر النَزْرَ من كريم فِعالٍ ... آخرَ الدهر لا تراه نَسِيّا

وتناديه من مكان بعيدٍ ... فيوافيكَ طائعًا مُستحِيّا

إنَّ سُؤْلي وبُغيتي ومُنا ... ي أن أراك كلبًا سَويّا

وقال أبو العباس الأَزْدِيُّ:

لَكَلْبُ الناس إن فكرتَ فيهمْ ... أَضَرُّ عليك من كلب الكلابِ

لأن الكلب تخسؤه فيخسأ ... وكلب الناس يرْبِض للعتابِ[1]

وإن الكلب لا يؤذي جليسًا ... وأنت الدهرَ مِن ذا في عذابِ

- قال الأحنف بن قيس:

«إذا بصبص الكلب[2] لك فثق بوُدٍّ منه، ولا تثق ببصابص الناس، فَرُبَّ مُبصبصٍ خَوَّانٌ».

- وقال الشعبي: «خير خصلة في الكلب، أنه لا ينافق في محبته».

- وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «كلب أمين، خير من إنسان خَؤون».

وعن رجل، عن جعفر بن سليمانَ، قال: رأيت مالك بن دينار ومعه كلب، فقلت: ما هذا؟

---

(١) وفي رواية:

فكلب الناس إن تخسأه يخسأ ... وكلب الناس يربضُ للعِقابِ

(٢) **بَصْبَصَ الكلب:** حرَّك ذَنَبَه.

قال: «هذا خير من جليس السوء».

- وعن حمَّادِ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ المَوْصِليِّ، قال: قال أبي:

أتيت يومًا الفضل بن يحيى، فصادَفْتُه يشرب، وبين يديه كلب، فقلت له: أتنادم كلبًا؟

قال: «نعم؛ يمنعني أذاه، ويكفُّ عني أذى سِواه، ويشكر قليلي، ويحرس مبيتي ومقيلي».

- وسُئل أعرابيٌّ: ما هذا معك؟

فقال: «نِعمَ الصاحبُ؛ إن أعطيتُه شكر، وإن منعتُه صبر».

وقال آخر: «من يشكرني، ويكتم سري».

- وعن الأصمعيِّ، قال: حضرَتْ بعضَ الأعرابِ الوفاةُ، وكلبٌ في جانب خيمته، فقال لأكبر ولده:

«أوصيك خيرًا به؛ فإن له صنائعَ لا أزال أحمدها، يدُلُّ ضيفي عليَّ في غَسَقَ الليل إذا النارُ نام مُوقِدُها».

- وقال بعض الأدباء:

كان لإبراهيم بن هرمة كلابٌ، إذا أبصرَتِ الأضياف بشَّتْ لهم ولم تنبح، وبصبصتْ بأذنابها بين أيديهم، فقال يمدحها:

ويدُلُّ ضيفي في الظلام إذا سرى	إيقادُ ناري أو نُباحُ كلابي
حتى إذا واجهْنَهُ وعرَفْنَهُ	فدَيْنَهُ ببصائصِ الأذنابِ[1]
وجعلْنَ ممَّا قد عرفْنَ يَقُدْنَهُ	ويَكَدْنَ أن يَنطِقْنَ بالتَّرْحابِ

(١) أي: هز الأذناب.

وللكلب أيضًا من الفضائل: إتيانه وجه صاحبه، ونظره إليه في عينه وفي وجهه، وحبه له، ودُنُوُّه منه، حتى ربما لاعبه ولاعب صبيانه بالعض الذي لا يؤلم ولا يؤثِّر، وله تلك الأنياب التي لو أنشبها في الشجر لأثَّرت!

واعلم -أعزَّك الله- أن الكلب لمن يقتنيه أشفق من الوالد على ولده، والأخ الشفيق على أخيه؛ وذلك أنه يحرس صاحبه، ويحمي حريمه، شاهدًا وغائبًا، ونائمًا ويقظانَ، لا يقصر عن ذلك، وإن جَفَوْه، ولا يخذلهم وإن خذَلُوه.

ومن أجل ذلك قال الدميري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الكلب حيوان شديدُ الرياضة، كثيرُ الوفاء.. ومن طبعه أنه يحرسُ رَبَّه، ويحمي حرمه شاهدًا وغائبًا، ذاكرًا وغافلًا، نائمًا ويَقْظان»[1].

- ورُوي أن رجلًا قال لبعض الحكماء: أوصني.

قال: «ازهد في الدنيا، ولا تنازع فيها أهلها، وانصح لله تعالى كنصح الكلب لأهله؛ فإنهم يجيعونه ويضربونه، ويأبى إلا أن يحوطهم نصحًا».

فمِن ثَمَّ قال الإمام أبو محمدٍ الشاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد قيل كُنْ كالكلبِ يُقْصِيهِ أهلُهُ ... وما يَأْتَلي[2] في نصحِهم مُتَبَذِّلا[3]

والمعنى: تمثَّل بخلق الوفاء مع الناس رغم ما ستعانيه من جَرَّاءِ وفائك، فعليك أن تبذل لهم النصح دون النظر إلى رد فعلهم.

- ولبعض الشعراء:

يعرِّجُ عنه جارُه وشقيقُه ... ويرغبُ فيه كلبُه وهْوَ ضاربُهْ

---

(١) «حياة الحيوان» (٢/ ١٠٣).

(٢) **يأتلي:** يُقَصِّر.

(٣) **التبذل:** هو بذل الجهد وعدم التهاون.

- وعن شَرِيكٍ، قال: كان للأعمش كلب يتبعه في الطريق إذا مشى حتى يرجع.

فقيل له في ذلك، فقال: «رأيت صبيانًا يضربونه، ففرَّقت بينهم وبينه، فعرَف ذلك لي فشَكَرَه، فإذا رآني يبصبص لي ويتبعني».

- وقال بعض الرواة: «كان للربيع بن بدر كلب قد ربَّاه، فلما مات الربيع ودُفِن، جعل الكلب يتضرب على قبره حتى مات».

- وكان لعامر بن عنترة كلاب صيد وماشية، وكان يحسن صحبتها، فلما مات لزمت الكلاب قبره حتى ماتت عنده، وتفرَّق عنه الأهل والأقارب.

فائـــدة:

جاء في **أخبار لا يُعَوَّل عليها** أن كلب أصحاب الكهف في الجنة، وقال المفسِّر الكبير أبو الفضل الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد اشتهر القول بدخول هذا الكلب الجنة، حتى أن بعض الشيعة يُسَمُّون أبناءهم بـ«كلب علي»، ويُؤَمِّل من سُمِّيَ بذلك النجاةَ بالقياسِ الأولويِّ على ما ذُكِرَ، ويُنشِد:

فِـتْـيـةُ الـكـهـفِ نجـا كلبُهُمْ كيف لا ينجو غدًا كلبُ عَلي

ولعمري إن قَبِلَهُ عليٌّ -كرَّم الله تعالى وجهه- كلبًا له؛ نجا، ولكن لا أظنه يقبله؛ **لأنه عقور**» اهـ[1].

(١) «روح المعاني» (١٥/ ٢٢٦)، **والعَقُور:** هو الذي يجرح ويفترس ويَعَضُّ.

قصة الملك والوزير والكلاب



يُحكى أن مَلِكًا أمر بتجويع عشرة كلاب؛ ليسلطهم على كل وزير يخطئ ويحبسهم معه، فلما أخطأ يومًا أحد الوزراء أمر الملك بأن يُرمى للكلاب، فقال له الوزير: «هكذا تفعل بي وقد خدمتك عشر سنوات؟» ثم طلب من الملك أن يمهله عشرة أيام، فوافق، فذهب الوزير إلى حارس الكلاب فقال له: «أريد أن أخدم الكلاب لمدة عشرة أيام فقط»، سأله الحارس: وماذا تستفيد؟ فقال له الوزير: «سوف أخبرك بالأمر مستقبلًا»، فقال له الحارس: «لك ذلك». فقام الوزير بالاعتناء بالكلاب وإطعامها وتغسيلها ووفر لها جميع سُبل الراحة، وبعد مرور عشرة أيام حان وقت تنفيذ الحكم بالوزير، وزُجَّ به في السجن مع الكلاب، والملك ينظر إليه والحاشية، فاستغرب الملك مما رآه!! وهو أن الكلاب جاءت تحت قدميه وهي جائعة، فسأله الملك: «ماذا فعلت للكلاب؟» فقال له الوزير: «خدمت هذه الكلاب عشرة أيام فلم تنسَ الكلاب هذه الخدمة، وخدمتك أنت عشر سنوات فنسيتَ كل ذلك».

هذا ما فعلته الكلاب مع مَن اهتمَّ بها لمدة أيام معدودة، بينما الإنسان لم يفهم أو يقدّر خدمة السنوات الطوال!



قصة الكلب «هاتشيكو»
(قصة حقيقيَّة)



انتظر صاحبه عشرة أعوام كاملة في محطة القطار:

تعرَّف (هاتشيكو) على شوارع إحدى ضواحي طوكيو عندما دخلها لأول مرة في عام ١٩٢٤م مع صديقه البروفسور (هتسابورو أوينو) وهو أستاذ في قسم الزراعة في جامعة (طوكيو).

ومنذ أن عرف تفاصيل المكان وحفِظ ملامح المارَّة كان (هاتشيكو) يودع البروفسور في صباح كلِّ يومِ عملٍ، وينظر إليه وهو يمشي خارجًا من باب البيت، وفي نهاية اليوم يذهب (هاتشيكو) إلى محطة القطار (شيبويا) القريبة وينتظر عودة صديقه، ويستقبله بفرح الأطفال مع عودة آبائهم بقطع الحلوى.

الفرق الوحيد هو أن (هاتشيكو) لم يكن يبحث عن حلوى أو أي مقابل، ما كان يبحث عنه ويحتفل به على طريقته هو عودة صديقه من الجامعة.

لم يعد (هاتشيكو) يقنع بالبقاء في البيت، ولم يكتفِ بمجرد النظر إلى صديقه وهو يغادر، بل أصبح يرافقه ويمشي معه إلى المحطة، لم يقتصر السرور بالكلب على صاحبه، بل تعدَّى ذلك إلى أفراد الحي جميعًا، فقد صنع

(هاتشيكو) خلال الوقت صداقة مع أصحاب المحلات في الطريق إلى محطة القطار، وعَلاقة صداقة مع ركَّاب القطار العائدين من أعمالهم في نهاية اليوم.

وفي يوم من أيام مايو من عام ١٩٢٥م طال انتظار (هاتشيكو) أمام المحطة، الكل خرج من ذلك الباب، جميع الوجوه المألوفة التي اعتاد على تجاهلها كل يوم، ولم يَعُدْ صديقه، انتظره طيلة الليل ولم يَعُدْ، ما لم يعلمه (هاتشيكو) هو أن صديقه البروفسور قد توفي عقب إصابته بجلطة في الدماغ ذلك اليوم وهو يلقي إحدى محاضراته، ولم يعد أبدًا إلى محطة القطار حيث ينتظره (هاتشيكو).

(هاتشـيكو) لم يعلم مـا الذي حصل لصديقـه، فهامَ على وجهـه في أزِقَّة المدينة، ولم يستطع البقاء في البيت أبدًا بعد ذلك.

ورغم الحزن الذي خلَّفه غياب صديقه، إلا أنه استمرَّ في ممارسة الحياة والمرور كل صباح أمام منزل البروفسور، ومع الوقت أيقن أنه لن يعود إلى المنزل، فتوقف عن الذهاب إلى هناك، وأصبح يكتفي بالانتظار أمام باب محطة القطار حيث كان يودعه ويستقبله.

وهذا ما استمرَّ (هاتشيكو) بفعله، فقد كان يحضر أمام الباب كل مساء في موعد قدوم القطار، وكل يوم لا يرى صديقه بين الركاب الخارجين من المحطة، فيجمع خيبته وينسحب إلى ظلام أزِقَّة المدينة لينامَ في الشارع، ويعود إلى أملٍ آخَرَ في اليوم التالي.

تعاطف العابرون والخارجون من محطة القطار معه وهو يجلس على الرصيف نفسه كل يوم، فأصبح الكثير منهم يحضر الطعام لهاتشيكو؛ كي يأكل في أوقات انتظاره لصديقه التي استمرت لمدة عشر سنوات، ولو كان بإمكانه الانتظار أكثر لفعل ذلك، ولكن الموت جاءه مساء ليلة وهو ينتظر أمام باب محطة القطار (شيبويا) فتمدد ميتًا.

وهذا كلب آخر في الهند مات صاحبه في حادث مروري، فبقي ملازمًا قبره لا يفارقه(١).



(١) ولقد ضَمَّت الشبكة العنكبوتية نماذج لا تُحْصَى تُجَسِّدُ وفاءَ الكلب (صوتًا وصورة) وكلها تشي باتصافه بالوفاء النادر الذي صار بين البشر عزيزًا كالكبريت الأحمر، فسبحان من اختصَّ بالوفاء الكلاب، وحَرَمَه بعضَ مَن لبس الثياب!

وفـاء بلبـل



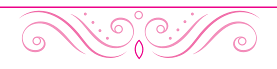
قال عارم: أتيتُ أبا منصور أعوده، فقال لي: بات سفيان الثوري في هذا البيت، وكان هنا بلبل لابني، فقال: «ما بال هذا محبوسًا؟ لو خُلِّي عنه؟» قلت: «هو لابني، وهو يهبه لك»، قال: «لا، ولكن أعطيه دينارًا»، قال: فأخذه فخلى عنه، فكان البلبل يذهب ويرعى، فيجيء بالعشي، فيكون في ناحية البيت، فلما مات سفيان، تبع جنازته، فكان يضطرب على قبره، ثم اختلف بعد ذلك ليالي إلى قبره، فكان ربما بات عليه، وربما رجع إلى البيت، ثم وجدوه ميتًا عند قبره، فدُفِنَ عنده[1].



(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٦).

الوفاء للحيـــوان

الوفاء للجمال



تقدم قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما خَـلأتِ الـقَـصْـواءُ، ومـا ذاك لها بخُلُقٍ**»(١).

وكذا سبق حديث عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المرأة الأنصارية، التي جعلت لله عليها إنِ الله أنجاها على الناقة العضباء لَتَنْحَرَنَّها، فلمَّا قَدِمَتِ المدينةَ عَرَفوا الناقةَ، وقالوا: ناقةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: إنَّها قد جَعَلَتْ لله عليها لَتَنْحَرَنَّها، فقالوا: واللهِ لا تَنحَريها حتى نُؤْذِنَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَتَوْهُ فأخبروه أنَّ فُلانةَ قد جاءت على ناقتِكَ، وأنَّها قد جَعَلَتْ لله عليها إنْ أَنْجاها اللهُ عليها لَتَنْحَرَنَّها.

فقال رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبحانَ اللهِ! بِئسَ ما جَزَتْها إنْ أَنْجاها اللهُ عليهـا لَتَنْحَرَنَّهـا! لا وَفـاءَ لِنَـذْرٍ في معصيـةِ اللهِ، ولا وَفـاءَ لِنَذْرٍ فيمـا لا يَملِكُ العبدُ، أو قال: ابنُ آدَمَ**»(٢).

(١) تقدم (ص٩٦).
(٢) تقدم (ص٩٧).

وهاك قصَّةً مؤثرةً تجسد حرص المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الرفق بالإبل وإنصافها، واحترام الخدمات التي تقدمها للإنسان.

عن يَعْلَى بنِ مُرَّةَ، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «سافرت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرأيتُ منه شيئًا عَجَبًا...» الحديثَ، وفيه:

ثم أتاه بعير فقام بين يديه فرأى عينيه تدمعان، فبعث إلى أصحابه فقال: **«ما لِبَعِيرِكُم هذا يَشْكُوكُم؟!»**.

فقالوا: كنَّا نعمل عليه، فلمَّا كَبِرَ وذهب عمَلُه تَواعَدْنا عليه لِنَنْحَرَهُ غدًا.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تَنحَرُوهُ، واجعَلُوهُ في الإبلِ يَكونُ معها»**(١).

وفي رواية عن يَعْلَى، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«ما لِبَعِيرِكَ يَشْكُوكَ؟! زَعَمَ أنَّك سَنَأْتَهُ**(٢)**، حتَّى إذا كَبِرَ تُريدُ أنْ تَنحَرَهُ»**(٣).

وفي رواية للإمام أحمدَ عن يَعْلَى أيضًا، قال: «... وكنت معه جالسًا ذات يوم، إذ جاء جملٌ يُخَبِّبُ(٤)، حتى ضَرَبَ بِجِرانِه(٥) بيْنَ يديه، ثم ذَرَفَتْ عيناه، فقال: **«وَيْحَكَ! انظُرْ لِمَنْ هذا الجملُ؛ إنَّ له لَشَأنًا»**.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٣٢)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي. وانظر تعليق الألباني عليه في «السلسلة الصحيحة» رقْم (٤٨٥).

(٢) **معنى «سَنَأْتَه» أو «سَنَوْتَه»:** اتخذته للسقاية عُمُرَه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٧٥٦٧). وانظر: «الصحيحة» رقْم (٤٨٥).

(٤) هذا ضربٌ من العدْو.

(٥) **ضَرَبَ بِجِرانِه:** يقال للبعير إذا بَرَكَ، **والجِران:** باطن العنق من البعير وغيره.

قال: فخرجت ألتمسُ صاحبه، فوجَدْتُه لرجُل من الأنصار، فدعوته إليه، فقال: «**ما شأنُ جَمَلِكَ هذا؟**».

فقال: وما شأنُه؟ قال: لا أدري واللهِ ما شأنُه، عَمِلْنا عليه، ونَضَحْنا عليه، حتى عَجَزَ عن السِّقاية، فأْتَمَرْنا البارِحةَ أنْ نَنحَرَهُ، ونَقْسِمَ لحمَه.

قال: «**فلا تَفعَلْ، هَبْهُ لي، أو بِعْنِيهِ**».

فقال: بل هو لك يا رسول الله.

قال: فوَسَمَهُ بِسِمَةِ الصدقةِ[1]، ثم بَعَثَ به[2].

وفي رواية أنه قال: «**أَحسِنُوا إليه حتَّى يَأتِيَهُ أجَلُه**».

وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغضب أشدَّ الغضب عندما يرى أحدًا من أتباعه قد ظلم دابته، ويعد ذلك مناقضًا للوفاء الذي تستحقه مقابل خدمتها إياه.

وقد حدث زمَنَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن جملًا اشتكى إليه النصَبَ الذي كان يلاقيه من صاحبه، وقد سمِع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شكواه، وتأثر لذلك.

فقد روى أبو داودَ في «سننه»[3] أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل حائطًا لرجل من

---

(١) أي: أعلَمَه بعلامة إبل الصدقة.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٧٥٤٨)، وضعَّفه محقِّقو «المسند» (٢٩/ ٩٢).

(٣) برقم (٢٥٤٩). وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقْم (٢٠): «إسناده صحيح على شرط مسلم».

الأنصار، فإذا جملٌ، فلمَّا رأى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ، وذَرَفَت عيناه، فأتاه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمسَحَ ذِفْراهُ[(١)] فسكتَ، فقال: «**مَن رَبُّ هذا الجملِ؟ لِمَن هذا الجملُ؟**».

فجاء فتًى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، قال: «**أفلا تَتَّقي اللهَ في هذه البهيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاها؟! فإنَّه شَكَا إلَيَّ أنَّك تُجِيعُه وتُدْئِبُه[(٢)]**».

ويتكرر الموقف من صحابيٍّ آخَرَ عندما رأى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناقةً معقولة، ويبدو عليها الجوع، فقال: «**أين صاحبُ هذه الراحلة؟**».

فلم يستجب له أحد، فدخل المسجد، فصلى حتى فرغ، فخرج فوجد الراحلة كما هي، فقال: «**أين صاحب هذه الراحلة؟**».

فاستجاب له، فقال: أنا يا نبيَّ الله.

فقال: «**ألا تتقي الله** عَزَّ وَجَلَّ **فيها؟ إما أن تعقلها وتطعمها، وإما أن ترسلها حتى تبتغي لنفسها**».

ومَرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببَعيرٍ قد لَحِقَ ظَهْرُه ببطنِه، فقال: «**اتَّقُوا اللهَ في**

---

(١) **الذِّفْرَى من البعير:** مؤخَّر رأسه، وهو الموضع الذي يعرق مِن قفاه. قاله الإمام الخَطَّابي رَحِمَهُ اللهُ في «معالم السنن» (٢/ ٢٤٨).

(٢) أي: تتعبه.

هذِه البَهائمِ المُعْجَمةِ[(١)]**؛ فارْكَبُوها صالِحةً، وكُلُوها**[(٢)] **صالِحةً»**[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا سافَرْتُم في الخِصْبِ فأَعْطُوا الإبِلَ حَظَّها مِنَ الأرضِ، وإذا سافَرْتُم في السَّنَةِ فأَسرِعُوا عليها السَّيْرَ، وإذا عَرَّسْتُم باللَّيلِ فاجتَنِبُوا الطَّريقَ؛ فإنَّها مَأْوى الهَوامِّ باللَّيلِ»**[(٤)].

---

(١) **المُعْجَمة:** أي: التي لا تقدر على النطق فتشكو ما أصابها من جوع أو عطش. وأصل الأعجم: الذي لا يفصح بالعربية، ولا يجيد التكلم بها، عجميًّا كان أو عربيًّا، سُمِّيَ به؛ لعُجمة لسانه، والتباسِ كلامِه.

(٢) قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: «**كُلُوها**» قَيَّدوها بضم الكاف، من الأكل، وعليه جرى المُناويُّ في شرح هذه الكلمة، فإذا صحَّتِ الرواية بذلك فلا كلام، وإلَّا فالأقرب عندي أنها «**كِلُوها**» بكسر الكاف، مِن: وَكَلَ يَكِلُ كِلْ؛ أي: اتركوها، هذا هو المتبادر من سياق الحديث. ويؤيِّده الحديثُ المتقدم (رقْم ٢١) بلفظ: «**ارْكَبُوا هذِه الدَّوابَّ سالِمَةً، وايْتَدِعوها سالِمةً...**»، أي: اتركوها سالمةً، والله أعلم» اهـ. من «السلسلة الصحيحة» التعليق على الحديث رقْم (٢٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨).

وقال الألباني في «الصحيحة» رقْم (٢٣): «قلت: وسنده صحيح كما قال النَّوَويُّ في (الرياض) وأقرَّه المُناويُّ. وقد تابعه عبدُ الرحمن بنُ يَزيدَ بنِ جابرٍ، قال: حدَّثَني ربيعةُ بنُ يَزيدَ ... به أتَمَّ منه، ولفظُه: (خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حاجة، فمَرَّ ببعيرٍ مُناخ على باب المسجد مِن أوَّلِ النَّهارِ، ثمَّ مَرَّ به آخِرَ النَّهارِ وهو على حاله، فقال: «**أين صاحِبُ هذا البَعير؟**»، فابتُغِيَ فلم يوجَدْ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقوا اللهِ في هذِه البهائمِ؛ ارْكَبوها صِحاحًا، وارْكَبوها سِمانًا**»؛ كالمُتَسَخِّطِ آنِفًا).

الإمام أحمد (٤/ ١٨٠، ١٨١)، وابن حبان (٥٤٥، ٣٣٩٤)، وقال الألباني: «سنده صحيح على شرط البخاري».

وقال ابن حبان: «وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**ارْكَبُوها صِحاحًا**) كالدليل على أن الناقة العَجْفاءَ الضعيفة يجب أن يُتَنَكَّبَ ركوبُها إلى أن تَصِحَّ. وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**وكُلُوها سِمانًا**) دليل على أن الناقة المهزولة التي لا نِقْيَ لها يُستحَبُّ تَرْكُ نَحرِها إلى أن تَسْمَنَ». «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (٢/ ٣٠٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٦).

والسَّنَة: القحط. **والتعريس:** نزول المسافر آخرَ الليل نزلة للنوم والاستراحة. =

وفي لفظ لمسلم: «**إذا سافَرْتُم في الخِصْبِ فأَعْطُوا الإبِلَ حَظَّها مِنَ الأرضِ، وإذا سافَرْتُم في السَّنَةِ فبادِرُوا بها نِقْيَها**»(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أَخصَبَتِ الأرضُ فانزِلُوا عن ظَهْرِكُم، وأَعْطُوا حَقَّهُ مِنَ الكَلأِ، وإذا أَجدَبَتِ الأرضُ فامْضُوا عليها، وعليكم بالدُّلْجةِ؛ فإنَّ الأرضَ تُطْوى باللَّيلِ**»(٢).

وفي رواية: «**إذا سِرْتُم في أرضٍ خِصْبةٍ، فأَعْطُوا الدَّوابَّ حَقَّها -أو: حَظَّها-، وإذا سِرْتُم في أرضٍ جَدْبةٍ فانْجُوا عليها**(٣)**، وعليكم بالدُّلْجةِ؛ فإنَّ الأرضَ تُطْوى باللَّيلِ، وإذا عَرَّسْتُم فلا تُعَرِّسُوا على قارعةِ الطَّريقِ؛ فإنَّها مَأوَى كلِّ دابَّةٍ**»(٤).

= «ومعنى الحديث: الحثُّ على الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها، فإنْ سافروا في الخِصب قَلَّلوا السَّيْرَ وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير، فتأخذ حظها من الأرض بما ترعاه منها، وإنْ سافروا في القحط عجَّلوا السير؛ ليصلوا المقصَدَ وفيها بقية من قوتها، ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر؛ لأنها لا تجد ما ترعى فتضعف ويذهب نِقْيُها، وربما كَلَّتْ ووقفت» اهـ. من «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ٦٩).

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «النِّقْي -بكسر النون وإسكان القاف-: هو المخ». «شرح مسلم» (١٣/ ٦٩).
والنقي: الشحم والوَدَك؛ والمعنى: أن ينجو عليها وهي في عافيتها حتى يحصل في بلد الخِصب.

(٢) أخرجه الطحاوي في «المُشْكِل» (١/ ٣١)، والبيهقي (٥/ ٢٥٦).
وقال الألباني: «وهذا سند صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غيرَ رُوَيم، وهو ثقة» اهـ. من «السلسلة الصحيحة» حديث رقْم: (٦٨٢).

(٣) أي: أسرعوا، والنجاء -بالمد والقصر-: السرعة؛ أي: اطلبوا النجاء من مفاوزكم بسرعة السير عليها؛ لتبلغكم المنزل قبل ضَعفها. انظر: «فيض القدير» للمُناوي (١/ ٣٦٥، ٣٧٤).

(٤) أخرجه البزار (ص١١٣ - زوائد)، والبيهقي (٥/ ٢٥٦). وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٥٧).
والدُّلْجة -بضم الدال وفتحها-: سير الليل.

جواز الوقف على الحيوان حتى يموت:

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه كان يسيرُ على جمل له قد أَعْيَا[١]، فمَرَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضربه، فدعا له، فسار بسَيرٍ ليس يَسيرُ مِثلَه[٢]... ثم قال: «**بِعْنِيهِ بِوَقِيَّةٍ**»، فبِعْتُه[٣]، فاستَثْنَيْتُ حُمْلانَهُ إلى أهلي[٤]، فلمَّا قَدِمْنا أَتَيْتُه بالجمل[٥] ونَقَدَني ثَمَنَه، ثم انصرفتُ، فأرسَلَ على إِثْري، قال: «**ما كنتُ لآخُذَ جَمَلَكَ**[٦]، **فخُذْ جَمَلَكَ ذلك، فهو مالُكَ**[٧]»[٨].

---

(١) أي: تعب. وعند مسلم في كتاب البيوع من «صحيحه» (٧١٥/ ١٠٩): «أنه كان يسيرُ على جمل له قد أَعْيَا، فأراد أن يُسَيِّبَه» أي: يطلقه.

(٢) وفي رواية: «فضربه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعا له، فمشى مشية ما مشى قبل ذلك مثلَها».
وفي رواية -عند البخاري (٢٩٦٧)، ومسلم (٧١٥)- أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لجابر: «**ما لِبَعيرِكَ؟**»، قال: قلت: عَليلٌ، قال: فتخَلَّفَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فزجره، ودعا له، فما زال بين يَدَيِ الإبل قُدَّامَها يَسيرُ، قال: فقال لي: «**كيف تَرَى بَعيرَكَ؟**»، قال: قلتُ: بخيرٍ، قد أصابَتْهُ بَرَكَتُكَ.

(٣) في رواية -عند الإمام أحمدَ (١٥٠٢٦)- أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَتَبيعُني جَمَلَكَ هذا يا جابرُ؟**»، قال: قلت: يا رسولَ اللهِ، بلْ أَهَبُه لك، قال: «**لا، ولكنْ بِعْنِيهِ**».

(٤) أي: استثنيت حَمْلَه إيَّاي.

(٥) وفي رواية للبخاري (٢٣٨٥): «فلمَّا قَدِمَ المدينةَ، غَدَوْتُ إليه بالبعير، فأعطاني ثَمَنَه».

(٦) وفي رواية للإمام أحمدَ (١٤١٩٥): «**ظَنَنْتَ حين ماكَسْتُكَ أنْ أذهَبَ بجَمَلِكَ؟! خُذْ جَمَلَكَ وثَمَنَه، هُمَا لكَ**».

(٧) وفي رواية للبخاري (٢٤٠٦): «فأعطاني ثَمَنَ الجملِ، والجملَ، وسهمي مع القوم».
ولأحمدَ (١٤٢٥١) من طريق أبي هُبَيْرَةَ، عن جابر قال: «فلمَّا أَتَيْتُه دفَعَ إليَّ البعيرَ، وقال: (**هو لكَ**). فمررت برجُلٍ من اليهود، فأخبرته، قال: فجعَلَ يَعجَبُ، فقال: اشتَرَى منك البعيرَ، ودفَعَ إليك الثَّمَنَ، ووَهَبَهُ لكَ؟! قلت: نعم».
قال ابن الجوزي: «هذا من أحسن التكرم؛ لأن من باع شيئًا فهو في الغالب محتاجٌ لثمنه، فإذا تعوض من الثمن بقيَ في قلبه من المبيع أسفٌ على فراقه، كما قيل:

وقد تخرجُ الحاجاتُ يا أُمَّ مالكٍ ... نَفائسَ من رَبٍّ بهنَّ ضَنينِ

فإذا رُدَّ عليه المبيعُ مع ثمنه ذهب الهمُّ عنه، وثبت فرحُه، وقُضيت حاجته، فكيف مع ما انضم إلى ذلك من الزيادة في الثمن؟!» اهـ. راجع «كشف المُشْكِل من حديث الصحيحين» لابن الجوزي (٣/ ٢٢)، و«فتح الباري» لابن حجر (٥/ ٣١٧).

(٨) أخرجه البخاري (٢٧١٨)، باب: (إذا اشترط البائع ظَهرَ الدابة إلى مكانٍ مُسَمًّى جازَ).

وفي رواية عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فأقام الجملُ عندي زمانَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر وعُمرَ، فعجز، فأتيتُ به عُمرَ، فعَرَفَ قصته، فقال: اجعَلْهُ في إبل الصدقة، وفي أطيب المراعي. ففعل به ذلك إلى أن مات»[١].

وهذا الوقف في الحيوان الذي ينتفع به عادة، عند العجز عن الانتفاع به، أما ما جرى عليه الغربيون من سفاهات بوقف أموالهم والوصية بها لقططهم وكلابهم فهو من إضاعة المال من غير منفعة.

وعن معاويةَ بنِ قُرَّةَ، قال: كان لأبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَمَلٌ يقال له: (دمون)، فكان إذا استعاروه منه قال: «لا تَحمِلوا عليه إلَّا كذا وكذا؛ فإنه لا يُطيقُ أكثرَ من ذلك».

فلمَّا حضَرَتْهُ الوفاةُ قال: «يا دمون، لا تخاصمني غدًا عند ربي؛ فإني لم أكنْ أحملُ عليك إلَّا ما تُطيقُ»[٢].



(١) «تاريخ دمشق» (١١/ ٢٢٥). وانظر: «فتح الباري» (٥/ ٣٢٢).
(٢) أورده الألباني في تضاعيف كلامه على الحديث رقم (٣٠) من «السلسلة الصحيحة»، وعزاه لأبي الحسن الإِخْمِيميِّ في «حديثه».

الوفاءُ لِلْخَيْلِ[(١)]

ليس مستغربًا أن نجد الحضارة الإسلامية تفرز أدبًا وشعرًا يتدفق رحمة وعطفًا ووفاءً لبعض الحيوانات، وبخاصَّةٍ الخيولُ.

ولعل المتأمِّلَ لقصائد الرثاء لِبِرْذَوْنِ الشاعر أبي عيسى المُنَجِّمِ، التي باتت تُعرف في أدبنا باسم «البرذونيات»، يجد خير شاهد على احتفاء العربي بالحِصان، وحُبِّه له، وتألُّمِه لِفراقه؛ فقد رثاه كوكبةٌ من الشعراء بعيون القصائد، سنقتصر على ذكر مطالعِ بعضِها، التي تعبِّر عن تعاطف صحافة ذلك العصر (الشِّعر) مع الحِصان وما يحتله من مكانة عند الأمَّة، حتى وصل الحال إلى تمنِّي بعضِهم أن لو كان في الإمكان أن يفديَه بالنفْس والولد!

ومن أوائل هذه القصائد قصيدةُ الشاعر أبي القاسمِ الزَّعْفَرانيِّ التي قال في مطلعها:

كُنْ مَدَى الدَّهْرِ في حِمَى النَّعْماءِ ... مُستَهيِنًا بحادِثِ الأَرْزاء

يَنثَني الخَطْبُ حينَ يَلْقاكَ عن طَوْ ... دٍ شَديدِ الثَّباتِ للنَّكْباء

---

(١) انظر: «الرفق بالحيوان» للبلوي (ص٤٥-٤٧)، و«فقه الإحسان إلى الحيوان» للمصنف (ص١٤٠-١٤٣).

أمَّا قصيدةُ الشاعر أبي القاسم بن أبي العلاء، فاستهلَّها بقوله:

عَزاءً وإنْ كان المُصابُ جليلا ... وصبرًا وإنْ لم يُغْنِ عنك فَتِيلا

وخفِّضْ أبا عيسى عليكَ ولا تُفِضْ ... دُموعًا وإنْ كان البكاءُ جميلا

وعبَّر أبو الحسنِ السَّلَاميُّ عن عِظَم المُصاب، فقال:

فِدًى لكَ بَعْدَ رُزْئِكَ مَن يَنامُ ... ومَن يَصْبُو إذا سَجَعَ الحَمامُ

وقال أبو العباس الضَّبِّيُّ:

دَعَا ناظِري يفقدْ لذيذَ اغتِماضِهِ ... وقلبيَ يَستَشْعِرْ أليمَ ارتِماضِه

فقد جادَ سَبَّاقُ الجِيادِ بنفْسِهِ ... فلا ظهرَ منها لم يَمِلْ لانهياضِه

وقال أبو سعيدٍ الرُّسْتُميُّ:

لَهَفي على ذلكَ الجَوادِ مَضَى ... في سَفَرٍ لا يَؤُوبُ غائِبُهْ

لو عَرَفَ الخَيلُ مَن نَعَيْتُ لها ... ضاقَتْ بها في السُّرَى مَذاهِبُهْ

وقد رَدَّ أبو عيسى على المعزِّينَ شاكرًا لهم بقصيدةٍ عصماءَ، من أبياتها:

لقد عَظُمَتْ عِندي المصيبةُ في الأصدا ... وأبدَتْ ليَ اللَّذَّاتُ مِن بَعدِه صَدًّا

وأُهْدِيَ إلى قلبي المصابِ بفَقدِهِ ... من الحزنِ ما لو نالَ يَذبُلَ[1] لانهَدَّا

وأصبحتُ مشغولَ المَدامِعِ بالبُكا ... ولي مُهْجةٌ تَستَشعِرُ الحُزنَ والوَجْدَا

ولو كان يُغنيني الفِداءُ فَدَيْتُهُ ... بنفسي وأهلي؛ فهو أهلٌ لأنْ يُفْدى

---

(١) **يَذْبُل**: جبل بنجد، وقد ورد ذكره في شعر الفحول؛ كامرئِ القيس، والنابغة الجَعْدي، وغيرِهما.

ولـكـنَّـهُ لَـبَّـى المَـنــونَ مُـبــادِرًا ويـا لَـيْـتَـهُ لَمَّـا دَعــاهُ الــرَّدَى رَدَّا

وقد هـاجَ لي حُزنًا عليه تَحَسُّري فهَيَّمَني وَجْـدًا وذَكَّـرَنـي نَجْـدَا

ولعل المحلل المنصف لمضمون ما تقدم من أبياتٍ شعرية لا يَسَعُه إلا أن يشهد بعظَمة العاطفة لدى العربي تُجاه الحِصان، وما يُكِنُّه له من حب وتقدير، حيث رثاه كما يَرثي أباه أو أخاه، أو فِلْذةَ كَبِدِه الذي ربَّاه، وبَكاهُ.

وخلافًا لِما يحدث في معظم حضارات العالم، وحتى في الحضارة الأوربية اليومَ، حيث يتم إطلاق رصاصة الرحمة على الفَرَس الذي تقدم به السن أو الذي عجز عن الخدمة = كانت الحضارة الإسلاميةُ وفيَّةً لمن خدمها، رحيمةً بمن ساهم معها في تحقيق الانتصارات والفتوحات الباهرة؛ فقد ضمِنت رعايةً مميَّزة للخيول التي عجزت عن الخدمة لسبب من الأسباب، فخصصت لها من الأوقاف ما يضمن لها حياة كريمة، فكانت -على سبيل المثال- مرجةُ دِمَشْقَ على الضفة الجنوبية لنهر «بَرَدَى» كلُّها وقفًا على الخيل التي تعِبت في الجهاد، وأسنَّت، فتأكل من نبات هذه الأرض الخِصبة، وتشرب من مياه «بَرَدَى» حتى يأتيَها أجَلُها بشكل طبيعي[١].



(١) وقد تعددت أحواض المياه التي أنشأها الخيِّرون وأوقفوها سُبلًا لسقي الدواب في مختلف أرجاء وامتداد الدولة الإسلامية، ومن ذلك ما جاء في وصف خانقاه الأمير طغاي النجمي: أنه بنى بجانبها حمَّامًا، وعمِل بجانب ذلك الحمَّام ماءً للسبيل تَرِدُه الدوابُّ، وأوقف عليه عدةَ أوقاف.
كذلك أقام السلطان قايتباي عدة أسبلة لسقي الدواب في مصر.

الوفاء للديك



وعن زيد بن خالد الجُهَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَسُبُّوا الدِّيكَ؛ فإنَّه يَدْعو إلى الصَّلاةِ**»[(١)]. وفي رواية أبي داودَ: «**فإنَّه يوقِظُ لِلصَّلاةِ**».

قال الإمام الحليمي في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإنه يدعو إلى الصلاة**» دليل على أن كل من استفيد منه خير لا ينبغي أن يُسَبَّ ويُستهان به، بل حقّه أن يُكْرَّمَ ويُشكر ويُتَلَقَّى بالإحسان، وليس معنى دعاء الديك إلى الصلاة أنه يقول بصراخه حقيقة: الصلاة، أو: قد حانت الصلاة بل معناه أن العادة قد جرت بأنه يصرخ صرخات متتابعة عند طلوع الفجر، وعند الزوال، فطرة فطره الله عليها، فيتذكَّر الناس بصُراخه الصلاة، ولا يجوز لهم أن يصلّوا بصراخه من غير دلالة سواه إلا من جُرِّبَ منه ما لا يُخاف فيصير ذلك له إشارة، والله أعلم، انتهى.

قال الدميري: «ولهذا أفتى القاضي حسين والمتولي والرافعي بجواز اعتماد الديك المجرَّب في أوقات الصلاة»، وقال أيضًا: «روى الشيخ محب الدين الطبري أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يسافرون بالديكة لتعرفهم أوقات الصلاة»[(٢)].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٦٧٩)، (١٧٠٣٤)، وأبو داود (٥١٠١)، وابن حبان (٥٧٣١)، وغيرهم، وقد اختُلِف في وصله وإرساله، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٢٥٤)، وقال الشيخ شعيب: «إسناده صحيح على شرط الشيخين» كما في «تحقيق الإحسان» (١٣/ ٣٨).

(٢) انظر: «حياة الحيوان» للدميري (١/ ٣٢٨، ٣٢٩).

الوفاء للكلب



ركض بعض الملوك خلف كلب وقد دنا من ظبي، وهو يقول -من الفرح-: إيه فدَتْكَ نفْسي.

وقال أبو نُوَاس:

مُـــفـــدَّيـــاتٌ ومحـمـيـاتـهـا　　　مُـسـمَّـيـات مـعـلَّـمـاتُـهـا

وأنشد بعض المدنيين يصف كلبًا له يقال له: «موق» بالشدة:

يا موقُ لا ذقتَ بوس العيش يا موقُ　　　ولا مُنيتَ بشربٍ فيه ترنيقُ[1]



(١) **الترنيق**: تعكير الماء وتكديره.

الوفاء للقط[١]



لعلَّ المتأمِّلَ في القصائد التي قيلت في القطط في تراثنا الشعري يلحظ ما أحدثه الإسلام من تأثير في صقل عواطف العربي تُجاهَ الحيوان، حتى أخذ يتعاطف معه، ويشعر بشعوره، ويتألم لفقده، حتى إن الشعراء لم يجدوا حرجًا من رثائه بقصائدَ عصماءَ.

وفيما يلي نذكر بعض الشواهد الشعرية التي تجسِّدُ نُضْجَ العواطف، وسُمُوَّ الأخلاق، وتأصُّلَ مبدأ الرفق بها، والوفاء لها:

ولعل من أظهرِ الشواهد ما نظمه أبو بكر ابن العَلَّاف، الضريرُ، الحسنُ ابن عليِّ بنِ أحمدَ بنِ بشَّار بن زياد النَّهْرَوانيُّ (ت: ٣١٨ هـ، أو ٣١٩ هـ) في رثاء هِرٍّ، قال عنها ابن خلِّكانَ: «هي من أحسن الشعر وأبدعِه، وعددها خمسة وستون بيتًا ... »[٢]، منها:

يا هِرُّ فارَقْتَنا ولم تَعُدِ ... وكنتَ عِندي بمَنزِلِ الوَلَدِ

فكيف نَنْفَكُّ عن هَواكَ وقد ... كنتَ لنا عُدَّةً مِنَ العُدَدِ

تَطْرُدُ عَنَّا الأذى وتَحرُسُنا ... بالغَيبِ مِن حَيَّةٍ ومِن جُرَذِ

---

(١) انظر: «الرفق بالحيوان» للبلوي (ص٦٩، ٧٠)، و«فقه الإحسان إلى الحيوان» للمصنف (ص١٣٨، ١٣٩).

(٢) «وفيات الأعيان» (٢/ ١٠٩).

وقد عارض ابن العميد -أبو الفضل محمد بن الحسين (المتوفَّى سنة ٣٦٠هـ) - القصيدةَ السابقة بقصيدته الهرية، التي منها:

يا هِرُّ فارَقْتَنا مُفارَقةً ... عَمَّتْ جميعَ النُّفوسِ بالثَّكْل

لو كان بالحادثاتِ لي قِبَلٌ ... إذًا أتاك الصَّريخُ[1] مِن قِبَلي

يا مَثَلًا سائرًا إذا ذُكِرَ ... الحُسْنُ تركتَ الحِسانَ كالمُثُلِ

وقيل: هلْ تَفتَديهِ إنْ قَبِلَ الدَّ ... هْرُ فِداءً؟ فقُلْتُ: حَيَّهَلِ

وتبلغ ذروة تعاطف الشاعرِ أحمدَ النحويِّ الحِلِّيِّ مع القطط عندما يَرْثي هرةً كانت في داره اسمها (شَذْرة)، ويعزِّي أمَّها (بَريش) بأبيات تتدفَّق حنانًا ورحمة ووفاءً ورفقًا بهذا الحيوان، ومما قال:

أَشَذْرَةُ لَمَّا ذَهَبْتِ ولم تَعُودي ... فبُعْدُكِ جَفَّفَ بَعْدَ اللِّينِ عُودي

لَمَسْنا الفَرْشَ ليس نَراكِ فيها ... وفَتَّشْناكِ في كلِّ المُهُودِ

فَقَدْنا مَلْمسًا يَحْكي حريرًا ... ولَونًا مِثلَ ألوانِ الوُرُودِ

ألَا بَرِيشُ اصْطَبِري عليها ... فكمْ للنَّاسِ مِن وُلْدٍ فَقيدِ!

ومن عجيب ما يُحكى عن السيف الآمِديِّ: أنه ماتت له قطةٌ بحَماة فدفنها، فلما سكن دِمَشْقَ بعث ونقل عظامها في كيس، ودفنها بقاسِيُونَ[2].

وفي ترجمة أبي العباس الرفاعي: أن هرة نامت على كمه، وقامت الصلاة، فقص كمه وما أزعجها، ثم قعد فوصله، وقال: «ما تغير شيءٌ».

(١) **الصريخ:** المُغيث والمُجير.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٦٥).

تحريم الغـدر



الأمر بالوفاء بالعهد يستلزم النهي عن ضده وهو الغدر، وإذا كان الوفاء من شِيم الكرام؛ فإن الغدر من همم اللئام.

تعريف الغدر:

الغدر هو الإخلال بالشيء وتركه، والغدر ضد الوفاء بالعهد، يقال: غدره وغدر به غَدْرًا وغَدَرانًا إذا نقض عهده، وترك الوفاء به.

قال الجاحظ: «الغدر هو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به، وهو خُلُق مستقبح، وإن كان لصاحبه فيه منفعة»(١).

تحريم الغدر في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل:٩١].

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾: «لا تنقضوها بالغدر بعد توكيدها بالوفاء»(٢).

(١) «تهذيب الأخلاق» (ص٣٠).
(٢) «النكت والعيون» (٣/ ٢١٠).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٩٤].

أي: تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتم -خديعةً، وغرورًا؛ ليطمئنوا إليكم، وأنتم مضمرون لهم الغدر، وترك الوفاء بالعهد، والنَّقلة إلى غيرهم، من أجل أنهم أكثر منهم عَددًا وعُددًا وأعز نفرًا، بل عليكم بالوفاء بالعهود، والمحافظة عليها في كل حال[(١)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان قوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: «... لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده، ثم غدر به؛ لم يَبْقَ له وُثوقٌ بالدين؛ فانصدَّ بسببه عن الدخول في الإسلام»[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيءٍ مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ بل يبغضهم أشد

---

(١) «تفسير المراغي» (١٤/ ١٣٤).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٦٠٠) ط. دار طيبة.

البغض، فلابد من أمر بيِّنٍ يبرئكم من الخيانة... ودلَّ مفهومها أيضًا أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتمَّ مدته»(١).

ومن أشد الآيات في التنفير من نقض العهود بالغدر قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف:٢، ٣].

تحريم الغدر في السنة الشريفة:

– عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدَعَها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**»(٢).

– وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما خطبنا نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قال: «**لا إيمانَ لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهدَ له**»(٣).

– وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لكل غادرٍ لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**»(٤).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٢٤).
(٢) رواه البخاري (٢٢٢٧).
(٣) رواه الإمام أحمد (١٢٣٨٣)، وقال محققو «المسند»: «حديث حسن».
(٤) رواه مسلم (١٧٣٦).

- وعن نافع قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حَشَمَه وولده فقال: إني سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يُنصَبُ لكل غادر لواء يوم القيامة**»، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم أعظم من أن يُبَايعَ رجلٌ على بيع الله ورسوله ثم ينصبُ له القتالَ، وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه»(١).

- وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**... ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجرها، ولا يتحاشَ من مؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ عهده؛ فليس مني ولستُ منه**»(٢).

- وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أقبل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتُلِيتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهن**» الحديثَ، وفيه: «**ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم**»(٣).

- وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن في صحيفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**... ذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر(٤) مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدْل(٥)**» الحديث(٦).

---

(١) رواه البخاري (٧١١١)، ومسلم بنحوه (١٧٣٥).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٦).

(٤) **أخفر:** نقض العهد.

(٥) **عدل:** فداء.

(٦) رواه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠).

- وعن بُرَيْدَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أَمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصَّته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغْدِروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليدًا**» الحديث[(١)].

وأوصى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزيد بن أبي سفيان حين بعثه إلى الشام: «لا تقتلوا صبيًّا، ولا امرأة، ولا شيخًا كبيرًا، ولا مريضًا، ولا راهبًا»[(٢)].

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال الله: ثلاثة أنا خصمهم**[(٣)] **يوم القيامة: رجل أعطى بي**[(٤)] **ثم غدر**» الحديث[(٥)].

- وعن الحسن قال: جاء رجل إلى الزبير بن العوام فقال: ألا أَقتُلُ لك عليًّا؟ قال: لا، وكيف تقتُلُه ومعه الجنودُ؟ قال: أَلحق به فأفتُكُ به. قال: لا، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الإيمان قَيْدَ الفَتْكَ**[(٦)]**، لا يَفْتُكُ**[(٧)] **مؤمنٌ**»[(٨)].

(١) رواه مسلم (١٧٣١).
(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٧٥٩١).
(٣) نيابةً عمن ظلموه.
(٤) **أعطى بي:** حلف باسمي وعاهد، أو أعطى الأمان باسمي وبما شرعتُه من ديني.
(٥) رواه البخاري (٢٢٢٧).
(٦) قال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٤/ ٨٣): والفَتْك: أن يأتي الرجلُ الرجلَ وهو غارٌّ غافلٌ، فيشدّ عليه فيقتله، والغيلة: أن يخدعه ثم يقتله في موضع خفي، و«**الإيمان قيد الفتك**» أي: أن الإيمان يمنع من القتل، كما يمنع القيد عن التصرف، فكأنه جعل الفتك مقيدًا، ومنه في صفة الفرس: قَيْد الأوابد، يريد أنه يلحقها بسرعة، فكأنها مقيدة به لا تَعْدُوه.
وقال العسكري: «الناس يستحسنون لامرئ القيس: (قيد الأوابد) في وصف فرسه، يريد أن الأوابد من الوحش إذا رأته أيست أن تنجو منه، فتكون الفرس كالقيد لها، وقد اتفقَ في هذا الحديث ما هو أحسن منه من غير تعمل» اهـ. نقلًا من «فيض القدير» (٣/ ١٨٦).
(٧) خبر بمعنى النهي؛ لأن الفتك يتضمن المكر والخديعة.
(٨) رواه الإمام أحمد (١٤٢٦)، وغيره، وقال محققو «المسند»: «صحيح».

- وعن عمرو بن الحَمِق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أيُّما رجلٍ أَمَّن رجلًا على دمه ثم قتله؛ فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتولُ كافرًا**»[1].

- وكان المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يُسلِمَ قد خرج مع قوم من ثقيف، فلما كانوا بالطريق شربوا الخمر، فلما سكروا، وناموا؛ وثب المغيرة فقتلهم وأخذ أموالهم، ولحق بالمدينة فأسلم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلستُ منه في شيء**»[2] أي: لا أتعرض له لكونه أخذه غدرًا، وقد جاء في رواية: «**وأما المال فإنه مالُ غَدْرٍ لا حاجةَ لنا فيه**»[3].

تنبيه:

ليست الخديعة في الحرب من الغدر بسبيل، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحرب خُدْعة**»[4]، ولذلك لم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، وكان يوصي سراياه بالسير ليلًا والاستخفاء نهارًا، كي يفاجئ العدو ويأخذه على غِرَّة.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتفق العلماء على جواز خدع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقضُ عهدٍ أو أمان فلا يحل»، وكم حازمٍ نال بالكتمان ما ضيعه غيره بالإفشاء، أنشد أبو مسلم الخراساني:

أدركتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عَجَزَتْ ... عنه ملوكُ بني مروانَ إذ حشدوا

(١) رواه ابن حبان (٥٩٨٢) وغيره، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن» (١٣/ ٣٢٠).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٢٥٨٣)، (٢٧٣١).

(٣) انظر: «فتح الباري» ط. دار طيبة - الرياض (٦/ ٦٣٨)، وقد قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائد الحديث: «ويستفاد منه أنه لا يحل أخذ أموال الكفار في حال الأمن غدرًا لأن الرفقة يصطحبون على الأمانة، والأمانة تؤدى إلى أهلها مسلمًا كان أو كافرًا، وأن أموال الكفار إنما تحل بالمحاربة والمغالبة».

(٤) رواه البخاري (٣٠٢٩)، ومسلم (١٧٣٩).

مَقْتُ العربِ للغدرِ

كانت العرب إذا غدر الرجل بجاره، أوقدوا له نارًا بمِنًى، أيام الحج على الأخشب (وهو الجبل المطل على منى)، ثم صاحوا: «هذه غدرة فلان».

قالت امرأة من هاشم:

فإن نهلك فلم نعرف عقوقًا ... ولم توقد لنا بالغدر نارُ[(١)]

وقال الغطفاني:

أَسُمَيَّ ويحكِ هل سمعتِ بغدرةٍ ... رُفِع اللواء لنا بها في مجمعِ[(٢)]

وقال غيلان بن سلمة الثقفي:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَا ثَوْبَ غَادِرٍ ... لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وقال حاتم الطائي:

فأقسمت لا أمشي إلى سِّر جارةٍ ... يد الدهر ما دام الحمام يُغَرِّدُ

ولا أشتري مالًا بغدرٍ علمتُه ... ألا كل مال خالط الغدرَ أنكدُ[(٣)]

وقال الشاعر:

أَخْلِقْ بِمَنْ رضِيَ الخِيَانَةَ شِيمَةً ... أنْ لَا يُرَى إلَّا صَرِيعَ حَوَادِثِ

مَا زَالَتِ الأَرْزَاءُ تُلْحِقُ بُؤْسَهَا ... أَبَدًا بِغَادِرِ ذِمَّةٍ أَوْ نَاكِثِ

---

(١) «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري (١/ ١١١).

(٢) «محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني (١/ ٣٥٤).

(٣) «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ (ص٢٥١).

وقال أبو ظَفَر الحارثي:

غَدَرْتُمُوهُمْ بِأَيمَانٍ مُؤَكَّدَةٍ ... وَالوِرْدُ مِنْ بَعْدِهِ للغَادِرِ الصَّدَرُ[(١)]

وقال الخبزارزي:

وَلِمْ تتعاطى ما تَعَوَّدتَ ضدَّه ... إذا كنتَ خَوَّانًا فلِمْ تَدَّعِي الوفا

وقال الباذاني في أبي دلف، وكان نقش خاتمه الوفاء:

الغدرُ أكثرُ فعلِه ... وكتابُ خاتَمِهِ الوفا

ومن أمثلة العرب: «أغدر من غدير»:

قيل: سمي الغدير غديرًا؛ لأنه يغدر بصاحبه، أي: يجفُّ بعد قليل، وينضُب ماؤه.

وقالت العرب: «لا عذر في الغدر، والعذر يصلح في كل المواطن، ولا عذر لغادر ولا خائن»[(٢)].

وعن أبي الحسن المدائني قال: لما قَتَل عبدُ الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب له أمانًا وأشهد شهودًا. قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويُصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: «ما رأيك في الذي كان مني؟»، قال: «أمرٌ قد فات دَرْكُه[(٣)]»! قال: «لتقولنّ!» قال: «حَزْمٌ لو قتلتَه وحَييت».

(١) «نهاية الأرب» (٣/ ٣٦٨).
(٢) «نفسه» (٣/ ٣٦٤).
(٣) دَرْكُه: نيله وإدراكه.

قال: أولستُ بحيّ؟ فقال: «ليس بحي من أوقفَ نفسه موقفًا لا يُوثَق له بعهد ولا بعقْد». قال عبد الملك: «كلام لو سَبَقَ سماعُه فِعْلي لأمسكْت»[١].

وأخيرًا فإن من وسائل النفور من الغدر واجتنابه: أن تجعل الغادر الذميم مرآةً لنفسك، فهل تقبل أن تكون مثله، وتتصور بصورته، وتسير بسيرته؟!

رُوِيَ عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيئ الخلق، فظ غليظ لا يناسبه، ومع ذلك يتمسك به، فسُئِل عن ذلك، فقال: «أدرس عليه مكارم الأخلاق»؛ و«بالضد تتبين الأشياءُ».



(١) «العقد الفريد» (١/ ٧٣).

الغدر عبر التاريخ



يقر المختصون بدراسة التاريخ أن المسلمين أوفى الناس بعهودهم، وأبرؤهم من الغدر، وما ذاك إلا لأن الإسلام لا يفصل السياسة عن الأخلاق؛ ولأن العقيدة الإسلامية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأخلاق في التشريع والمعاملة، حتى مع الكفار، فلا غدر ولا خيانة ولا كذب ولا نفاق.

وعند المسلمين مقرر أن الوسائل لها حكم الغايات، والغايات الشريفة لا يُتوَصَّل إليها إلا بوسائل شريفة كذلك، وهذا بخلاف السياسة «المكياڤيلية» التي تعتنق مبدأ «الغاية تُسَوِّغ الوسيلة».

لقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في الوفاء بالعهود والمواثيق، مهما كلفهم احترامُها من مشقة، على حين ذخر التاريخ بنماذج مشينة من غدر أعدائهم قال تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة:٨].

روى الإمام أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده: «أن الرومَ صالحتْ (معاويةَ) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على أن يُؤدِّيَ إليهم مالًا، وارتهن (معاويةُ) منهم رهنًا، فجعلهم ببعلبك. ثم إن الروم غدرت، فأبى (معاويةُ) والمسلمون أن يستحِلُّوا قتلَ مَن في أيديهم

من رهنهم، وخلَّوْا سبيلهم، واستفتحوا بذلك عليهم[١]، وقالوا: وفاءٌ بغدر -خيرٌ من غدرٍ بغدر!»[٢].

مَلَكْنا فكان العَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً ... فلما ملكتُم سالَ بالدمِ أَبْطَحُ
وحَلَّلْتُمُ قتلَ الأُسارى وطالما ... غدونا عن الأسرى نَعِفُّ ونصفَح
فحسْبكمُ هذا التفاوتُ بيننا ... وكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

وفيما يلي نذكر مواقف غادرة حدثت خلال مراحل التاريخ الإسلامي وكان لها عواقب كبيرة أثَّرت في مجرى التاريخ:

فمن ذلك:

١- غدر قبائل رِعْل وذَكْوان وعُصَيَّةَ وبني لَحْيَانَ الذين استمدوا رسولَ الله ﷺ على عدوٍّ فأمدهم بسبعين من الأنصار كانوا يُسَمَّون القراء، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم، فقنت رسول الله ﷺ شهرًا يدعو في الصبح عليهم[٣].

٢- وغدر بني لِحْيان بعاصم بن ثابت الأنصاري ومَن معه رضي الله عنهم حين لجؤوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: «انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا»، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا، ونزل إليهم ثلاثةُ نفر على العهد والميثاق منهم خُبيب، فلما استمكنوا منهم ربطوهم

---

(١) أي: طلبوا من الله أن يفتح عليهم بأن ينصرهم على عدوهم بهذا العمل الصالح، وهو الوفاء، وعدم قتل الرهن.
(٢) «الأموال» (ص٧٦)، و«فتوح البلدان» للبلاذري (ص١٦٤).
(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٤٠٩٠)، و«صحيح مسلم» (٦٧٧).

بأوتار قِسِـيِّهم، فقال أحد الثلاثة: «هذا أول الغـدر»، ثم باعوا خبيبًا وزيد بن الدثنة بعد وقعة بدر، فلبث خُبيب عند بني الحارث بن عامر أسـيرًا حتى قتله عقبة بن الحارث(١).

٣- وبعدمـا أُبرِمَتْ وثيقة بين الرسـول ﷺ واليهود بعد الهجرة، وتقوت دولة الإسلام وتجذَّرت، بدأ اليهود يتحيَّنون الفرص للغدر بالمسلمين، فكان أوَّل مَن غدر منهم بنو قينقاع عندما اعتدوا على حجاب امرأة مسلمة في سوقهم وكشفوا عن عورتها، وعندها حاصرهم رسول الله ﷺ بجيش من المسـلمين حتى أجلاهم عن المدينة، وأبعدهم إلى بلاد الشام جزاء غدرهم وخيانتهم للعهد(٢).

٤- ثم تلاهم في الغدر بنو النضير، عندما دبروا مؤامرة لاغتيال رسول الله ﷺ وهـو جالس في دُورِهـم، يكلمهم ويتحدث إليهـم، فدبَّروا خطة لإلقاء صخرة عليه من أعلى السطح، فكشف الله له أمرهم، فحاصرهم بجيش من المسلمين، حتى تم إجلاؤهم إلى بلاد الشام كذلك(٣).

٥- وأخيرًا كان الغدر الأكبر من بني قريظة يوم الأحزاب، حيث تجمع على المسلمين طوائف الشرك من القبائل العربية، فلما رأى اليهود الضيق والحرج قد استبدَّ بالمسلمين اهتبلوها فرصة، وأعلنوا نقض العهد والالتحام

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٣٩٨٩).
(٢) «الرحيق المختوم» (ص٢١٦).
(٣) «الرحيق المختوم» (ص٢٦٨).

مع المشركين، وكشف الله مكرهم، ثم بعد أن انهزم الأحزاب تفرغ لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأدَّب بهم مَن خلفهم، وكانت نهايتهم أن قُتِل مقاتلتُهم وسُبِيتْ ذراريهم وأُخِذَتْ أموالُهم[١].

٦- ومن ذلك غدر المشركين ونقضهم صلحَ الحديبية حين غدروا بأحلاف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخزاعيين، مما أدى إلى تجهيز جيش المسلمين وفتح مكة المكرمة.

ومن وقائع الغدر التي نتج عنها عاقبة مريرة اجتاح بعدها التتار ديار الإسلام في كارثة لم يسبق لها مثيل في التاريخ:

ما قصَّه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد قَتَلَ چنكيز خان من الخلائق ما لا يَعْلَمُ عددَهم إلا الذي خلقهم، ولكن كان البُداءة من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل چنكيز خان تُجارًا من جهته معهم بضائعُ كثيرةٌ من بلاده، فانتهوا إلى إيرانَ، فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وأخذ جميعَ ما كان معهم، فأرسل چنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه: هل وقع هذا الأمر عن رضًى منه، أو أنه لا يعلم به، فأنكره؟ وقال فيما أرسل إليه: (من المعهود من الملوك أن التجار لا يُقتلون؛ لأنهم عِمارةُ الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التُّجَّار كانوا على دينك، فقتلهم نائبك، فإن كان أمرًا أمرتَ به، طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تُنْكِرُهُ، وتقتصُّ من نائبك).

---

(١) «نفسه» (ص٢٨٢، ٢٨٣).

فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول چنكيز خان، لم يكن له جوابٌ سوى أنه أمر بضرب عُنُقِهِ، فأساء التدبيرَ، وقد كان خَرَّفَ وكَبُرَتْ سِنُّه، وقد ورد في الحديث: «**اتْرُكُوا الترْكَ مَا تَرَكُوكُمْ**...»[(١)]، فلما بلغ ذلك چنكيز خان، تجهز لقتاله، وأَخْذِ بِلَادِهِ، فكان بِقَدَرِ الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يُسْمَعْ بأغرَبَ منها، ولا أبشعَ»[(٢)].

ومن وقائع الغدر التاريخية:

ما حكاه الحافظ ابن كثير: أن الإفرنج غدروا بمدينة الإسكندرية، وأشاعوا فيها الرعب، وارتكبوا الفظائع، وذلك أنهم وصلوا إليها من البحر يوم الأربعاء ٢٢ محرم سنة ٧٦٧هـ، «فلم يجدوا بها نائبًا ولا جيشًا، ولا حافظًا للبحر ولا ناصرًا، فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار، بعدما حرقوا أبوابًا كثيرة منها، وعاثوا في أهلها فسادًا؛ يقتلون الرجال، ويأخذون الأموال،

---

(١) شطر حديث رواه أبو داود (٤٣٠٢)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٧٧٢).
ولهذا الحديث أمسك المسلمون عن استفزاز واستثارة الترك، فسَلِمُوا من غائلتهم، إلى أن خالفوا التوجيه النبوي، وفي أكثر من موضع من كتابه «البداية والنهاية» ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقائع القتال بين المسلمين والتتار، وبيَّن أن المسلمين لم يكونوا يتعقبون التتار إذا فروا هاربين أمامهم، ولو كانت الرماحُ تنالهم؛ ومثال ذلك ما ذكره في حوادث سنة ثلاث وأربعين وستمائة: (وفي هذه السنة كانت وقعةٌ عظيمةٌ بين جَيْش الخليفة وبين التتار -لعنهم الله-؛ فكسرهم المسلمون كسرةً عظيمةً، وفرَّقُوا شملهم، وهُزِمُوا من بين أيديهم، فلم يلحقوهم؛ ولم يتبعوهم؛ خوفًا من غائلة مكرهم، وعملًا بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتْرُكُوا التَرْكَ مَا تَرَكُوكُم**....») (١٣/ ١٦٨).
(٢) «البداية والنهاية» (١٣/ ١١٩).

ويأسرون النساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير المتعال، وأقاموا يوم الجمعة والسبت والأحد والإثنين والثلاثاء. فلما كان صبيحة يوم الأربعاء قدم الشاليش المصري[١]، فأقلعت الفرنج -لعنهم الله- عنها، وقد أسروا خلقًا كثيرًا يقاومون الأربعة الآلاف، وأخذوا من الأموال ذهبًا وحريرًا وبُهارًا وغير ذلك، ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَف. وقدم السلطان والأمير الكبير (يَلْبُغا) ظُهر يومئذٍ وقد تفارط الحال، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر، فسُمع للأسارى -من العويل والبكاء والشكوى والجَأْرِ إلى الله، والاستغاثة به وبالمسلمين- ما قطَّع الأكباد، وذرفتْ له العيون، وأصَمَّ الأسماع. فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شقَّ عليهم ذلك جدًّا، وذكر ذلك الخطيبُ يوم الجمعة على المنبر، فتباكى الناسُ كثيرًا. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية، إلى نائب السلطنة، بِمَسْك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم، لعمارة ما خُرِّب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الإفرنج، فأهانوا النصارى، وطُلِبوا من بيوتهم بعُنف، وخافوا أن يُقتَلوا، ولم يفهموا ما يُراد بهم، فهربوا كل مهرب. **ولم تكن هذه الحركة شرعيةً ولا يجوز اعتمادُها شرعًا**، وقد طُلِبْتُ يومَ السبت السادسَ عشرَ من صفر (أي سنة ٧٦٧) إلى الميدان الأخضر، للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ، .. فرأيت منه أُنسًا كبيرًا، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة كريم المجالسة، **فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتمادُه في النصارى** [يعني المرسوم بالمصادرة]، فقال: إن بعض فقهاء مصر

---

(١) الجاليش: مقدمة الجيش، والراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر.

أفتى للأمير الكبير بذلك! فقلت له: «هذا **مما لا يسوغُ شرعًا، ولا يجوز لأحدٍ أن يُفْتِيَ بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة، يؤدُّون إلينا الجزيةَ، .. وأحكامُ الملة قائمة، لا يجوز أن يُؤخَذَ منهم الدرهمُ الواحدُ فوقَ ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير**»[1].

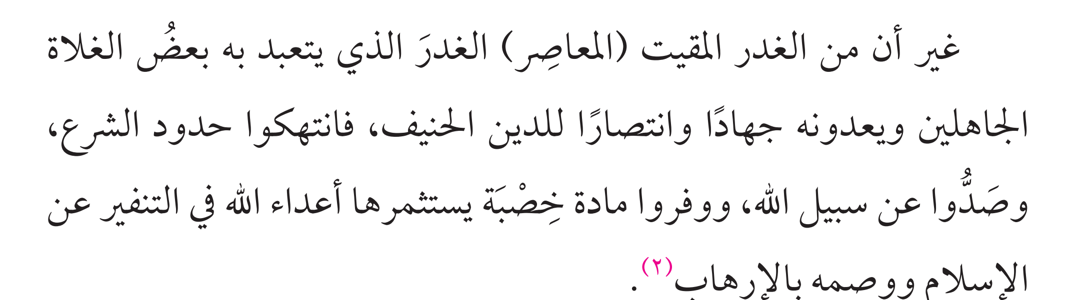
فتأمل إنكار الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ على نائب السلطنة إصدارَ قرار بهذه المصادرة «الظالمة» حسب تعبير ابن كثير، وكيف أنه رفض أن يُقابَل غدرُ الإفرنج النصارى بالانتقام من رعاياه النصارى الذين لم يرتكبوا جُرمًا، وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨].

- وتتبعُ غدر الأعداء بالمسلمين يطول جدًّا تلطخت به صفحات الصليبيين في «الحروب الصليبية»، ومذابح الأندلس، واضطهاد المورسكيين فيها، وغدر الرافضة بالخلافة العباسية، والصفويين بالخلافة العثمانية، ثم في العراق وسورية واليمن مؤخرًا.

لكننا نختم سلسلة نماذج الغدر التاريخية بغدر بريطانيا بالشريف حسين الذي نفخت له صورة القومية العربية، ومَنَّتْه بأن يكون خليفة قرشيًّا على المسلمين، واستعملته لتمزيق تركيا، وأمدته بالمال والسلاح، وانتصرت بريطانيا وحليفاتها بفضل مساعدته، ثم قلبت له ظهر المجن، وانقلب الوفاء غدرًا، فنبذته بعد أن استوفت غرضها منه، وأصدرت وعد بلفور بمنح اليهود

(١) «البداية والنهاية» (١٦/ ٤٦٠، ٤٦١)، طبعة وزارة الأوقاف - قطر.

فلسطين سنة (١٩١٧م) بل فرضته بالقوة، واقتسمت مع فرنسا تركة (الرجل المريض) في اتفاقية (سايكس - بيكو)، وفي النهاية نفته إلى جزيرة قبرص سنة (١٩٢٥م)، ثم تُوفي ودُفن في القدس سنة (١٩٣١م)(١).



غير أن من الغدر المقيت (المعاصِر) الغدرَ الذي يتعبد به بعضُ الغلاة الجاهلين ويعدونه جهادًا وانتصارًا للدين الحنيف، فانتهكوا حدود الشرع، وصَدُّوا عن سبيل الله، ووفروا مادة خِصْبَة يستثمرها أعداء الله في التنفير عن الإسلام ووصمه بالإرهاب(٢).

(١) انظر: «الأعلام» للزركلي (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، «فكرة القومية العربية» لصالح العبود (ص١١٤-١٤١). ويتوفر كثير من الأفلام الوثائقية في موقع (youtube.com) تعرض دور المدعو «لورانس العرب» فيما يُسمى «الثورة العربية».

(٢) وقد استثمرت الدوائر المعادية للإسلام وبخاصة في الغرب أمثال هذه الشنائع -التي يرتكبها «مفاتيح الشر»- ليصدوا عن سبيل الله، ويُظهروها عِوجًا، حتى صار وصف «الإرهابي» إذا أُطلِقَ ينصرفُ إلى المسلمين، ويصورهم بأنهم يعشقون إراقة الدماء، ويتقربون بها إلى الله سبحانه، يقول الدكتور عثمان القميحي حفظه الله:
«لقد حدثني أخ أمريكي، ويعمل أستاذًا جامعيًّا هناك: أنه عندما أكرمه الله بالإسلام، قالت له أمه -وهي على قدر كبير من الثقافة-: «هل ستعيش معي أم تتركني؟»، فقال لها: «أعيش معكِ فأنتِ أمي»، فقالت له: «إذن ستقتلني طالما أنك أسلمت»، فقال لها: «معاذ الله، لا يأمرني الإسلام بذلك»، وصبر عليها حتى أقنعها أن الإسلام يرفض الإرهاب، وما تنقله وسائل الإعلام عن فئة لا يرضى المسلمون بما يفعلونه.
فهذا هو شعور فئة مثقفة ثقافة عالية تجاه الإسلام، وما هذا إلا ثمرة لأفعال الغلاة» اهـ.
من «مصفوفة المنطلقات الفكرية للغلاة ودعاة العنف» (١/ ٤٣٨).

فمن صور غدرهم:

١- الاعتداء على المستأمنين الذين دخلوا بلاد المسلمين بأمان؛ كالدبلوماسيين وأعضاء البعثات الدبلوماسية والعاملين في السفارات الأجنبية والسائحين[١]، حتى لو كانوا من بلاد حرب ما داموا دخلوا بلادنا بأمان؛ لأن (المسلمين عند شروطهم).

والأمان يثبت بالنص أو بالعرف، ومن الأمان العرفي في زماننا: الأمان الذي يتمتع به الأطباء والمسعفون في مواضع القتال، وكذا المراسلون الصحافيون.

عن نعيم بن مسعود الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ حين قرأ كتابَ مُسيلمة الكذَّاب، قال للرسولَيْنِ: «**فما تقولان أنتُما؟**»، قالا: نقولُ كما قال، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ، لَضَرَبْتُ أَعْناقَكُما**»[٢].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لابن النَّوَّاحة -رسولِ مسيلمةَ الكذابِ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**لولا أنك رسول لقتلتُكَ**» الحديث[٣].

---

(١) إن هؤلاء يدخلون بلاد المسلمين عن طريق تأشيرة رسمية، فكيف تُهدر دماؤهم ومعهم ما يثبت أن الدولة سمحت لهم بالدخول، ولو لم يعتبر أهل الغلو هذه التأشيرة أمانًا، فلا أقل من أن يعدوها «شبهة أمان» تعصم دماءهم كما سيأتي إن شاء الله (ص٢٩٩، ٣٠١-٣٠٤).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٥٩٨٩)، وغيره، وقال محققو «المسند»: «حديث صحيح بطرقه وشاهده» (٢٥/٣٦٦).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٦٤٢)، وغيره، وقال محققو «المسند»: «حديث صحيح» (٦/ ١٥١).

وجاء إلى المدينة زعيم غطفان عامرُ بنُ الطفيل مفاوضًا النبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأغلظ في تهديده للنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وحَلُمَ عليه النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأنه سفير قومه، والسفير لا يُقْتَلُ، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن عامر بن الطفيل زعيم المشركين خيَّرَ النبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بين ثلاث خصال، فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المَدَرِ، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف[(١)]. ومع ذلك تركه النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولم يسئ إليه رعايةً لحصانة السفراء والرسل في الإسلام[(٢)].

فإن صدر من السفير ما يسيئ إلى الدولة الإسلامية وشعبها وأخلاقها ففي هذه الحالة يحق للدولة المسلمة إعلان أنه شخص غير مرغوب فيه وطرده خارج أراضيها[(٣)].

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٠٩١)، وقد دعا عليه النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال: «**اللهم اكفني عامرًا**»، فأصيب بالطاعون، ومات على ظهر فرسه.

(٢) وعلى قدر ما حظيت به حصانات السفير أو المبعوث الأجنبي في دار الإسلام من تقديس واحترام على يد الرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقد كان الإخلال بهذه الحصانات وتهديد المبعوث في شخصه أو حريته سببًا كافيًا لاعتبار ذلك لونًا من ألوان العدوان الذي يُسَوِّغُ للدولة الإسلامية النهوض لدرئه ومواجهته.
فعندما قتل الغساسنة سفير رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إليهم (ولم يُقتل للنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سفير غيره) كان وقْع هذا التطاول شديدًا على المسلمين، فجهز النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وكانت غزوة مؤتة -وحقيقتها سرية إذ لم يشترك فيها النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- للرد على قتل سفير النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وانظر: «الأخلاق السياسية» للأستاذ محمد زكريا النداف (ص٤٨٦).

(٣) «الأخلاق السياسية» (ص٤٨٥).

ولم يقف الإسلام عند حد الحفاظ على حياة الرسل والسفراء، بل حثَّ على إكرامهم، فقد رُوي في حديث التنوخي الذي بعثه هرقل رسولًا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**إنَّ لك حقًّا، وإنك رسولٌ، فلو وجدتُ عندنا جائزة جوَّزناكَ بها، إنا سَفْرٌ مُرْمِلُون**»[(١)] قال: فناداه رجلٌ من طائفة الناس، قال: أنا أُجوِّزُه، فَفَتَحَ رَحْلَه فإذا هو يأتي بحُلَّة صَفُّوريَّة[(٢)]، فوضعها في حَجْري، قلتُ: من صاحبُ الجائزة؟ قيل لي: عثمان.

ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيكم يُنْزِلُ هذا الرجلَ؟**» فقال فتًى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاريُّ، وقمتُ معه»[(٣)] الحديث.

٢- ومن دخل من المسلمين ديار الكفار بأمانٍ من أهلها، فهم آمنون منه على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، فلا يجوز له نقضُ عقد الأمان بالعدوان عليهم، كما يأمن مَن دخل منهم دار الإسلام بأمان.

والأمان في عصرنا يُعطَى عن طريق الحصول على (تأشيرة دخول) إلى بلادهم أو بلادنا، فلا يجوز خرق هذا الأمان بقتل أو تفجير أو خيانة أو عدوان عليهم في بلادنا ولا في بلادهم.

---

(١) **مُرْمِلون:** أرمَلَ: إذا نَفِدَ زادُه، كأنه لَصِقَ بالرمل.

(٢) **صَفُّورِيَّة:** بلد بالأردن.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٦٥٥)، وغيره، وقال محققو «المسند»: «حديث غريب، وإسناده ضعيف» (٢٤/ ٤١٩).

يقول الدكتور عبد الله بن محمد آل مضواح حفظه الله:

«لقد جَدَّتْ في عصرنا الحاضر ظروف أحوجت المسلمين حاجة ماسة إلى كثير من غير المسلمين، لشغل بعض الوظائف التي لا يقدر عليها المسلمون، وكذلك وفرة الأيدي العاملة في غير المسلمين وقلتها عند المسلمين، أو التخصصية العلمية، أو المهارات الفنية، أو غير ذلك من أمور دعت إلى لجوء المسلمين إلى استقدام غير المسلمين إلى ديارهم، فتغيرت بذلك بعض الأحكام بتغير الزمان والأحداث، ولا شك أن لتغير الزمان وأهله في عوائدهم سلطانًا على الأحكام الشرعية المبنية على رعاية المصالح.

... ومع تغير الزمان أصبح التأمين -بصفة عامة ولغير المسلمين بصفة أخص- اختصاصًا تنظمه وتمارسه جهات معينة في الدولة تضطلع بمهام الإشراف وضبط وتنظيم دخول الآخرين لبلاد المسلمين للأغراض المشروعة المختلفة، ومن ثم؛ جرى العمل في هذا الزمن خلافًا لعرف العهد الأول، حيث أصبح إعطاء الأمان أمرًا لا يجوز أن يمارسه كل شخص، بل هو من اختصاصات الإمام، وتحتكره السلطات المعنية التي تمثله[(١)].

والتأشيرة في العصر الحاضر تعد عقد أمان، وتعريفها حسب «الموسوعة البريطانية»: مصادقة تُوضَع على جواز السفر من السلطات المختصة، تدل على أنه تم فحصه، وأن باستطاعة حامل التأشيرة أن يمضي في طريقه، وله بناءً عليها أن يبقى في البلد التي يمضي إليها مدة زمنية محددة.

(١) «المصالحات والعهود في السياسة الشرعية» لمحيي الدين إبراهيم عيسى (ص١٦٤).

وقد أوضح العلامة عبد المحسن العباد هذا الأمر فقال: «تواطأ العالم في هذا الزمان على أن كل بلد يدخله مَن ليس من أهله بإذن من دولة ذلك البلد، أُطلِقَ على ذلك الإذن اسم (تأشيرة دخول)، ومن دخل أيّ بلد بهذا الإذن يكون له الأمان على نفسه وماله، ولا يحصل له خلاف ذلك إلا باعتداء عليه بغير حق»[1].

وقد قرر أهل العلم أنه لا يجوز إيذاء من دخل ديار المسلمين بشبهة أمان، وهذا أقل أحوال التأشيرة، حيث يعتقد هذا الداخل لديار المسلمين أن دمه معصوم والعبرة بما فهمه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (جاءت السنة بأن كل ما فهم الكافر أنه أمان كان أمانًا؛ لئلا يكون مخدوعًا وإن لم يقصد خَدْعَهُ...)[2].

وقال الإمام أحمد: (إذا أشير إليه -أي الكافر- بشيء غير الأمان، فظنه أمانًا؛ فهو أمان، وكلُّ شيء يرى العِلْجُ أنه أمانٌ فهو أمانٌ)[3].

وقال ابن تيمية معلقًا على قول الإمام أحمد: (فهذا يقتضي انعقاده بما يعتقده العِلْجُ، وإن لم يقصده المسلم ولا صدر منه ما يدل عليه)[4].

وقد اكتفى أهل العلم بمجرد الظن؛ لأنه شبهة. وفي ذلك يقول ابن تيمية: (ومعلوم أن شبهة الأمان كحقيقته في حقن الدم)[5].

---

(١) «كتب ورسائل الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر» (٦/ ٢٥٥، ٢٥٦).
(٢) «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٢١) ط. دار الكتب العلمية.
(٣) «الإنصاف» للمرداوي (١٠/ ٣٥٠)، و«الفروع» لابن مفلح (١٠/ ٣٠٥).
(٤) «الإنصاف» (١٠/ ٣٥١).
(٥) «الصارم المسلول» (٢/ ٥٢٢).

وبما أن التأشيرة في العصر الحاضر هي رخصة لا يدخل الأجنبي الدول الإسلامية أو غيرها إلا بحصوله عليها، فهي تعني عقدًا يقتضي العهد والأمان لحاملها من حيث حمايته وحماية حقوقه حتى يبلغ مأمنه، كما تعني رعاية هذا الأجنبي لتعليمات وتنظيمات البلاد، ورعايته لأعرافها وتقاليدها وحقوقها. فالتأشيرة عقد بين حاملها ومُصْدِرِها، تعني الحقوق والواجبات»[(١)].

٣- ومن صور الغدر في عصرنا العدوان على أهل الذمة المعاهَدين في بلادنا؛ لأنهم -بعقد الذمة- معصومو الدم والعرض والمال، وكذا العدوان على أماكن عبادتهم.

عن صفوان بن سليم: عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن آبائهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» اهـ[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لم يَرِحْ رائحةَ الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**»[(٣)].

وقد أجمع العلماء قاطبة على تحريم الغدر، وإذا كان هذا الوعيد الشديد في ظُلمِ أو قَتل آحاد المعاهدين والذميين والمستأمَنين، فكيف بنسف بيوتهم

(١) انظر: «عقد الأمان في الفقه الإسلامي» للدكتور عبد الله بن محمد آل مضواح (ص١٢٩-١٣٢).
(٢) رواه أبو داود (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٢٦٢٦).
(٣) رواه البخاري (٢٩٩٥)، (٣١٦٦).

وعماراتهم، وهدمها على رؤوسهم، وإحراق سياراتهم وتدمير ممتلكاتهم بل وقتل من في بيوتهم من النساء والأطفال؟!

٤- ومن الغدر أن تعتدي على كافر أمَّنه وأجاره واحد من المسلمين:

- عن أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر[(١)] مسلمًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»[(٢)].

- وعن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت: يا رسول الله، زعم ابن أمي عليّ أنه قَاتِلٌ رجلًا قد أجرتُه -فلان بن هبيرة- فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمّ هانئ**» اهـ[(٣)].

وفي حالة الحرب إذا صدر من مسلم ما يدل على أنه يُؤَمِّنُ الكافر المحاربَ فمن الغدر التعرُّضُ له؛ لأن دم الكافر يُعْصَمُ بالأمان الصريح الصحيح، وبالأمان الفاسد الذي هو شبهة أمان، وبالهدنة الصحيحة وبالهدنة الفاسدة تغليبًا لحقن الدماء، ولئلا يترتب عليه الصد عن سبيل الله، لأن هناك قاعدة شرعية تقول: «إن الحدود تُدْرَأُ بالشبهات»[(٤)].

---

(١) **أخفرت الرجل:** إذا نقضت عهده وذمامه، والهمزة فيه للإزالة؛ لأن الخُفارة الذِّمام.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨١).

(٣) تقدم تخريجه (ص٧٣).

(٤) انظر: «أثر الشبهات في درء الحدود» للدكتور سعيد بن مسفر الوادعي (ص٥٧-٦٢).

والقاعدة في هذا: أن كل ما ظنه الكافر أمانًا عُصِمَ به دمُه ولم يُستبَحْ لأجل الشبهة.

- وفي موطأ مالك: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إلى عامل جيش، كان بعثه: «إنه بلغني أن رجالًا منكم يطلبون العِلْجَ، حتى إذا أسند[١] في الجبل وامتنع، قال رجل: «مَطْرَسْ»[٢] (يقول: لا تخف)، فإذا أدركه قتله، وإني -والذي نفسي بيده- لا أعلم مكان واحدٍ فعل ذلك، إلا ضربتُ عنقَه!» اهـ[٣].

- وروى ابن أبي شيبة: «عن مجاهدٍ قال: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيما رجل من المسلمين أشار إلى رجل من العدو: لئن نزلْتَ لأقتلنك، فنزل وهو يرى أنه أمان[٤] فقد أمَّنه»[٥].

وروى سعيد في سننه عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لو أن أحدكم أشار بإصبعه إلى السماء إلى مشرك فنزل -أي: ظنًّا أنه أراد الأمان- فقتله لقتلتُه»[٦].

- وعن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: كتبَ عمر إلى أمراء الأجناد: أيما رجل من المسلمين أشار إلى رجل من العدو: لئن نزلْتَ لأقتلنك، فنزل وهو يرى أنه أمان فقد أمَّنه» اهـ[٧].

---

(١) أي: ارتقى وطلع الجبل.
(٢) **مترس:** خشبة توضع خلف الباب، وهي تعني بالفارسية: «لا تخف».
(٣) «الموطأ» رقم (١٢٩٤) تحقيق د. بشار عواد، **والعِلْج:** الشديد الغليظ من كفار العجم.
(٤) فالعبرة بما يفهمه الكافر، وهنا فهم من عبارة المسلم «لأقتلنك» أنها أمان.
(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٣٤٠٤).
(٦) «سنن سعيد بن منصور» رقم (٢٥٩٧).
(٧) «مصنف ابن أبي شيبة» رقم (٣٣٤٠٥).

- وروى ابن أبي شيبة أيضًا: «قال أبو فَرْقَد: كنا مع أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم فتحنا سوق الأهواز، فسعى رجل من المشركين وسعى رجلان من المسلمين خلفه، فبينما هو يسعى ويسعيان؛ إذ قال له أحدهما: مترس، فأخذاه فجاءا به أبا موسى... فقال أحدهما: «إن هذا قد جعل له الأمان»، فقال أبو موسى: وكيف جعل له الأمان؟ قال: إنه كان يسعى ذاهبًا في الأرض فقلتُ له: مترس، فقام، فقال أبو موسى: وما مترس؟ قال: لا تخف، قال: هذا أمان، خلِّيا سبيله، فخَلَّيَا سبيل الرجل» اهـ[1].

فمن ثَمَّ نَصَّ فقهاء المذاهب على ثبوت الأمان للكافر ولو بشبهة، فقال السرخسي الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمر الأمان مبني على التوسع، وأدنى الشبه يكفي لإثباته»[2].

وقال ابن جزي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو ظن الكافر أن المسلم أراد الأمان والمسلم لم يرده فلا يقتل»[3].

وقال محمد بن أحمد الرملي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«يصح أمان حربي محصور من كل مسلم مكلف مختار ولو امرأة ورقيقًا لكافر بكل لفظ يفيد الغرض كأجرتك أو أمَّنتك، وتكفي إشارة مفهمة»[4].

---

(١) «نفسه» رقم (٣٣٤٠١)، (٣٣٨٢٣).

(٢) «المبسوط» (٣٠/ ٢٩١).

(٣) «القوانين الفقهية» (١/ ١٠٣).

(٤) «غاية البيان شرح زبد ابن رسلان» (ص٣١٠).

ونقل الحنابلة عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إذا أشير إليه بشيء غير الأمان فظنه أمانًا فهو أمان»[١].

فتأمَّل كيف تتشوف الشريعة الحنيفية لحقن الدماء وحفظ النفوس، بخلاف ما يتوهمه أهل الغلو من أن قتل المستوطِنين والمعاهَدين والمستأمَنين جهاد ونصرة للدين، وما هو إلا من الغدر والخيانة والفساد في الأرض لأنه قتل في حالة أمن، ونقضٌ للعهد.

٥- ومن صور الغدر البغيضة في الحروب قصد قتل الأشخاص الذين ليسوا من أهل المقاتلة والممانعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة؛ كالنساء، والصبيان، والراهب، والشيخ الكبير، والأعمى، والزَّمِن، ونحوهم فلا يُقتل عند جمهور العلماء إلا أن يُقاتِلَ بقوله أو فعله»[٢].

«فإن قاتل النساء والولدان قوتلوا مُقْبِلين، ولا يُقتلوا مُدْبِرين»[٣].

ومع ذلك أبى بعض الصحابة قتل المرأة التي تقاتل.

فقد سئل أبو دجانة عن عدم قتله هند بنت عتبة في بدر، فقال: «كرهتُ أن أضرب بسيف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأة لا ناصر لها»[٤].

---

(١) تقدم (ص٢٩٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٥٤).

(٣) «الأحكام السلطانية» للماوردي (ص٤٥).

(٤) انظر: «مجمع الزوائد» رقم (٩٧٠٢)، وقال: «رواه البزار، ورواته ثقات».

وهذا خبيب بن عدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي غدر به بنو لحيان فأسروه، وباعوه إلى بني الحارث بن عامر، فمكث عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا قتله، فاستعار موسى من أحد بنات الحارث لِيَسْتَحِدَّ بها، فأعارته، فغفلت عن صبي لها، فدرج إليه حتى أتاه، فأخذه فوضعه على فخذه، فلما رأته فزعت فزعًا عرفه، والموسى في يده، فقال: «أتخشين أن أقتله؟ ما كنتُ لأفعلَ إن شاء الله»[(١)].

إن الأصل العام في الحروب هو تحريم قتل النساء والأطفال ومن ليس من أهل القتال لأن هذا من الاعتداء المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠]، فمن لا يقاتلنا من النساء والأطفال ونحوهم نكف عنه وإلا كنا من المعتدين.

وقد كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا أمَّر رجلًا على سريةٍ، أوصاه في خاصّة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، فقال: «**اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تغُلُّوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليدًا، ...**»[(٢)]، وفي بعض الروايات: «**ولا تقتلوا وليدًا طفلًا، ولا امرأة، ولا شيخًا كبيرًا**»[(٣)].

(١) رواه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٠٨٦).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨٢).
(٣) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (١٧٩٣٤).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن امرأة وُجدت في بعض مغازي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقتولة، فأنكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتلَ النساءِ والصبيان[١].

كما شددت الشريعة على قتل الذرية والعسيف، وهو الخادم أو الأجير أو الفلاح، فعن حنظلة الكاتب، قال: غزونا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمررنا على امرأة مقتولة قد اجتمع عليها الناسُ، فأفرجوا له، فقال: «**ما كانت هذه تُقاتِلُ فيمن يُقاتِلُ**»، ثم قال لرجل: «**انطلق إلى خالد بن الوليد، فقل له: إن رسولَ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يأمرُك، يقول: لا تقتلْ ذُرِّيَّةً ولا عَسِيفًا**»[٢].

وعن الأسود بن سريع، قال: أتيتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغزوتُ معه، فأصبتُ ظهرَ أفضل الناس يومئذٍ، حتى قتلوا الولدان -وقال مرة: الذرية- فبلغ ذلك رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ما بالُ قوم جاوزهم القتلُ اليومَ حتى قتلوا الذرية؟!**»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، إنما هم أولادُ المشركين! فقال: «**ألا إن خيارَكم أبناءُ المشركين**»، ثم قال: «**ألا لا تقتلوا ذريةً، ألا لا تقتلوا ذريةً**، قال: **كل نَسَمَةٍ تولَد على الفطرة حتى يهبَّ عنها لسانُها، فأبواها يهودانها وينصرانها**»[٣].

(١) رواه البخاري رقما (٣٠١٤)، (٣٠١٥).

(٢) «صحيح ابن ماجه» رقم (٢٣١١)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٣٥)، والدارمي (٢/ ٢٢٣)، والحاكم (٢/ ١٢٣)، والبيهقي (٩/ ٧٧)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «الصحيحة» رقم (٤٠٢): «وهو كما قالا».

وعلى هذا مضى الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

- فمن وصايا أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأمراء الجند: «لا تقتُلوا امرأة، ولا صبيًّا، ولا كبيرًا هَرِمًا، ولا تقطعوا شجرًا مُثمرًا، ولا تُخرِّبُنَّ عامرًا، ولا تعقرنَّ شاة ولا بعيرًا إلا لمأكله، ولا تغرقُنَّ نخلًا ولا تحرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن».

- وعن ابن عمر قال: كتب عمر إلى الأجناد: «لا تقتلوا امرأة ولا صبيًّا».

وكان حكم النهي عن قتل هؤلاء هو ما أكد عليه فقهاء الأمة وأئمتهم في فتاويهم، فعن يزيد بن هُرْمُز، أن نجدَة كتب إلى ابن عباس يسأله عن قتل أطفال المشركين، فكتب إليه ابن عباس: «إنك كتبتَ إليَّ تسأل عن قتل أطفال المشركين، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقتلهم، وأنت فلا تقتلهم...»[(١)].

وقد يحتجُّ بعضُ الغلاة بمبدأ «المعاملة بالمثل» فإذا قتل الأعداءُ أطفالَ ونساء وشيوخَ المسلمين جاز لنا أن نردَّ عدوانهم بمثله، فنتعقب أطفالهم ونساءهم حيث كانوا.

والجواب:

- أن هذا لا يجوز؛ لأن أُسوتنا هي سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وليست أُسوتنا الكفار والمشركين الذين قال الله في حقهم: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ الآية [التوبة:٨].

(١) أخرجه مسلم (١٨١٢).

فإذا نقضنا العهد والذمة صرنا نحن وهم سواء.

- وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

فلا يُؤخذ هؤلاء الضعفاء بجريرة آبائهم.

- وعن أبي رِمْثَة، قال: انطلقتُ مع أبي نحوَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأبي: «**ابنُك هذا؟**»، قال: إي وربِّ الكعبة، قال: «**حقًّا**» قال: أشهد به، قال: فتبسَّم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضاحكًا من ثَبْتِ شَبَهِي في أبي، ومن حَلِفِ أبي عليَّ، ثم قال: «**أما أنه لا يَجني عليك، ولا تَجني عليه**»، وقرأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

وفي رواية أخرى عنه: «**أما أنَّك لا تَجْنِي عليه، ولا يَجْنِي عليك**»(١).

وعن عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حجة الوداع: «**ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه، ولا يجني والدٌ على ولده، ولا مولودٌ على والده**»(٢).

- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤخذُ الرجلُ بجريرة أبيه، ولا بجريرة أخيه**»(٣).

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٤٤٩٥). وقوله: «من ثبت شبهي» أي ثبوت قوة الشبه «في أبي» أي شبهي بأبي، «ومن حلف أبي عليَّ» أي: إن قوة هذا الشبه تُغني عن الحلف.

(٢) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٣٠٨٧).

(٣) «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٨٦)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح».

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مرفوعًا: «**لا يؤخذُ الرجلُ بجناية أبيه، ولا بجناية أخيه**»[١].

أما استدلال أهل الغلو بقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [البقرة:١٩٤]، **فجوابه:**

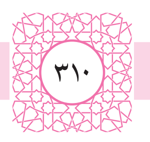
«أن الآية الكريمة عامة في الاعتداء على النفس والمال أو أي اعتداء على أي حق من الحقوق، والقصد منها إقامة العدل؛ حتى لا تسود حالة الهرج والمرج بين الناس، ويكون القصاص من صاحبه لا من غيره من طفل أو امرأة، ذنبهما أنهما من قوم المعتدي... فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

عن ابن سيرين أنه قال: «إن أخذ منك رجل شيئًا فخذ منه مثله»، ويُروى عن إبراهيم النخعي أيضًا. فهو أمر متعلق بالمتعدي نفسِه ولا يدخل معه غيرُه.

صدق الله، وكذب الشاعر:

وعن العتبي قال: دخل على الحجاج سليكُ بن سلكة، فقال: أصلح الله الأمير، أعِرْني سَمْعَك، واغضُضْ عني بَصَرَك، واكْفُفْ عني غَرْبَك[٢]؛ فإن سمعتَ خطأً أو زللًا فدونَك والعقوبة. فقال: قل، فقال: عصى عاصٍ من

(١) رواه النسائي، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» رقم (٤١٣٧).
(٢) الغرب هنا: الحِدَّة.



عُرْضِ العشيرة، فحُلِّق على اسمي[١]، وهُدِمَتْ دارِي، وحُرِمْتُ عطائي[٢]، قال: هيهات! أما سمعتَ قولَ الشاعر:

جانيك مَن يجني عليكَ وقد تُعدِي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُرْبِ[٣]
ولَرُبَّ مأخوذٍ بذَنبِ عشيره ونَجا المُقارِفُ صاحبُ الذَّنبِ[٤]

قال: أصلح الله الأمير، إني سمعتُ الله قال غيرَ هذا، قال: وما ذاك؟ قال: قال: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ [يوسف:٧٨، ٧٩]، فقال الحجاج: عليَّ بيزيد ابن أبي مسلم، فأُتِيَ به، فمثل بين يديه، فقال: افكُك لهذا عن اسمه، واصْكُكْ له بعطائه، وابْنِ له مَنزِلَه، ومُرْ مناديًا ينادي في الناس: «**صدق الله، وكذب الشاعر**»[٥].



(١) أي عمل عليه حلقة من المداد.
(٢) **العَطاء:** ما يُعطى من الهبة أو ما يُرتَّب له من مال.
(٣) **الجُرْب:** جمع أجرب، وهو الذي أصابه داء الجَرَبِ.
(٤) المُقارِف: الذي اقترف ذنبًا.
(٥) «العِقد الفريد» (٥/ ٢٧٦، ٢٧٧).

عادةُ الأخذِ بالثأرِ غدرٌ وإحياءٌ لسنة الجاهلية



يشبه فعلَ الغُلاةِ فعلُ الآخذين بسنة الجاهلية في الثأر من غير القاتل:

وهذا فيه من الغدر بالأبرياء ما فيه، وفيه مع ذلك إحياء لسنة الجاهلية الجهلاء، وتشبث بعصبيتها الحمقاء، وحميتها العمياء، ورعونتها الهوجاء.

فقد كان من شطط الجاهليين القصاصُ من غير القاتل، وربما لم يرضوا إلا بأكثر من القاتل أنفًا وحمية وإظهارًا للقوة، كما قال قائلهم:

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

وقد رُوي أن أحد أشرافهم قُتل، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول، وقالوا له: ماذا تريد؟ فقال: أريد إحدى ثلاث، قالوا: ما هي؟ قال: «إما أن تحيوا ولدي، وإما أن تملؤوا داري من نجوم السماء، وإما أن تدفعوا لي جِلَّة قومكم[1] حتى أقتلهم، ثم لا أرى أني أخذت عِوَضًا».

وقد خيَّلت لهم أوهامهم أن القتيل إذا لم يؤخذ بثأره يخرج من هامته طائر يسمونه «الهامة» على قبره، ويظل يصرخ: «اسقوني، اسقوني»، ولا يكف عن الصراخ حتى يؤخذ بثأره.

---

(١) جِلَّة: جمع جليل، جماعة ذات قدرٍ جليل، ومكانة رفيعة، سادة عِظام.

قال الزبرقان بن بدر:

يا عمرو إلا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتي   أضرِبكَ حتى تقولَ الهامةُ اسْقُوني[(١)]

وكانت النساء تحرِّض الرجال بكل وسيلة حتى تحرك حميتهم نحو الثأر، حُكي أن الشاعرة الجاهلية خويلة الرئامية قُتِلَ لها عددٌ من الرجال، فقطعت أصابعهم الصغار، وجعلت منها قِلادةً في عنقها لتثير حمية قومها كي يثأروا لقتلاها، وأنشدت:

هــذه خنــاصـر أســرتـي مـسـرودة   في الجيد مني مثلَ سِمْطِ الكاعبِ

وإن تعجب فعجبٌ ما يفعله أناس مسلمون، يؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ، القائل في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

ويؤمنون برسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «**أبغضُ الناس إلى الله ثلاثة: مُلْحِدٌ في الحرم، ومُبْتَغٍ في الإسلام سنةَ الجاهلية، ومُطَّلِبُ دمِ امرئٍ بغيرِ حق لِيُهْرِيقَ دَمَه**»[(٢)].

ومن سنة الجاهلية: أن تطلب الحق من غير الجاني لمجرد أنه قريبه.

إن هذا «**التكايل بالدم**» ليس عدلًا يرضاه الله، لكنه سلوك العصابات المجرمة التي تعتدي على حدود الله، ولا تُراعِي قولَه تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣].

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٧).

(٢) رواه من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا البخاري (٦٨٨٢).

وما أبعد الفرقَ بين القِصاص الذي شرعه الله وجعل فيه حياة، وبين الثأر الجاهلي:

- في القصاص يُقتل القاتل الجاني فقط، وفي الثأر قد يُقتل الجاني أو آخرُ بريء من أقربائه لمجرد أنه قريبه، فيقولون: «إن لقيت الغريم وإلا فابن عمه».

- القصاص يُطبق بعد التحقيق والتحري للتيقن من إدانة القاتل، على يد ولي الأمر أو القاضي الذي ينوب عنه، وليس موكولًا إلى آحاد الناس.

أما الثأر فتأخذه القبيلة أو شخص واحد بناء على الظن، وقد يفتقر إلى دليل قاطع على الإدانة.

- في القصاص: «**من قَتَلَ يُقْتَل**»، و«**المسلمون تتكافأ دِماهم**» قدرًا ومنزلةً، وفي الثأر لابد مِن قتل مَن يكافئ القتيل أو يزيد عليه في المكانة والمنزلة ولو كان بريئًا.

- عقوبة القصاص كفارةٌ لإثم القاتل، والثأر فتح لباب الشر والإثم المستمر.

- في القصاص ردع للجاني وزجر لغيره عن مثل فعله، وفي الثأر تحريض على سفك الدماء، وتوارث الأحقاد عبر الأجيال[(١)].

(١) ومهما بدا أن سيل الدماء توقف، لكن «**تبقى حَزازاتُ النفوس كما هيا**»، ويعيش كل طرف متربصًا بالآخر، أو متوقعًا غدره، لأن المطالِب بالثأر يظل حاملًا للفكرة مهما تقادم الزمان حتى إن بعضهم يقول: «الآخذ بثأر أبيه بعد أربعين سنة مستعجل»! =

- للقصاص بديل هو العفو وأخذ الدية، والثأر يرفض مبدأ العفو والصلح.

- القصاص يطفئ جمرة الفتنة ويخمدها، ويحقن الدماء، والثأر يفتح باب القتل على مصراعيه، فيتفجر سيل الدماء، وتتعاقب جرائم الثأر عبر الأجيال في دائرة مفرغة تُعْمِل سيف الإفناء في كِلا الطرفين.

وهذا آخر ما قصدتُ جمعه في هذا الباب، تذكرةً لأولي الألباب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلَّم وبارك على نبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



= ثم إنهم لا يعترفون بعقوبة سجن القاتل -التي هي في الأصل مخالِفة لتشريع القصاص- لأنهم يرون أن «القبر أضيق بكثير من الزنزانة».

الفهـــارس

أولًا: فهرس الأحاديث

مرتبٌ ألفبائيًّا

ثانيًا: فهرس الموضوعات

تم بحمد الله